

مطالعات
في
الرواية الفارسية المعاصرة

د. ابراهيم الدسوقي شتتا



مَطَالِعَاتُ فِي الرِّوَايَةِ الْفَارَسِيَّةِ الْمُعَاَصِرَةِ

تصميم الغلاف

فنحى أحمد

الاخراج الفنى

عفاف توفيق

مَطَالَعَاتُ فِي الرَّوَايَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمُعَاَصِرَةِ

دكتور
أبراهيم الدسوقي شتا
أستاذ اللغات المرقية بكلية الآداب
جامعة القاهرة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

إهداء

إلى أمي :

اعترافاً بالفضل

وامتناناً لدروس قل أن توجد في الكتب

إبراهيم الدسوقي شتا

تصدير

في هذا القرن خُطت الرواية الفارسية خطوات واسعة في طريق التطور ولست أريد بهذا التصدير المبسط أن أتعرض للرواية الفارسية : تاريخها وميادينها وأهم أعلامها ، فمن أجل ذلك أعد الآن كتاباً موسعاً عن الفن القصصي الفارسي عموماً من ١٨٦٥ الى ١٩٧٥ •

خلال اعدادي لهذا الكتاب ، جذب انتباهي بعض الروايات رأيت أنها تعد معالم على الطريق وأنها تصور القفزات الفنية الواسعة من ناحية المعالجة ، كما أنها تقدم صورة واضحة للشعب الايراني الشقيق في صراعاته المختلفة السياسية والاجتماعية ، وتدل على نمو الشخصية القومية لايران ، وفوق ذلك كله تعد دليلاً على التطويع الذي خضعت له اللغة الفارسية منذ مطلع هذا القرن حتى صارت صالحة للتعبير عن كافة الموضوعات •

هذه الروايات السبع التي أعرضها هنا جزء من كل ، فهناك بعض الروايات قرأت عنها كثيراً الا أنني لم أعثر عليها مثل رواية « عيناها » لبزرج علوي « ورييع العمر » لمحمد مسعود ، وطبعات هذه الروايات لا تجدد وليس للاقبال الجماهيري دخل في هذا الأمر •

ومن نافلة القول أن الرواية هي « ديوان الشعوب » ومن ثم أردت هنا أن أعرض التطور الاجتماعي للشعب الإيراني وصورا من حياته اليومية ومعتقداته وتقاليده وعاداته ، وكان الكتاب أوراقا مبعثرة كتبت في فترات متقطعة من العمر أردت أن أجمعها خاصة ولم يقدم من الأدب المعاصر الى اللغة العربية الا ما قدمه كاتب هذه السطور من ترجمة لأربع عشرة قصة قصيرة لصادق هدايت تحت عنوان « قصص من الأدب الفارسي المعاصر » (هيئة الكتاب ١٩٧٥) ورواية البومة العمياء لنفس الكاتب (هيئة الكتاب ١٩٧٦) ومن ثم خلا الكتاب الذي بين أيدينا من ذكر لهدايت بالرغم من أنه رائد الفن القصصي في إيران بلا منازع •

هذا الكتاب سياحة مكانية وزمانية داخل إيران ، أرجو أن يزداد منها القارئ العربي معرفة بشعب شقيق وعريق تربطنا به أقوى أواصر الود ، وهو أيضا دعوة الى السادة الزملاء أساتذة اللغة الفارسية وآدابها في الجامعات المصرية لعل رواية من الروايات المعروضة تصادف هوى في نفس أحدهم فيقدم على تقديم نصها الكامل الى العربية ، والله الموفق •

دكتور

ابراهيم الدسوقي شتا

استاذ اللغات الشرقية - كلية آداب القاهرة

١ - الورود التي تنبت في جهنم

محمد مسعود دهاني

ولد محمد مسعود دهاني من أسرة متواضعة في مدينة اقليلية صغيرة ، وفي بواكير عشريناته وصل الى العاصمة طهران واشتغل مدرسا في مدرسة ابتدائية ، ونشر عمله الأول « مسرات الليل » بالاسم المستعار دهاني في مجلة التسفق الأحمر ، وقد اثارت الرواية بلهجتها الحادة ضجة جذبت اليه احد الوزراء فأرسله في بعثة الى اوربا وظل فترة صامتا ومنذ سنة ١٩٤١ أصدر جريدته الأسبوعية « رجل اليوم » وهي مجلة سليطة لا تتوقف عند حد وبلته بعدد من الأعداء الأفوياء ظلوا بترصدونه حتى اغتيل سنة ١٩٤٧ ولا يزال فائله مجهولا .

ورواية « الورود التي تنبت في جهنم » جزء من ثلاثية أتم منها جزءين فقط ، والجزء الثاني وهو « ربيع العمر » على طول ما بحثت عنه لم استطع العثور عليه والجزء الأول لا تجدد طبعاته . والعرض الذي أقدمه الى القراء هو من الطبعة الأولى « ١٩٤٢ تهران » .

هذه رواية من أشد روايات النقد السياسى والاجتماعى وضوحا وأظهرها نعمة ، كتبها محمد مسعود وأردفها بالجزء الثانى ، وكان ينوى اتمامها بالجزء الثالث لولا أن يدا خفية أثيمة امتدت اليه فاغتالته ، ومضى الكاتب دون أن تتم الرواية •

جهنم - فى رأى الكاتب - هى ايران • وهى لم تتحول الى جهنم فى مطلع هذا القرن أى الزمن الذى تجرى فيه أحداث الرواية فحسب ، بل انها كما يعبر الكاتب على لسان بطله - ولعله الكاتب نفسه - طوال تاريخها الطويل ليست الا جهنم نزلت الى الأرض • ان هناك حلقتين متصلتين فى تاريخ ايران طوال عصورها ، انها تنقسم الى عصور من الفوضى تعقبها عصور من الديكتاتورية فعصور من الفوضى وهلم جرا • وبطل الرواية شاب درس فى أوروبا وتزوج وترك زوجته وعاد الى وطنه يبحث عن عمل حتى يرسل فى طلب زوجته ويخدم وطنه بهذا العلم الذى أفنى فيه شبابه فى الخارج •

ومقدمة الرواية عبارة عن خطابات متبادلة بين البطل وأحد أصدقائه ، ان الصديق يسأل عن أحوال صديقه الذى نعلم فيما بعد أن اسمه « محمود » ، ولكن محمودا صامت ، وزوجته وطفلها ينتظران رده دون جدوى ، وتأكل منهما الأيام يوما بعد يوم فيذوى جمالها ويحذف اليأس المظلم القاتل على نفسها يوما بعد يوم ، ويزورها صديقه هذا فلا يسمع منها الا نحيبا ، ولا يرى فى نظرات والديها الا سخطا ، وبعد طول انتظار يكتب لها زوجها خطابا قصيرا نعلم منه معها أنه لا يزال بلا عمل وأنه يحارب لسبب لا يدريه ، وأن الشرطة تطارده وأبواب العمل تسد فى وجهه وأنه متهم بتهمة الانتماء الى مذهب تحاربه الدولة وهو منه براء وتنتحر الزوجة لكن بعد أن تترك عدة خطابات من زوجها (لا نعلم كيف وصلت لها ولا أين

ولا متى) وهذه الخطابات التي وقعت في يد الكاتب (بطريق لا ندره أيضا) هي التي تكون بقية الرواية . والملاحظ أن صيغة الخطابات هي الصيغة التي تغلب على الرواية الفارسية المعاصرة ، ربما لأنها توحى بأكبر قدر من الواقعية ، وفي صيغة المتكلم ما يمنح الكاتب فرصة كبيرة للتعبير عن ذات نفسه ، أو الشطح الفلسفي واستعراض الثقافة وهي آفة لا تخلو منها رواية فارسية واحدة .

في الفصل الأول من الرواية أو من الخطابات نجد وصفا من أبلغ ما يمكن لايران في العشرينات من هذا القرن حيث سقطت في أيدي العسكريين لتصمت بعدها - الله يعلم الى متى . ان ايران جهنم يحكمها شيطان . ويلعب المؤلف على أسطورة الضحاك (١) القديمة ويحملها رموزا حديثة . ان الشيطان الذي يحكم خائف من الشباب مثل الضحاك القديم الأسطوري تنبت كل يوم حية في كل كتف من كتفيه لا تهدأ الا اذا أكلت نخاع شاب ، وان لم تأكل سببت للطاغية عذابا ما بعده عذاب ، انه يصف في هذه الفقرة البليغة ، الحياة في ايران في ذلك العصر أبلغ وصف : « شيوخوا لا دين لهم ، وشرطينا لص ، وقضاتنا قتلة ، نوابنا لم نتخبهم ولم نرهم طول عمرنا ، وهم أعدى أعدائنا ، مثقفونا أس الجهل والفساد ، ومحاكمنا مركز الظلم والشقاء ، كلنا نعلم هذا ، وتحدث بهذا الى بعضنا بعضا حين نخلو الى أنفسنا ، لكننا نحترم شيوخوا ، ونخاف من الشرطة ، ونقدم الالتماس الى القاضي ، ونستشفع النواب ، وننتظر من الحكومة الشفقة والمساعدة ، ونلجأ الى المحاكم لرفع الظلم

واحترامنا لشيوخوا ، وخوفنا من الشرطة ، ورفعنا الأمور الى القاضي ، واستشفاعنا بالنواب ، وتظلمنا للمحاكم كله رياء وكذب ،

(١) الضحاك بطل أسطوري قديم .. احتل ايران وسام أهلها سوفا من العذاب .. ثم نخلصت منه بيرة قادها كاوه الحداد واغريدون .

أما دعاء الشيوخ ، وحراسة الشرطة وعدالة القاضى ودفاع النائب فى المجلس فكلها أكذب من الكذب نفسه ، ان الكذب هو حطب جهنم التى نجيا فيها ، الكذب هو المواد الخام لمصنع الألم والعذاب هذا الكذب هو النتاج الذى لا تنتهى لمزرعة المصائب والآلام هذه ، الكذب هو البذور المباركة الخصبة الدائمة التى زرعت فى مواطن البلاء هذا •

ومع ذلك ففى وسط جهنم ترتفع دقات الطبول كل يوم ، ترقص عليها فتيات عاريات النهود يجمعهن موظفو الشيطان ليرقصن تحت أنظارهم الشهوانية فى احتفالات تسمى بالقومية بينما آباؤهن فى السجون ، وأمهاتهن يرزحن تحت عبء الحياة التى تقضى عليهن يوما بعد يوم ، هذا الجزء لا يخفى رمزه بل هو أشبه بالرمز الذى يضخم الحقيقة فيظهرها أقوى مما هى ، وهكذا تدور الأيام طاغية يسلم لطاغية آخر وظلم يشكى منه لظلم ، ولا حس ولا صوت ، فان جهنم لا تقبل الشكوى •

ثم ندخل فى الجزء المهم من الرواية وهو يتناول طفولة شاب ايرانى وصباه فى أوائل هذا القرن وتحت وطأة هذه الظروف ، ان هذا الجزء هو الترجمة العملية لهذا النقد القاسى الذى قدمه فى البداية • ان طفولة الشاب قاسية بالرغم من نشأته فى أسرة من الممكن أن توفر له ضرورات الحياة ، فهو طفل وحيد فى أسرة متوسطة لديها خادمة تسمى سكينه ستلعب دورا هاما فى حياة الطفل فيما بعد ، والأم لا ترى الا نادبة أو باكية ، لعل ذلك من نتاج الظلم الذى قاسته المرأة فى مجتمع يسيطر عليه رجال جهلة • والطفل يسكن فى الحى الذى يحيط بضريح الامام عبد العظيم حيث جبانة طهران ويختلط الموتى بالأحياء وبمتزج الموت بالحياة بحيث تصير روائح الموتى ومناظر جثثهم من الحياة اليومية ولا تختلف كثيرا عن بقية

جزئيات حياة الأحياء ، في هذا الجو المأساوي الحزين تسفى طفولة البطل وهناك في اللاوعي عنده تثبت صورة لا تفارقه (وهي تتكرر كثيرا في عدد من الروايات الفارسية المعاصرة) وهي صورة احتفالات المؤمنين من الشيعة بالعاشر من محرم وبمصرع الحسين عليه السلام في كربلاء حيث تمثل صور تمثل مصرع سيد الشهداء مع زهرة سُبَاب آل البيت في كربلاء ، ويضرب المحتفلون أنفسهم بالأسلحة ؛ خفيفها وثقلها تكفيرا عن خذلانهم للحسين ، واستحضارا لدمائه الذكية ومن مات فهو في عرف الفقهاء الشيعة شهيد ، ويندمج الممثلون في أدوارهم فتسيل الدماء أنهارا ، ويقتل بعضهم فتلقفهم أيدي الناس مكبرة مهللة فتلقى بهم بملابسهم في حفر أعدت خصيصا لهذا الغرض ، وبالرغم مما في الصورة من بشاعة لا يقرها الاسلام السماح الا أن الطفل كان ينتظر بفارغ الصبر يوم أن يكبر ويسمح له بأن يشترك في هذه الاحتفالات ، ويسمح له بأن يحمل السيف يسيل به دمه عله يسمح الخطايا المفتعلة التي ارتكبها هؤلاء التعساء في حياتهم التعسة ♦

من نفس هذه المقابر كان طريق الطفل الى المدرسة ، وكانت تسلية الطريق مشاهدة الموتى ، أجل الموتى ، ليس الموتى القادمين من المدينة فحسب ، بل الموتى القادمون من أطراف ايران أيضا ليدفنوا بجوار الامام عليهم يحشرون معه يوم القيامة وقد وصلت جثثهم الى كنف الامام وقد لحقها التحلل ففاحت روائحها وتساقطت أطرافها وتمزقت أكفانها ، من شكل الأظافر أو الشعر أو الأجزاء الظاهرة من جثث هؤلاء الموتى كان الأطفال يتناقشون حول جنس المتوفى أو سنه ، وهكذا يمضون الطريق الى المدرسة ♦

ويصل الطفل مع زملائه الى المدرسة ، حيث مناهج التعليم العقيمة ، فقد ألغيت أشعار سعدى وحافظ التي تدعو الى الحب ،

وحلت محلها - بدعوى التطور - أسماء أنهار أمريكا الجنوبية أو أسماء أنواع من الطعام لم يكن يحلم الأطفال حتى بأن يروها يوما من الأيام ، وفي المدرسة مدرسون غلاظ شداد لا ينجو من نظراتهم الشبهة طفل ذو وجه صبح ، وينقضى اليوم الدراسي بخيره وشره ليعود الأطفال من نفس الطريق ، ولكن المقابر في ذلك الوقت غاصة بالناس ، الحواة الذين يلعبون بالحيات حيث تهرب منهم وتختار الحياة بين الموتى ، والدراويش والوعاظ الشعبيون الذين يعرضون مناظر ساذجة تمثل مشاهد آل البيت ويجمعون الصدقات ، أو يفتنون بأسلوب فج لا مواربة فيه في قضايا الزنا والطلاق وبمدلولات جنسية كانت تثير في عقول الأطفال الغضة العديد من الأسئلة .

ومن بين هؤلاء الأطفال اصطفى بطلنا رفيقا ، وكان فقدانه لهذا الصديق أول صدمة يتلقاها . كان « أحمد » وسيما ذكيا وصموتا ومؤدبا ونظيفا وكان فوق هذا يشارك بطلنا الرغبة أو الأمل في أن يشترك في احتفالات المحرم ، وها هما يلتقيان بأحد الصناع في سوق النحاسين فيتفقان على كل شيء : على أن يصنع لهما السيف والقيود ، وعلى أن يتلقى منهما الثمن أقساطا ، وها هما يبيعان كتبهما القديمة ويسلمان الصناع كل ما يصل الى أيديهما من تقود بطريق مشروع أو غير مشروع ، وهل هناك طريق غير مشروع في سبيل هذه الغاية العظيمة والهدف السامي ؟ لكن بمجرد أن يقترب الموسم يسقط أحمد مريضا ، بدأ الأمر عاديا ، تغيب أحمد يوما عن المدرسة فذهب صاحبنا لزيارته فوجده يعاني من ارتفاع طفيف في درجة الحرارة ، الا أن هذه الوعكة اشتدت حتى انقلبت الى حمى ، وها هو صاحبنا يذهب لزيارته فلا يكاد يعرفه المريض ، وذات صباح كان محسود ذاهبا الى صديقه المحتضر ، وعندما اقترب من المنزل سمع صراخا يعرف دلالة جيدا ، مات رفيق الصبا ولأول مرة يفهم الطفل معنى

الموت ، كانت المرة الأولى التي يرى فيها ميتا بعد أن عرفه وعاش معه وهو حي ، ولم يطق ، خرج من منزل صاحبه الى الخلاء ، في نفس المكان الذي كان يجلس فيه مع صديقه يستذكران ويخططان لاحتفالات عاشوراء ، ومن بعيد كان يسمع الجلبة والصراخ ، كما كان يسمع غناء يأتي من بعيد ، ولكن ما كان يرن في أذنه هو الأغنية التي كان يغنيها دائما مع رفيقه :

طائر اللقلق محلق في الفضاء في قدمه جلاجل
ذهبنا الى منزله فوجدنا ماته

ثم ندخل في مرحلة أخرى من حياة البطل ، لقد بدأ يحس بتغيرات في كل أنحاء جسده ، بدأ يهتم بالجنس الآخر ، بدأ يميز بين الوجه الحسن والوجه القبيح ، وتركزت كل رغباته غير المفهومة حول جارة من جيرانهم ، انها كبيرة في السن ومتزوجة ، لكنه لم يكن يرى غيرها وسكينة خادمتهم ، وفي النهاية عندما لا يقنع بخيال الجارة يقنع بسكينة ، انها ليست جميلة لكنها على كل حال في متناول اليد ، وهو لا يراها كما هي عليه بالفعل ، لكنه يراها بعين خياله ، يراها بطلة من بطلات القصص الرومانسي الفارسي ، يراها شيرين ويرى نفسه خسرو ، ويرaha ليلي ويرى نفسه المجنون ، ويرaha زليخا ويرى نفسه يوسف ، ويجدها المؤلف فرصة ليتفلسف ، لو كان لكل النساء قبح سكبنة لانمحي من العالم ثلثا ما حاق من شقاء على الأقل ، ويمط المؤلف في هذه الفكرة فيأتي بالأمثلة من كتب التاريخ حتى لنكاد ننسى الرواية والبطل والأحداث ، وهذه النقيصة تكاد تكون موجودة في كل الروايات الفارسية ، ان المؤلف يستطرد ويستعرض وييسط بساط الفضل والثقافة ويدير الأحاديث الفلسفية العميقة على أسنة أبطال حظهم من الثقافة ضئيل أو معدوم ، ميراث فكري سقط الى الروائي الفارسي من الشعر الفارسي الكلاسي،

حيث كان الشاعر يصّر على أن يظهر لممدوحه مدى ما حصله من
فنون الثقافة ♦

ثم يعود بنا الكاتب بعد يأس الى بطلنا ، فاذا بنا معه في لحظاته
المختلطة مع سكيّنة عندما يخرج والده الى العمل وتخرج والدته في
زيارتها المعتادة الى المقابر ، كانت في السابعة عشرة فكانت تضمه
اليها كما تضم الأم ولدها وتتركه يتحسسها ، وفي هذا العالم
المختلس نسي الصبي مأساه طفولته ونسى صديقه تماما ، ولم يعد
من ذكرى أحمد ما يؤرقه الا الصانع في سوق النحاسين الذي ذهب
اليه بعد وفاة صديقه يسترد ما دفعه معا فادعى الرجل أنه وهبها
جميعا صدقة على روح أحمد ، وهو متأكد أنه لم يفعل ♦

لم ينم من الصبي جسده فحسب ، بل انه ليحس باستقلاله
الفكري ، لقد بدأ ينظر بعين الزايرة الى معتقدات أمه والى أفكار
أبيه ، وبينما كان يحاجي أمه كان لايزال خائفا من أبيه ، حتى انمحي
ذلك الخوف ذات ليلة ، كانت الحرب العالمية الاولى قد أعلنت ،
وأخذ أبوه يشرح لأمه بلهجة العالم الواثق كيف أن غليوم أعلن الحرب
شفقة بالمسلمين ، وكيف أنه يضمّر اسلامه وسوف يعلنه بعد
اتنصاره النهائي ، وينكر الصبي ما سمع ، لقد قرأ أن الملوك والسلاطين
يعلنون الحروب ويشنونها لمنافعهم الشخصية ، ويندفع الصبي الذي
من المفروض أنه مراهق فيلقى خطبة عصماء عن الثورة الفرنسية
والجمهورية ، ويهز الوالد رأسه ويصمت ، ثم ينقل أحاديث ولده
العجيبة الى أحد أصدقائه ، ويطلب الصديق لقاء الصبي الأعجوبة
ويلتقى الصبي بالمقابل الفكري لسكيّنة ♦

لقد كان الرجل من أبطال الحركة 'الدستورية' في ايران ، وأبوه
نفسه يقص عليه أنه كان من رسل الأحرار يوم أن ضرب المجلس

النيابي بالقنابل ، يلتقى الصبى بالشخصية الوحيدة الشريفة البيضاء في حياته وفي روايتنا هذه ، ويقف مبهوتا ، مبهوتا من نظافة المنزل ومن الكتب التي تملأ أرجاءه ومن نظافة الشاي الذي قدم له ثم من بشاشة الرجل ولطف حديثه ، ويتهيب الصبى قليلا ، ولا تلبث هيئته أن تزول ، ويشرح له الرجل أسباب الحرب ، وتنقلب الرواية الى درس في فلسفة التاريخ في جزء من أشد أجزاءها املاالا ، وفي النهاية يتنبأ الرجل للصبى بمستقبل مرموق ، ويهديه بعض الكتب ، وينصرف الى حال سبيله .

مع هذه الكتب ينسى الصبى حياته الحاضرة ، وينسى سكينه وعالمها ، ان هي الا شيء أرضى يواعد بينه وبين العالم السماوى الراقى الذى فتحه مرشده الروحى أمام أنظاره المتعطشة الى كل ما هو طاهر وجميل ، وهكذا أخذ الصبى يقضى سحابة نهاره وجزءا من ليله مع أمهات الكتب التى بعثت النهضة الايرانية فى أواخر القرن الماضى : حاجى بابا الأصفهانى ، سياحتنامه مع ابراهيم بك ، ومع أمثال هذه الكتب تفتحت عينا الصبى على ما فى بلده من فقر وجهل ومرض ، كانت أول كتب غير دراسية تقع فى يده ، وعن طريقها فهم الى أى مدى فاسدة هي ومزيفة ومضللة كتب الدراسة .

ولكن لم يقدر للصبى أن يعيش فى هذا العالم النظيف أطول فترة مسكنة ، لقد فتح عينيه لينظر حوله ، فهاله ما رأى ، كان أول ما رأى سكينه المسكينه ، ان البنت قد تغيرت ، تنفرد بنفسها كثيرا وتبكي ، اختفت البسمة من عينيها ومن وجهها ، وينتهز الفتى فرصة خلو المنزل الا منه ومنها ويفكر فى اصلاح ما يرى أنه أفسده ، لاشك أنه طاعية صغير أن يترك الفتاة مدلهة فى حبه دون أن يعيد البسمة الى شفقتها ، كان قد فكر وحزم أمره أنه سوف يتزوج الفتاة وأنه سوف يستقل بحياته ان عارض أبواه ، لكن البنت

ويا لعجبه تنتهره حين يقترب منها ، يريد أن يتحسس صدرها فتناى به خائفة ، ماذا بها ؟ لقد كانت تغريه دائما بأن يتحسس هذا الصدر ، انه يحدثها فلا تجيب الا بالبكاء ، يعدها بالزواج فتجيب : ليتنى أتزوج القبر ، وحين ييكي لبكائها تأخذه بين أحضانها لكن الفتى يحس كما لو أن الفتاة قد سنت قليلا وارتفع بطنها •

ويحار الصبي ، لكن حيرته لا تدوم طويلا ، فها هو ذات ليلة يكتشف السر دون أن يقصد ، سمع حوارا بين والديه بينما كان بين النوم واليقظة ، ان سكينه حامل وممن ؟ من « شريف الذاكرين » رن الاسم في أذن الصبي وتمنى لو أن أذنه كذبت عليه ، شريف الذاكرين ؟ ذلك الواعظ الذى كان يدخل المنزل ليقرأ سير آل البيت ومناقبهم والتي كانت أمه تراه تمثالا من التقوى والورع ؟ كانت أنفاسه معجزة وكان ريقه دواء ، مستحيل ، ويسمع أمه تحاول أن تستنكر النبأ الا أن والده يؤكد لها ربما لا يحتل الشك ، لقد شكت له زوجة « شريف الذاكرين » ، وأنها قادته الى منزل مشبوه أطل من فرجة منه فرأى سكينه فى أحضان شريف ، ما الحل اذن ؟ لا حل الا أن يأتى شريف الذاكرين ويتزوج سكينه ، ولكن والده يرى أن تنفيذ هذا الحل من الصعوبة بمكان ، لقد كانت سكينه على علاقة بحسن البقال قبل شريف الذاكرين ، وبين شريف والبقال عدااء مستحكم من أجل سكينه ، وبالأمس هدد البقال سكينه بأنها ان تزوجت من غريمه سوف يقتلها ويقتله ، وفجع الصبي أشد الفجعة مما سمعه ، لم تكن ليلي ولا شيرين ولا زليخا ولم يكن وحده ، بل لم يكن له من نصيب منها الا الفتات ، ومع من ؟ شريف الذاكرين دون سواه ، ألهذا كانت سكينه تخرج كثيرا بدعوى زيارة الأئمة والصلاة ؟ ألهذا كانت تصوم كثيرا ؟ وانزاحت غمة أخرى من أمام عين الصبي •

ولم يطل الأمر كثيرا ، ذات يوم بينما كان عند الفجر بين النوم

واليقظة ، سمع ضجة وصخبا ، فى الفناء كان هناك جسد سكينه
الممزق الدامى تغطيه طراحة بيضاء ، قتلها حسن البقال وبحث عن
شريف الذاكرين ليقتله فلم يجده فأسرع الى المسجد وتحصن حيث
لا يناله قانون فى ذلك الزمان ، وفى اليوم التالى شاع أن شريف هو
الآخر أسرع الى ضريح الامام فتحصن ، ضم المسجد القاتلين وقتلت
الضحية وسقط الصبى مريضا •

لم يكن يسمع فى مرضه وهو فى هذيان الحمى الا صوت
رفيق طفولته ، يراه فى هذيانه بوجهه الجميل يغنى :

طائر اللآلئى محلق فى الفضاء فى قدمه جلاجل

ذهبنا الى منزله فوجدنا هاتين

وأفاق الصبى جسدا مهتما ليصاب بصدمته الكبرى التى
قضت على عالم طفولته ، لقد بدأت القوات الروسية وقوات القوزاق
فى الزحف على طهران لحماية محمد شاه قاجار من الأحرار الذين
كانوا يطالبون بالدستور والحكم النيابى ، ان الروس على رمى
البصر من العاصمة ويوم يصلون ، سوف تسيل الدماء أنهارا ، وها هو
والده يغادرهم هاربا بعد أن غادرتهم سكينه ، وها هو يبقى مع أمه
وحيدا ، ودموعها لا تنفك تسيل على وجهها ، وها هو المنزل يتحول
الى قبر مثل القبور العديدة التى تحيط به ، وذات يوم كان يسير
فى الشارع على غير هدى فرأى جمعا من الناس يتجهون الى مكان
ما ، فسار معهم ، كان الناس يحيطون بفصيلة من جنود القوزاق
تسير شاكية السلاح حول رجل عارى الرأس حافى القدمين مكبل
اليدين ، وسرعان ما عرف فيه مرشده القديم ، وسارت الفصيلة
حتى وصلت الى المخفر ، كان الناس يسبون المتهم ، وكان يسمع
ألفاظا من قبيل الخائن والمجرم والعميل ، مستحيل ؟ لكن مرشده
الروحى كان يواجه كل شيء بابتسامة ، يا للغوغاء ، أليس فى سبيلهم

كان الرجل يكافح ؟ وعلى أبواب المخفر وقف قائدهم يسب الرجل ،
والرجل صامت وفي النهاية عندما طفح به الكيل رد عليه قائلا :

« ماذا تعنى من هذه الكلمات ؟ افعل ما تستطيع ، وتأكد أنك
ما دمت تحمل هذه الأسلحة فلن يحاسبك أحد ، فليس هنا أحد
أصلا يستطيع أن يسألك فيما بعد ، لم ير أحد حتى الآن أحدا
حسب حسابا للموتى أو خجل من الثاوين في قبورهم أو خاف منهم ،
هؤلاء جميعا موتى ، وهنا مقبرة ، ليس هنا فحسب بل في أنحاء
وطننا كله ، مقبرة مشؤومة لا ينبغي أن يعيش فيها الا البوم
والضباع ، والآن وأنت في وسط هذه المقبرة وبين هؤلاء الموتى ،
قل كل ما بدالك وافعل كل ما تريد ، اخلع عنهم ملابسهم ، وقل لهم
اننى أكسوكم ، اثم اضربهم بالسوط » •

ولم يطق القائد صبرا ، فأمر الفرقة أن تطلق الرصاص ،
وانطلقت الرصاصات في قلب الرجل ورأسه ، ودوى أزيزها في رأس
الصبي وأغمى عليه •

لم يكن في اغمائه يرى الا وجه صديقه ، ولم يكن يسمع
الا صوته يترنم بالأغنية التى كانا يترنمان بها معا :

طائر اللقلق محلق فى الفضاء فى قدمه جلاجل
ذهبنا الى منزله فوجدنا ماتمه

هنا تنتهى الرواية ، ومن أسف أننى لم أعثر على جزئها الثانى ،
ولم يعيش المؤلف ليكتب جزءها الثالث ، الا أن الكثيرين من بعده
كتبوه فى أعمال أخرى •

٢ - زيبا

محمد حجازى

ولد محمد حجازى معتمد الدولة سنة ١٨٩٠ ودرس العلوم السياسية فى باريس ، وارتبط منذ عودته من البعثة بالحياة الادارية تماما ، فرأس « هيئة تربية الأفكار » التى أسسها رضا شاه للتوجيه الجماعى لعقل الأمة الايرانية ، كما رأس الاذاعة الايرانية فترة من الزمن ، ثم شغل مقعدا فى مجلس الشيوخ حتم وفاته ١٩٧٤ .

وهو كاتب تقليدى يميل أسلوبه الى الأخذ بالمدرسة القديمة مع ميل الى الرومانسية الفرنسية المنشوّهة فى عصور مرضها مع مزجها ببعض ملامح الشعر الفارسى الكلاسيكى . ولا عمل له يذكر الا هذه الرواية التى أقدمها ، والتى تتناول الفساد فى ايران من وجهة نظر كاتب عاش فى خضمه حتى النخاع ، وتعد فى هذا المجال من أهم ما كتب فى الفارسية المعاصرة بالرغم من تعدد مساوئها الفنية .

كنت قد عزمت بعد أن قرأت نصف هذه الرواية الطويلة (٥٣٧ صفحة) أن أكتب لها عنوانا جامعا هو « الفساد الادارى فى

ايران » ولكنى بعد أن أتممتها وجدت أن هذا العنوان ليس جامعاً ، فليس الفساد الذى حاول المؤلف أن يجعل منه الاطار الذى يحيط بروايته فسادا اداريا فحسب ، بل هو فساد سياسى وفساد خلقى وفساد نفسى وفساد ادارى وفساد اجتماعى بحيث يجد القارىء نفسه تائها وحائرا فى تشخيص هذا الفساد . هل نشأ الفساد السياسى عن الفساد الادارى ؟ أم نشأ عن الفساد الأخلاقى ؟ أم أن كليهما نشأ عن الفساد النفسى ؟ هل أصل الفساد أخلاقى أم ادارى أم نفسى ؟ وذلك لأن الرواية واسعة حافلة بالشخوص والأحداث ألقى فيها المؤلف بكل ثقله وتجارب حياته فهى آخر رواية كتبها بعد عدد من الروايات كان أغلب أحداثها يدور فى حجرات النوم ، وكان الكاتب مطعونا فى وطنيته فربما أراد بهذه الوثيقة الطويلة الهامة أن يتتبع أخطبوط الفساد فى ايران ، أو ينفى عن نفسه صفة السلبية التى لصقت به فترة من الزمن أو صفة الولاء للقصر التى لايزال معاصروه حتى بعد وفاته يعيرونه بها ، هذا وان كان الكاتب لم يستطع أن يتخلص أثناء معالجته لهذا الموضوع الجاد من الرومانسية الفاتنازية التى لونت كل أعماله فجعل منبع الفساد امرأة بغيا تلعب من وراء الستار برجل دين فاسد سقط فى حبائلها فتحركه كما تريد وتجعل منه أداة لتنفيذ ما تبغى . وهو مندفع أول الأمر بتأثير حبه لها ، ثم مندفع بحكم العادة ، ثم مندفع بتأثير طموحه الذى لا يحد والذى أذكت تلك المرآة أواره ، ثم بحكم جبنه المتأصل أو مصيره الأسود الذى كان يلقي به نحو الهاوية ، ولست أشك أن الكاتب وهو الذى تلقى دروسه فى فرنسا وأجاد الفرنسية اجادة تامة قد قرأ ستندال ، بل أؤكد أنه قرأ رواية ستندال « الأحمر والأسود » خاصة فهناك تشابه عجيب حتى فى أدق التفاصيل بين شخصية بطل روايته وشخصية « جوليان » فى « الأحمر والأسود » .

ولاشك أن قارئ الكتاب سوف يفاجأ بنهاية الرواية كما فوجئت

عند قراءتها لأول مرة ، ذلك أن الراوى وهو بطل الرواية يخبرنا (فى حين أنه يخبر أيضا المدعى العام فالرواية كلها خطاب من متهم سياسى الى المدعى العام) يعلمنا هذا البطل - الشيخ حسين فى بدايتها وحسين خان فى وسطها وحسين قياس الدولة فى نهايتها - أنه لم يقل الا قليلا من كثير ، وأن كل ما قاله ليس الا مقدمة ، ولذلك شك النقاد أن المؤلف فى سبيله الى تقديم جزء تال للرواية ، لكن المؤلف 'م يقدم هذا الجزء ولعله أشفق من أن يتناول فيه أشخاصا لازالوا أحياء أو فى السلطة أو لعله رأى من الخير أن يعيش شيخوخته آمنا فى مجلس الشيوخ ، وأنه ليس من الحكمة أن ينقد عهدا كان واحدا من كبار عسده وظل مخلصا له حتى النفس الأخير .

يقص البطل فى البداية طفولته فى قرية « مزينان » من قرى سبزوار حيث كان يعيش مع والده ووالدته وابنة عمه اليتسة المسماة عليه « زينب » والطفل يخشى والده الا أنه يراه ينحنى ليقبل يد شيخ الجامع فيقرر أن يكون شيخا ، وبهذه الرغبة يصر اصرارا طفوليا على التعليم فلا يجد والده بدا من موافقته على هذه الرغبة ، وينسى الطفل عالمه الطفولى وحكايات والدته عن الجن والشياطين وينغمس بكل حساسه فى التعليم ، فلا يكتفى بأن يتم تعليمه الدينى فى القرية وفى سبزوار بل يرحل الى العاصمة طهران فى طلب العلم بالرغم من الحاح والده عليه بالعودة لادارة أرضه وزراعتها وللزواج من ابنة عمه فيرسل خطابا مطولا الى والده فى فضائل العلم والى ابنة عمه فى فضائل الصبر ثم يفتح عينيه على زحام المدينة الكبيرة « فمن السهل جدا فيها ألا ينتبه الانسان الى الآخرين » وفى مدة أسبوع واحد كاذ قد طاف بكل مدارس طهران واختار أوسعها وأفخمها وبعد لأى استطاع أن يجد حجرة داخل المدرسة ، ومن المدرسة بتعرف الى تاجر من سبزوار جاء بولده للعلم ، وعن طريق هذا الولد الذى كان

تحت رعاية الشيخ حسين تعرف الشيخ بزيبا التي حددت مصير حياته .

لأن الشيخ حسين كان مشهورا بزهده وتقواه ، أوصاه التاجر خيرا بولده ، وسرعان ما اكتشف الشيخ أن الشاب كثير التغيب عن المدرسة ، وأنه كثيرا ما يغير زيه الديني بالزى الأوربي ، وأنه يعود من غيابة ورائحة العطر تفوح منه ، كان هذا الشاب على علاقة بزيبا التي زارت الشيخ في صومعته ذات يوم فقلبت كل مفاهيمه عن الحياة ، كان نادرا ما يفكر في حياته أو في فقره المدقع أو في سحته الكثيرة ، قدفعته الى أن يقارن نفسه بالشاب المبتسم الأنيق وولدت في نفسه شعورا بالحسد فنقل كل مخازيه الى والده فقرّر أن يحمله معه الى سبزوار ، وعند الوداع يلتقي الشيخ بنفس المرأة أو على حد تعبيره « بنفس العطر » وهي تستحلف الشيخ أن يحول بين حبيبيها والسفر وتبكي وتستعطف الا أن بكاءها لا يقابل الا بالسخرية من الحاضرين ، ويسافر الشاب بعد أن تكون بذرة الحسد قد صارت شجرة في نفس الشيخ الذي عرفنا الكثير عن مضاء عزيمته وطموحه الذي لا يحد ، وتوسله الى ما يريد بكل الوسائل وحسده وحقده ومركبات النقص التي تملأ نفسه ، لقد نسي خطيئته القروية تماما ، وأين هي من تلك المرأة ؟ ان قريته مزينا لم تشم هذا العطر أبدا .

ويتصل جبل المودة بين الشيخ والمرأة فقد أرسلت اليه خادمتهما ، انها تريد أن تشكره على تأثره ببيكائها وتهديته لخاطرها ولأن الشيخ لا يريد أن يجلس مع امرأة محرمة فاذا به من أول جلسة بعقد عليها عقد متعة ليحل له الجلوس فحسب ولأن الشيخ كان متحفظا ولأن زيبا أعجبت بقوته وفحولته ولأن المؤلف أيضا كان متعجلا اذا بالشيخ ينهار عند أول كأس ولا يفيق الا في الصباح وهو في أحضان زيبا وحين يلوم نفسه لا تجد المرأة من وسيلة الا أن تحمله حملا الى

الفراش ، وعلى هذا المنوال تمضى أيام وليال وينتهدى الشيخ فرصة ما فيسر عائدًا الى مدرسته ولكنه لا يستطيع أن يقضى فيها سحابة نهاره ، أى عالم هذا ؟ وفى المساء يعود الى محبوبته فقد أحس بأن كل ما فى المدرسة غريب عليه ، ومنذ تلك الليلة نودع الطالب الدينى الشيخ حسين لنبداً مع حسين جديد ، دون أمل فى أن يكون واعظاً كبيراً يصلى الناس خلفه •

تبدأ حياة الشيخ حسين الادارية بأن زيبا تدبر له عملاً فى وزاره ما تفهم فى آخر الرواية أنها وزارة الداخلية ، وعن طريق واحد من عشاقها العديدين يطلق عليه المؤلف هذا اللقب الساخر « غامض الدولة » وتقدمه الى حسين على أنه ابن عمها • ويمضى حسين الى الوزارة ، لكنه يقف فى أروقتها خائفاً ، انه خائف من الحركة ومن الحديث ومن الناس الذين يراهم راضحين وغادين يحملون الملفات السمكة فى أيديهم ، خائف من العربات التى تقف على باب الوزارة ويقف الناس صامتين كأنهم فى انتظار صاعقة أو مخلوق نورانى يملأ العالم نورا ولا تسفر العربة فى النهاية الا عن مخلوق كبقية خلق الله من دم ولحم ويلبس قلنسوة وله شارب ويعود الى زيبا كالطفل التائه الذى عاد الى حضن أمه فتخبره أنها أعدت كل شئ وليس عليه الا أن يذهب فى اليوم التالى الى الوزير ويذهب حسلين ويحسبه الوزير صحفياً فيقدم له المظروف المعتاد ثم يعرف حقيقته ويطرده من الوزارة ويعود خائفاً الى زيبا يود أن يحزم ملابسه ويعود الى قريته ويطلب منها أن تصحبه ، فتسخر منه وتذكره بعجزه فى الابتعاد عنها ليلة واحدة فيرضخ ، وتعد زيبا كل شئ ويبدأ لقاءنا بميرزا حسينخان بدلا من الشيخ حسين ، لقد أصبح موظفاً خطيراً يحسب له ألف حساب •

ان ميرزا حسين خان موزع بين أمرين لم يكن له بأحدهما سابق معرفة : انه الآن رئيس قلم الاحصاء ولا يعلم عن الاحصاء شيئاً

الا أنه من حصا يحصو حصوا • وهو خائف ومشفق من عبه الذى لا يعرف عنه شيئا ، وخائف ومشفق أيضا من منافسيه الذين لا يعرفهم ، وهو مشفق من الأكاذيب التى يطلقها من عينه وهو أنه متعلم فى أوربا وأنه خير من يصلح لهذا العمل ، وهو تائه ينظر نظر المغشى عليه من الموت الى الأشباح التى تملأ حجرته وتقيسه طولاً وعرضاً : كأنها تريد أن تخلع عنه ملابسه لترى ما تحتها ، وهو ينظر بعين زائغة الى الخطوط الحمراء والزرقاء التى أتاها بها أحد مرؤوسيه لمراجعتها ، يرى فى هذه الخطوط أيامه السوداء المضطربة ، لكن الأمر لا يلبث أن يسير كما تسير الأمور فى هذا الجزء من العالم ، يجتمع حوله المتنافسون والدساسون والنمامون والمنافقون يشنون عليه ويعيون على سلفه الذى كان من صفاته كذا وكذا وكيت وكيت ، وهو ينظر بعينه فيصطفى واحدا منهم لمح فى عينيه الاخلاص ولمح أيضا ما هو أهم وهو المعرفة ببواطن العمل ، يصطفى « برويز خان » وهو لا يعلم أنه اختار منافسا خطيرا له فى قلب ، زيبا أو فى شهواتها التى لا تنتهى ، وأنه فى الميدان الآخر الذى دخله أيضا دون سابق تجربة لم يعد الفرد الصمد ، بل أصبح آلة تسيرها زيبا فى سبيل حبها لبرويز الذى تطور من رغبة حتى صار حبا عارما قاتلا سيطر على مصائر كل أبطال الرواية حتى زيبا نفسها ، لقد كان برويز هو المقابل الشريف الطاهر لكل أبطال الرواية الجاهلة الملوثة العمياء •

كان برويز يشرح أفكاره فى العمل لحسين خان ، وكان حسين خان يرددها بدوره فى الاجتماعات واللجان وأمام ذوى الأمر والنهى ، وكان فى نفس الوقت يسلب دون قصد منه كل ما فى حياة حسين خان •• كان يسلب زيبا ، ولأن زيبا مدحته أمام حسين خان يتحرك حقه القديم فيقصيه عن العمل ، لكنه يكتشف أن رئيسه الذى عينه ليس ابن عم زيبا بل عشيقها ، كما أن غامض الدولة هذا يعلم أنه ليس ابن خالة زيبا كما ادعت له ، وفى نفس الليلة يتشاجر مع زيبا ،

انها تريد ان تتزوجه بعقد نكاح دائم لا متعة وهو يتهرب ، وهي
ساخطة عليه لانه بدأ يتشاجر مع غامض الدولة على المكشوف ، ثم
تطرده ، وحين يريد أن ينصرف تبكى وتنتهى الليلة بما تنتهى به كل
الليالى •

يستمر حسين خان فى العمل ؛ شهران مرا وهو لم يتقاض مرتبه
بعد ، وما يحدث كل يوم يهدد أمره بالافتضاح ، انه يريد أن يهرب
من الهوة التى ألقى بنفسه فيها فمرة يأبى خبير أوربى الى مكتب
الوزير فيستدعيه للترجمة ومرة يدعى الى اجتماع لرؤساء الادارات
فى الوزارة لمناقشة سياستها لكن الله يسلم ويمضى الاجتماع دون
كلمة جدية واحدة ويحمد الله على السلامة ، ان من مصلحتهم أن
يستمر الاجتماع فهو زيادة فى أجورهم ، وهو من شدة خوفه ينسى
زيا ويستعين ببرويز ثانية ، ويفيض برويز فى الحديث عن الفساد وعن
جهل رؤساء الادارات حتى بات حسين خان يظن أنه المقصود •
ويذهب حسين باقتراحات برويز الى غامض الدولة لكن غامض الدولة
يلومه « انه لم يصبح حصرا فكيف يريد أن يكون زيبا » •

وفى مكتب الوزارة يسأله عن زيبا ، ويتحدها حسين خان
فلا يملك غامض الدولة الا أن يحدثه عن أصل زيبا ، انها بغى
أصفهانية ، وهى أصلح لشيخ مثله ، ان تنازل عنها حسين للوزير ،
فسوف يزوجه بنت أحد رؤساء الادارات ، ويضم الاحصاء للحسابات
ويكون هو الرئيس الكلى لادارة المحاسبات وبرويز رئيس الاحصاء
كل هذا فى سبيل أن يتخلى عن زيبا ؟ يا بلاش •

استطاع حسين خان بهذه الوسيلة أن يؤمن مستقبله أو هكذا
ظن ، لقد وعد الوزير أن يتنازل عنها ، لكنه يعلم رغبتها فى برويز ،
اذن فليقرب منها برويز فيستفيد منه فى العمل ويكيد للوزير الذى
حرمه منها هذا بالرغم من أن الوزير نفذ كل ما وعده به ، زوجه من
بنت « محرر الديوان » لكن حسين خان رأى الفتاة العذراء غير المجربة

كأسوأ ما يرى انسان أثناءه ، لقد كان يطمع بأن تحمل اليه الجواهر لكنها لم تحمل اليه شيئاً مما كان يطمع فيه ، فكان أن هرب منها منذ أول ليلة الى أحضان زيبا . لكن زيبا ما كانت لتصفو له ، انها لم تعد تريده ، ولم تعد تريد غامض الدولة الشيخ الذى لا تقع فيه ، ان حسين فى رأيها قروى انتهازى تستطيع كما عينته بغمزة من عينها أن تقصيه بغمزة أخرى ، انها لم تعد تريد سوى برويز ، انها تلاحقه وتغريه بأنها تستطيع أن توصله كما أوصلت حسين، خان مثله الأعلى ، ان حسين خان يعلم فلا يثور على زيبا بل يثور على برويز يقول : « كان أول ما أحسست به أن أضرب برويز لكميتين على رأسه وأقول له : أيها الأحقق الذى لا عقل له وهل يهرب انسان من حظه ؟ اذن بأية وسيلة تريد أن تصعد سلم الترقى ولا ظهر لك ولا مال ؟ لماذا ترد اليد التى امتدت اليك من عالم الغيب بدلا من أن تقبلها ؟ ان زيبا تريد من حسين خان المقابل : عليه أن يحمل برويز اليها حملا ، وحسين خان فى صراع مع نفسه تهيب به رجولته التى ديسست فى شوارع طهران أن يتخلص من اسار زيبا ، لكن أنى له هذا ؟ لقد أصبح لا يطيق النظر فى وجه زوجته تلك التى داس فى سبيل الزواج منها على كل حذره فارتشى علنا ، لم يبق له الا زيبا ، انها حقيقة نار لكنها لا تحرق لأنه يحبها ، انه يذهب اليها فيجدها فى أحضان غامض الدولة فيتشاجران ويسقطان معا فى حوض الماء . »

ولا يسفر غامض الدولة عن رغبته فى الانتقام فى اليوم التالى ، انه يخبر حسين خان أن الوزارة فى سبيلها الى السقوط ، وأن عليهما أن يتعاونوا معا ، لكنه يريد أن يلعب بنفس اللعبة « برويز » فى حين أن زيبا قد استولت عليه على أنها أرملة غنية تمد يد المساعدة له ولأسرته ، وهى تخدع ميرزا حسين خان وتلعب معه لعبة التائبة وتستنزف نفوده لتسلمها الى برويز ، وحسين لا يجد بدا من الارتشاء لكى يساعد زيبا على التوبة ، ويعود بغنائمه الى زيبا فتلقاها منه

وهي تذرف دموع التوبة ، وحسين خان يستمرىء المنصب ، انه يفكر في وسيلة يستند عليها ، فيشير عليه بعضهم أن ينضم الى حزب من الأحزاب العديدة ليحتمى به ، وها هو حائر أمام أحد الذين يسيطرون على الأحزاب قاطبة ويحركونها بأيديهم ، اننا نسمع من هذا الوسيط فلسفة الأحزاب في إيران « ولعله كان رأى حجازى أيضا الذى هلال فيما بعد لالغاء الأحزاب » : « ليس المقصود من الاعتدال أن يسير الناس الهوينى مثل الشيوخ الذين يستندون على عصيهم ، وليس المقصود من الديمقراطية أو الثورة أن يكونوا كالشعلة المحرقة ، ان المعتدلين والديموقراطيين اسمان لفرقتين مختلفتى المصالح ، وما أكثر المعتدلين الذين هم أكثر اندفاعا من الثوريين ، وما أكثر الديمقراطيين الذين يتحولون عند اللزوم الى معتدلين ، والمعتدلين الذين يسمون أنفسهم ديموقراطيين ، ان معظم المجاهدين والثوريين معتدلون ، ومئات من الأعيان قد صاروا ديموقراطيين لحفظ مصالحهم والوصول الى مناصب عالية » .

استكمل حسين خان اذن كل شروط اللعبة ، لقد بدأ بمعاونة غامض الدولة • ينهب ما شاء له النهب ، ويرتشى كلما سنحت الفرصة ، ويغير جلده كلما شاءت الظروف : « وتعلمت ضحكة مصطنعة من اختلاطى بالأعيان ، كنت أعطى بهذه الضحكة كلامهم الفارغ أو أحاديثى التى لا طعم لها ، وحينما لا أعرف ما أقول أضحك ، وأحيانا وأنا أنصت الى من هم أكبر منى أرد بهذه الضحكة اذا ضحكوا ولو كان الأمر لا يتعلق بى » وسرعان ما أضاف حسين خان الى ميزاته العديدة حبه للقمار وذلك خشية أن يقال عنه انه قروى يخاف على تقوده وربما واثاه الحظ وحصل على المبلغ الذى يؤمن حياته مع زيبا بعيدا عن تقلبات الزمن •

ان حسين خان لا يخاف الا من غامض الدولة وهو يستعين عليه

بميرزا باقر خان أحد رؤساء إحدى الجمعيات السرية في إيران ولا أدري ما هي الفئة التي لم يسيء اليها المؤلف في روايته هذه ، ولماذا اختار اسم ميرزا باقر بالذات وربما كان يريد أن يسيء الى ذكرى باقر خان العظيم أحد قواد تبريز في الحركة الدستورية ، لقد قدم صورة ميرزا باقر كأحد زعماء عصاة المافيا ، انه يأخذ من الخصوم ليحييهم من بعض ، ويهدد بالقتل لأدنى سبب واتفهه وها هو حسين خان يصف نفسه في تلك الفترة قائلا : « لم يكن دائي واحدا أو اثنين بل كان كثيرا : حب الرياسة وبلاء السياسة والتعلق بالمال والجاه وحب النفس والانخداع بمخالطة الأغنياء وقلق الحب والشهوة وجنون القمار ، كل هذه الأشياء تجمعت حولي ككلاب حول جيفة ، وكل منها أخذت من وجودي جزءا ، أخذت تلحق فيه على حدة . أما الخوف من الله وسائر الملكات الطيبة فقد أصبحت كالأقرباء الذين يرون طفلهم غريقا في اليم وهم على الشاطئ لا يملكون الا الصياح والعويل » .

وكل ما يتمناه حسين خان أن تسقط الوزارة حتى يستطيع أن يطلق امرأته دون أن يتعرض للأذى .

وبينما كان مشغولا في هذه الأمور كانت زيبا قد أعدت كل أمورها للزواج من برويز . ويعلم حسين خان عن طريق امرأة محجبة أخبرته بكل شيء بالتفصيل « وهذا الأمر الشبيه بشخصية الدلالة يتكرر كثيرا في الرواية » ويواجه زيبا فلا تنكر بل تتحداه قائلة : « أنا التي جعلتك رجلا ، لقد أعطيتك مفتاح الأمور ولو أعطيتني عشرة أضعاف ما أعطيت لما وفيت جماعلي » ان حسين خان يعد زيبا بالألا يقف في طريقها لكنه يخبر برويز بل يود أن يرسله في مهمة الى الجنوب ، الا أن التقرير يكتب وبدلا من أن يوقع غامض الدولة على ايفاد برويز ينتقم من حسين خان بأن يوفد موظفا آخر . ويصر برويز على اتمام الزواج ، فلا يجد حسين خان بدا من أن يدبر جلسة

أفيونية مع زيبا ويرسل في طلب برويز ليرى بعيني رأسه ما حاول أن يلمح له به أو يصرح فلا يصدق ♦

ينتهي حسين خان من برويز الذي أفاق من سذاجته فاقدًا لكل شيء ، مهددا بقتل زيبا وحسين وغامض الدولة « وكل هذا العالم القدر الذي يعيش فيه » ، وغامض الدولة يلمح لحسين خان بالفصل وزيبا مريضة في فراشها لا تطيق رؤية أحد وبرويز يقرر في خطبة عصساء أنه سوف يرحل الى بربز ويستهن البقالة « فهي أشرف ألف مرة من العمل الحكومي » ان حسين خان يسخر من امتهان برويز للبقالة لكن زيبا ترد عليه قائلة : « أليس البقال بأفضل من الخادم ؟ ويرد عليها : أليس من سوء الجزاء في الدنيا أن يرتبط بك شخص مثل برويز ؟ وترد : أجل من الظلم أن يكون زوجي برويز ، ان زوجي يجب أن يكون أنت ، لن أتركك أبدا ، ينبغي أن أنتقم منك ، ينبغي أن أدفعك الى سرقة مائة ألف تومان أنفقها في محلات لاله زار ، وبعد عمر من اللصوصية والخيانة تكون محتاجا لعشائك ، سوف أوصلك الى مناصب عالية ، وأمهد أمامك أسباب السرقة ، وأجر عليك من الوبال ما يجعلك تندم على أعمالك في اليوم ألف مرة » ولا يجيب حسين خان الا بقوله : « كوني معي وافعل ما شئت » ♦

ويستمر الأمر على هذا المنوال شهرين ، وتسقط الوزارة . ويسقط معها حسين ، وتفر زيبا مع أحد زعماء قبائل اللور الى همدان ، ويفر حسين الى قريته مزينان ليجد والده قد مات وأمه جنت وزينب هربت الى حيث لا يعلم أحد ، فلا يجد بدا من العودة الى طهران مع أمه وزينب التي قابلتهم في الطريق وهي تحترف التسول وفوق ذلك حامل ، انه يعود ليجد زيبا وزوجته تقيمان في نفس المنزل ، وحين يسأل : هل بقي شيء من النقود التي تركها ؟ ترد زيبا : لا يا عزيزي اتنا ننفق من أتعاب الليالي التي أقضيها بلا نوم ، لا تخجل ♦ وينتهي القسم الأول من الرواية ♦

نحن في القسم الثاني مع حسين فلا هو ميرزا ، ولم يعد حتى شيخا ، انه يقيم مع هذا العدد من النسوة ، لكنه لم يعد حسين الساذج الذي قدم الى طهران لأول مرة ، انه لا يفكر الا في نفسه وزيبا لا تفكر الا في استغلاله لسرقة أموال عشيقها الأخير سالار مهيب لرستاني ، لقد ضاقت بقسوته وبخله وادعت أنها زوجة حسين خان « قياس الدولة » ولا ندرى من أى جب أخرجت هذا اللقب ، وأنها سوف تعود الى طهران فتطلق لكى تتزوجه ويودعها باكيا خاصة بعد أن تعففت عن جوهرة صغيرة أراد أن يهديها لها •

ويذهب حسين الى الوزارة ، ويقدم نفسه الى خلفه على أنه حسين قياس الدولة الذي كان غائبا عن طهران لادارة أملاكه ، لكن حسين يطرد من الوزارة شر طردة ، ويعود فيلتقى بميرزا باقر ، ويخبره ميرزا باقر بأسر الطرق للحصول على اللقب وهو أن يدعى أنه مجاهد « أى عضو في إحدى الجمعيات السرية » ، وأن يدبر مبلغا من المال ليشتري به اللقب ، ولا يلبث أن ينفذ ما يريد ، ويحق لنا من الآن أن نسميه « حسين خان قياس الدولة » •

عرف حسين قياس الدولة أن الطريق أمام المجاهدين مفروش بالورود ، فلا مندوحة اذن من الانضمام الى إحدى هذه الجمعيات العديدة التي تملأ طهران والتي تسيطر على الحكومات مهما كان اتجاهها • ويقوده ميرزا باقر مغمض العينين الى حيث يجتمع المجاهدون ، ويصاب حسين خان بالرعب عندما يلمس سلاحا لأول مرة ، الا أن المعلومات التي ينقلها اليه ميرزا باقر تقوى من عزيمته ، ان منافسه في الوزارة يعد قائمة بالاتهامات التي سوف توجه اليه عندما يقدم الى المحاكمة •

ويزج بنا المؤلف في أوساط الجمعيات السرية ، ونفهم لأول مرة أن الرواية تدور زمن الانقلاب الدستوري ، حيث كان جنود القوزاق

يدقون شوارع طهران حماية للشاه القاجارى من الدستوريين • ولست أجد كاتباً ايرانياً معاصراً شوه صورة المجاهدين كما فعل حجازى ، وكان بينهم وبينه ثأر ، انهم جميعاً غلاظ شداد يتحدثون الفارسية بلهجة آدرية ، « ولعل هذا بالفعل كان الجزء الذى تستحقه تبريز ودورها العظيم فى الحركة الدستورية من المؤلف » وكلهم لا يتورعون عن أى شىء فى سبيل مطامعهم الشخصية ، وكلهم يفرضون الاتاوات على الأغنياء بدعوى أنهم من أعداء الدستور ، وكلهم يخدعون السذج فيسرقون أموالهم وأعراضهم « أهكذا كانت بالفعل صورة هؤلاء الذين تصدوا لقوات روسيا القيصرية فى شوارع طهران وضربوا أروع نماذج التضحية والفداء ؟ ! »

وينفطر هذا الجزء من يد المؤلف ، ويريد أن يصور لنا كيف أراد حسين خان بمعونة المجاهدين أن يسرق الملف الذى يعد فيه أبو القاسم خان اتهاماته ، فيخترع أحداثاً وهمية لا تحدث الا فى القصص الشعبى من مطاردات الى دخول المنازل تنكراً الى قصص حب وهمية بين حسين خان وزوجة أبى القاسم هذا ، الى لقاءات مفتعلة بين زيبا وزوجة أبى القاسم خان ، الى مغامرات للمجاهدين لا تقل عن مغامرات قطاع الطرق وعصابات المافيا « وسمك عيار » ، الى طمع المجاهدين وميرزا باقر فى زيبا واشتراكه فى المؤامرة التى تعد لسرقه أموال اللورى ويستطرد الكاتب وينسى أحياناً ما يتحدث عنه ويخطط بين الأسماء والأحداث حتى ليفكر القارئ بأن يترك الرواية وشأنها ويريح رأسه •

ولا يكفى الكاتب الطين الذى ألقاه على رؤوس المجاهدين فنراه يتناول الصحافة الدستورية بشيء من الهجوم ويروى لنا كيف أن جماعة ميرزا باقر فكرت فى اصدار صحيفة ولتلقى برجل دين « آخوند » اسسه قديم السادات الذى يصوره فى صورة شيطانية

قاصدا بالطبع أن يلقي ببعض طينه على الجناح الآخر القوى في الحركة الدستورية وهو الجناح الدينى ، فقديم السادات يخدع شابا متهورا ويسلب نقوده ويتزوج أمه ، وحسين خان يستغل الصحيفة في سلب الأموال من الناس لكي يحارب الخونة وأعداء الدستور ، ويعقد ميرزا خان اجتماعا في منزله يدعو اليه الوطنيين ويقف خطيبا ، كما يقف قديم السادات خطيبا ، وكذلك ميرزا باقر خطيبا وكلهم يتحدثون عن الاسلام الذى ضاع والوطن الذى هو في خطر والدور العظيم الذى سوف تلعبه المجلة المرتقبة في اصلاح كل هذه الأوضاع ، وتنهال التبرعات ♦

خلال كل هذه الأحداث لم ينس ميرزا باقر رغبته في زيبا :
وها هو ميرزا حسين يرى نفسه محاطا بالأعداء من كل جانب : ميرزا باقر وأبو القاسم خان الذى يعد ملف الاتهامات الذى لم يستطع ميرزا حسين الحصول عليه قط ، رجل البوليس نايب رمضان الذى كلفه باسترداد الملف فأصبح سيفا مسلطا على عنقه ، زوجته التى لم يستطع طلاقها ، أمه المجنونة ، زينب المدمرة تماما ، وفوق ذلك كله زيبا ♦
وبخطة نفذها أوقع بين باقر وميرزا أبى القاسم وكان هذا يوم عاشوراء ، ولا ينسى الكاتب أن يصف لنا الاحتفالات في عدة صفحات ♦

وتثنى زيبا على تدير ميرزا حسين لكنه مع ذلك خائف من انتقام ميرزا باقر ، انه يفكر فلا يجد وسيلة الا الانتحار ، لكن المجاهد الكبير يخشى من اطلاق الرصاص على نفسه ، فيتجه تفكيره الى الأفيون ، ويلتقى عند بائع الأفيون بالصحفى الثورى قديم السادات وهو يشتري حصته اليومية ♦ ويجتمعان ويقص قديم السادات عليه أسلوب استغلاله للشباب « مصطفى خان » الذى سوف تدار الجريدة من منزله وسوف يوقع كل ما يشتم منه الخطر ♦ أما الهدف فهو اقضاء

وزير الداخلية وعلى ميرزا حسين أن يدفع وفي جواهر سالار المرتبة وأموال والده مصطفى خان التي يخطط قديم السادات للزواج منها خير العوض •

وطراً تطور خطير آخر على ميرزا حسين ، انه لم يعد يحب زيبا ، انها أمامه كالقدر المحتوم ، انها وسيلته الى استعادة نفوذه ، ان حبه الحقيقي أصبح لزوجته مريم ، ان وفاءها يعذبه ، أما زينب فقد أتت بطفل الى الدنيا لا يعرف له أبا وهو يتمنى لها الموت ، الا أنه يضطر للعقد عليها ، ولكن كيف يرى وجه السعادة ؟ باقر وأبو القاسم اتفقا عليه ، والمحكمة ترسل له الاخطار تلو الاخطار وزيبا تخبر حامل الاخطار أنه في خراسان وسيعود بعد عشرين يوما ، اذن أمامه عشرون يوما فقط •

وصدر العدد الأول من الجريدة ، لكن الضحية كان مصطفى ، لقد جاء اليه استدعاء من وزارة الداخلية : اما أن يثبت ما كتب واما أن يسجن • ويتجمع المجاهدون حول مجلس أفيون ، وتدور مناقشات سياسية جديدة بالفعل بمجلس أفيون ، وتثور أم مصطفى ، ولكن ولدها يثور عليها فهي لا تفهم شيئا ولا بد لشعلة الحرية أن تخرج أول ما تخرج من منزله ، ويتفق المجاهدون على مهاجمة وزير الداخلية نفسه ، وفي ابنته المتفرجة ، وتنتشر المقالات انتشار النار في الهشيم ، وتؤلف الأغاني الشعبية حول ابنة وزير الداخلية التي يفيض بها الكيل فتنتحر • وباتت حار الفتاة يبدأ كل مجاهد في تنفيذ ما اعتزم عليه حسين خان يكون جمعية من المجاهدين لحمايته من أنصار باقر ، قديم السادات يحرك الأطماع في قلب أم مصطفى ويتزوجها ، انها وهى المتزوجة مكرهة كما تدعى تضع رقية لزوجها ليلة زفافه ، الا أن الرقية ترسل به الى سقر ، ذلك لأنها كانت مخلوطة بسم القرآن دون أن تدري •

وتفتح وفاة قديم السادات أمام ميرزا حسين الخائف أبواب
المجد ، اختفت كل العيوب الشيطانية لقديم السادات وحلت محلها
محاسن الانسان المجاهد الذى ضحى بروحه فى سبيل مبادئه
السياسية * انه يعلن أن قديم السادات ضحى بنفسه فى سبيل الأمة
والدستور وأنه مات مسموما على يد أعدائه ، ان الذى قتل قديم
السادات هو وزير الداخلية ، ويخطب ميرزا حسين والجثة فى الداخل
تكاد تتعفن ويخطب والجنائز تسير ، وقد أحس أن فى حلقة مائة لسان
كلما تعب لسان قام آخر ، وها هو مصطفى المسكين يجمع عددا من
الشباب ويقسم فى الجنائز على الانتقام لقديم السادات وترتفع
الهتافات « عاش قياس الدولة » ويعلن أمام الناس أنه سوف يقدم
استجابا لرئيس الوزراء ، ويقضى الليل مع جماعته فى التخطيط
للاتقلاب المنتظر *

ان حسين ميرزا قياس الدولة ليكاد يجن ، فالناس يقدمون له
الأموال جزافا لانفاقها فى سبيل الحرية ، وأعداؤه يختفون الواحد بعد
الآخر أمام هذا الاقبال العظيم ، ومعظم أعضاء جمعية باقر ميرزا
يرون فيه الوطنى العظيم وينضمون اليه ، وبابه يدق بليل ليدخل
مندوبو السفراء والعظماء يقدمون اليه الأموال ويخطبون وده وهو
يلتقى برئيس الوزراء « لم يصف المؤلف ذلك بالتفصيل بل أرجأه الى
الجزء التالى الذى لم يصدر » وبنواب الأمة * ويكون حسين خان
حزب الأمة ، ويعد اللقاءات فى الميادين العامة ، ويتحلق حوله العاطلون،
هل فكر حسين خان اذن أن يتخلص من زيبا ؟ أبدا ، كان يدرك أن
الناس سوف ينفضون من حوله فجأة كما حدث أن اجتمعوا حوله
فجأة ، ثم ان مجوهرات سالار مهيب لا تزال تداعب آماله *

صار ميرزا حسين خان نافذ الصبر من حديثه الينا « أو الى
المدعى العام » لقد صار بالفعل نافذ الأمر تتخاطفه الوزارات وكيلا

لها ، الا أنه كان يؤثر البعد عنها جميعا مكتفيا بنفوذه السرى على كل الوزارات ، لقد صار ميرزا حسين خان قياس الدولة مشغولا لا يعود الى المنزل الا في المساء ، أما زيبا فكانت لاتزال مشغولة بأمر مجوهراتها ، وفي جزء طويل لا داعى له يخبرنا كيف فشلت في الظفر بالجواهر ، وكيف أن رجال سالار حملوا مريم « زوجة حسين » معهم الى ديارهم ورحلوا . وهكذا تجن زيبا ، وتهتف باسم حبيبها ، ولا يجد حسين الذى كان يأمل في حياة طيبة مع زوجته بدا من احتراف السياسة .

وبالرغم من هذا النجاح لم يكن ميرزا حسين سعيدا ، لقد اختفى أعداؤه ، وحصل على ملف اتهاماته وأحرقه بيده ، الا أنه ليس سعيدا ، ليس سعيدا لأنه سقط في غل السياسة وأسرها ، انه يقول ولعله يعبر عن حجازى لا ميرزا حسين : « ذلك الذى جربته بنفسى أن السياسة تمنع عن الانسان التمتع بالعلم والفن والاحساس بالجمال ، انها تحد من أفق التفكير وسعة النظر ، وتذرو مع الرياح كل أمل في الصداقة والطيبة والعدل وهى أصول الحياة ، وتملا الدنيا بأسرها بالمكر والخداع ، وطاهر القلب حين يعمل بالسياسة يفسد قلبه ويضطرب ، ولكن ماذا كان ينبغى أن أفعل ، لقد كان قدرى أن أرتبط بالسياسة عمرى ، ولا أرى وجه السعادة » .



هذه هى رواية ميرزا حسين خان الذى اختار لها مؤلفها عنوان « زيبا » جريا على عادته في اختيار أسماء النساء عناوين لأعماله واذا سألنا أنفسنا : لخدمة أى من الأهداف ولماذا صور محمد حجازى وثبة الشعب الايرانى هذا التصوير المزرى ؟ لا ندرى ، ان أغلب الأمم يبحث كتابها عن النقاط القليلة الضوء في تاريخهم ويصورونها على آتم وجه ، اللهم الا اذا بليت بمن تكون له مصلحة

في جر فترة ما الى زوايا النسيان حينذاك تكون الأعمال التي تشبه زيبا حجازي ذات وقع لهم ، هناك حكام يجوبون دائما ايها شعوبهم أن التاريخ يبدأ بهم وأن كل ما قبلهم عبث وخواء ، ان التاريخ الحقيقي لفترة الدستور في ايران حافل بالمثل العليا للتضحية والفداء ، وهو عصر نهضة حقيقية في الأدب والشعر والصحافة والخطابة ، وقدم نماذج من الرجال أروع من أية صورة تصورها رواية حتى وان كان هدفها المدح ، ولم يكن الهدف الذي قصد اليه حجازي من تصوير فترة الحركة الدستورية في ايران هذا التصوير المزرى •

اننا مهما جاهدنا لنجد في الرواية شخصية واحدة تستحق الاحترام لا نجد ، وكأن الكاتب عمد الى تقديم كل ما هو مشوه وغلطي وناب ، وكل شخصيات الرواية باستثناء حسين خان وزيبا ولدت كسا هي لم تشهد لها أى نوع من التطور خلال هذه السنوات الطويلة التي تعبر عنها الرواية ، والشخصيات التي يحاول أن يقدمها مثلا للطهر والاخلاص يقدمها في الوقت نفسه مثلا للسذاجة والحمق « برويز ومصطفى » •

وبعض الحوادث لا تقل حالة عن الشخصيات ، منها تلك المطاردات التي تدور بالجملة في شوارع طهران والشخصيات التي تظهر لتؤدي مشهدا واحدا ثم تختفي كشخصيات ألف ليلة وليلة ، وما يدور وراء الجدران والبراقع أسوأ مما يمكن أن يصدق عقل ، وكثير من الأحداث في الرواية لم يخدم خط سيرها ، بل أساء الى وحدتها اساءة بالغة وجعل الرواية في هذا الحجم مع أن المفروض أنها تكتب من الذاكرة ومن سجين للمدعى العام ، فكيف للراوى بهذه الذاكرة الحديدية التي لا تزال تتذكر الحوار الطويل والخطب العصماء ودروس الفلسفة والحضارة المنقولة قلا من الكتب والمراجع ؟

ولا يقل عن ذلك اساءة الى بناء الرواية تلك اللغة الفخمة الجزلة التي كتبت فيها ، فلغة الذى تعلم فى المدارس الدينية هى لغة السوقى والوزير والمرأة التى لم تخرج من منزلها والطهرانى والريفى والخراسانى والذى ينتسب الى عشائر اللور ، وهلم جرا •

ومع ذلك تبقى القيمة الحقيقية للرواية فى أنها قدمت جانبا كبيرا من الحياة الادارية فى ايران كما قدمت صورة عامة للحالة السياسية فى ايران فى الربع الأول من القرن الحالى على لسان انسان عاش فى خضسها وخبرها عن قرب وان خاتته الأمانة فى كثير من المواضع وهذه رؤيته الفنية على كل حال ، وتبقى بعض الصفحات القليلة الخالدة التى يصف فيها الحياة داخل الادارات الحكومية ، والتى يصف فيها كيف تتجمع مظاهرة وكيف تنفض •

ولقد حاول المؤلف فى بناء الرواية أن يستفيد من مدارس الرواية الحديثة ولكنه لم يكن موفقا فى صناعة التركيز النفسى ، وحاول أن يثير بعض الرموز عن طريق صناعة الأحلام ، الا أنها كانت مصطنعة واضحة الاصطناع وهو فى روايته الابن المخلص للمدرسة الرومانسية الفرنسية ، كل أبطاله مهما كانت طموحاتهم يتعذبون من الحب ، وكلهم يسقطون صرعى ومرضى عند أول مشكلة تصادفهم ، وكل شيوخه فاسقون ، وكل نساءه مستعدات للخيانة بشرط ألا يكتشف أمرهن وهذا التعميم فى سمات الشخصية يصدق على كل أبطاله •

أكان من الممكن بالفعل أن يقدم المؤلف جزءا ثانيا ؟ أشك فى ذلك ، بهذه الروح التى شرح بها العهد الدستورى على عظمتة لا يمكن أن يشرح العهد التالى والا انطبق عليه المثل الفارسى « أكل الملح وكسر المملحة » ، ولم يكن كسر المملحة فى ذلك العهد بالذى تؤمن عواقبه •

٣ - دار المجانين

سيد محمد علي جمالزاده

ولد سيد محمد علي جمالزاده في أواخر القرن الماضي ؛ وكان والده سيد جمال الدين الأصفهاني واحدا من أبطال الحركة الدستورية ، ومات مسموما في السجن وبدأ جمالزاده كفاحه السياسي منذ مسنهل شبابه حيث اشترك مع القوميين الإيرانيين في برلين أثناء الحرب الأولى وبعدها ، كما اشترك في إصدار الجريدة القومية « كاوه » في برلين ، وارتبط بألمانيا معظم حياته ، ولم يعد إلى إيران إلا لماما وزائرا . وكان آخر منصب شغله هو رئيس منظمة العمل الدولية وأستاذ الأدب الفارسي في جامعة جنيف ، ولا يزال يعيش في جنيف بمد المجلات الأدبية الإيرانية بمقالاته الأدبية ودراساته العديدة .

فجر محمد علي جمالزاده ثورة في كتابة القصة بإصداره مجموعة « كان يا ما كان » سنة ١٩٢١ فاستعمل الصبغة الأوربية واللغة العامية الفارسية ، واضطرته الضجة التي أحدثتها إلى الصمت عشرين عاما . ولما عاد إلى الكتابة كان مزيجا من الروائي القصاص والدارس الأدبي ، وكان يود لو يمد جسرا بين ماضي إيران الأدبي وحاضرها .

ومنذ عاود الكتابة أصدر عددا من الروايات هي : دار

المجانين ١٩٤٢ ، وقلتسن دبوان ١٩٤٦ وصحراء القيامة ١٩٤٧ وكتاب مجرى الماء ١٩٤٨ ، وكل شيء عن منال ١٩٥٦ ، وعددا من المجموعات القصصية القصيرة : سيرة العم حسين ١٩٤٢ والمر والحلو ١٩٥٦ ، والقديم والجديد ١٩٥٩ ولا اله الا الله ١٩٦٠ .

وله دراسات عديدة يضيق المجال عن ذكرها ، وفي رواياته واعماله القصصية كما سنرى يخلط بين الروائي والدارس ، وبين النثر والتعبر ، وبالرغم من انه عاش طيلة حياته بعيدا عن ايران فان لفه سلسلة سهلة حافلة بالمصطلحات العامية . وهو ايضا واضع فاموس رائد للمصطلحات النعبيه الايرانية .

كيف يستطيع الانسان الحياة في مجتمع هذا شأنه ؟ من فساد ادارى الى ضغط سياسى الى ارهاب فكرى ؟ يجب المؤلف على هذا السؤال في هذه الرواية . حقيقة أن المؤلف لم يذكر كلمة واحدة من هذه الكلمات ، لكنه مع ذلك أشار إليها في ثنايا روايته مما لا يترك مجالا للشك ، لقد جعل العالم دارا كبيرة للمجانين تضم بين جدرانها مجانين من كل صنف : مجانين الاضطهاد ومجانين الحساسية المفرطة ، ومجانين الخيال العقيم الذى يصطدم بالواقع المر ومجانين الثقافة . ولولا أن للرواية بطلا جامعا يقص الرواية على لسانه لا تفرط عقدها ، ولقلنا انها مجموعة من الصور المتحركة التى لا يجمعها الا هذا البطل الذى يربط بين مصائر أبطالها . ومع ذلك فان هذا البطل الذى يمسك بكل خيوط الرواية ، والذى يتحدث بلسان المؤلف هو الذى أبعد الرواية عن الجو التقليدى ، فهو يتحدث فيستفيض في الحديث ، ويحلل فيسطح في التحليل . وقد جعل جمالزاده معظم أبطاله مثقفين فصار في حل من أن يذكر على ألسنتهم مدارس التحليل النفسى المختلفة والفلسفات والأشعار الصوفية الفارسية المتنوعة ، وأصاب أبطاله غير المثقفين بالخرس ، فلم ينطقوا بحرف واحد طوال الرواية ، وانما ظلوا مجال تحليل وتعليق من جانب الأبطال المثقفين طوال الرواية .

وبالرغم من ذلك فإن الرواية جديرة بالتقديم وذلك لروحها المرحية الفكاهة التي لا تخفى على القارئ بالرغم من جوها القاتم الشديد السواد الذي يشد الدمعة من العيون • فقد برع جمالزاده في أن يقدم سخرية سوداء يحس الإنسان من خلال ضحكاته بما يشبه وخز الابر ، وهي جديرة بالتقديم لأنها تقدم جمالزاده الذي عاش طوال حياته في شد وجذب بين الروائي والدارس فلا يحس الإنسان في روايته بروح الروائي الصرف أو الدارس الصرف ، ويرى بعضهم أن جمالزاده إنما فعل ذلك لأنه كان يريد أن يقدم الأدب الفارسي القديم في صورة عصريّة ناسين أن جمالزاده عاش معظم حياته في بيئة أدب ألماني ، وأن توماس مان وهيرمان هسه كانا يقيمان كل رواياتهما على دراسات أو ما يشبه الدراسات ، ولكتابات جمالزاده هذه الحسنة وهي أنه يعيد إلى الأذهان ذكرى أدباء الفرس العظام حافظ والمولوى وسعدى •

وبالرغم من أن جمالزاده عاش كل حياته خارج إيران إلا أنه في كتاباته يمثل الشخصية الإيرانية خير تمثيل فهو مرح فكاهي ساخر تساعده لغة شديدة الغنى بالمصطلحات الساخرة والتعابير الأدبية الرائعة فاستطاع من خلال استعمالها أن يوفق بين القديم والجديد فبينما نلتقى مع بيت لسعدى أو حافظ نعود فنلتقى بتعبير مأخوذ من لغة العوام نقف أمامه طويلا ، ثم نضطر في النهاية إلى استعمال قاموسه الذي خصصه للمصطلحات العامة •

هناك ميزة أخرى لجمالزاده وهي أن إيران التي يصفها ليست إيران كما هي موجودة حاليا بل هي إيران بواكير القرن العشرين عندما تركها ، ولذلك فهو في رأي : كاتب يعيش وراء عصره ، كما أن جمالزاده يتميز بميزة أخرى قليلا ما نصادفها في غيره من الأدباء وهي أنه من ذلك الصنف من الكتاب الذي يستطيع أن يرفع الحائط

الوهمى بينه وبين القارئ ؛ فاذا به يحس أنه يجلس الى أحد يقص عليه في سهولة ويسر ، في مقهى أو في منتدى أو عن طريق خطابات متبادلة ♦

هناك مقدمة للرواية وهذه المقدمة من خصائص الرواية الفارسية المعاصرة ، ربما لأن الكاتب يريد أن يوحى بجو من الواقعية على أساس أن الكتاب الفرس فهموا الواقعية على أنها الشيء الذى وقع أو حدث بالفعل ♦ فاذا الكاتب في زيارة لطهران يجلس في سوق صناع الصفيح مع أحد أصدقاء والده ، وتأتى امرأة عجوز تعرض بعض الكتب للبيع (ومعظم مكتبات طهران القديمة تقع في هذا السوق) وحين يشتري منها الكاتب بعض الكتب ولا تجد نقودا صغيرة تعطيه بقية حسابه تعطيه بعض الأوراق ، وتمرّ السنون ويفتح الكاتب هذه الأوراق فاذا بها مكتوبة بخط اليد فيقرأها ولا يريد أن يحرم الآخرين من هذا الكنز وتبدأ الرواية ♦

تبدأ في الجزء الأول من دار المجانين الذى يقصه البطل على لسانه ، ويريد المؤلف في البداية أن يزج بنا في تيار الحياة الواسع بعيدا عن دار المجانين لنجد أن لكل انسان في هذه الحياة اهتمامات تصل الى درجة الجنون تنبع من تلك الاهتمامات الصغيرة التى تنشأ في قلب الانسان ، ثم تطفئ على ما سواها وتسلمه بالفعل الى دار المجانين بينما ينعم سواه باهتماماته التى يراها البعض شيئا طبيعيا للعانة ♦

في هذا القسم نصادف نماذج عديدة من شخصيات الحياة الايرانية في ذلك العصر ♦

والراوى واسمه محمود يقص حياته منذ الطفولة حيث ماتت أمه

عند وضعه ، ونشأ في كنف والد يجمع كل المتناقضات فهو على حد تعبير ولده « متدين عاص وفاسق عابد » انه يكي في الصلاة خشوعا. ثم يجلس الى شرابه حتى الفجر ، أنه مثال الرجل الشرقي الذي يستطيع ببساطة وتنسيق أن يحيا حياتين ، في النهاية يفلس الوالد ويتنحر ويترك محمودا وحيدا في الحياة الا من عم كان على طرف النقيض •

ان العم صورة من الصور الأدبية التي صادفتنا طويلا منذ أصبح هناك أدب وكتابة ، انه نموذج من نماذج البخل عند الجاحظ ، لم يكن « الا آلة دقيقة لجمع المال » وهو في نفس الوقت مرء لا يترك فرصة تمر الا ذم فيها البخل والبخلاء • ويمرض العم ويذهب البطل طالب الطب لعيادته ، فيجده لا يريد أن يستدعى طبيا • ويثور القتى ، وتطول المناقشة بينه وبين عمه ، مناقشة جاحظية بين فضائل البخل وفضائل السخاء ، ان الشاب في واد والعم في واد آخر ، ذاك يحتج بالشعر وهذا يحتج بالحياة ، ان كل ما كتبه الكتاب والشعراء في مدح الكرم محض هراء ، ان سينكا كتب كتابا في مدح الفقر وهو يجلس الى منضدة من ذهب ، المهم أن المناقشة تنتهي بأن ترجو بلقيس ابنة الرجل ابن عمها أن ينهي المناقشة رحمة بالرجل المريض •

تأتي الزيارة بنتيجتين متناقضتين : الأولى احتقاره لعمه واحتقار عمه له في نفس الوقت ، والثانية وقوعه في حب بنت عمه من النظرة الأولى ، انه لم يسمع الا صوتها ، ولم ير منها الا عينيها الا أن ذلك كان فيه الكفاية للشباب المتعطش للحب ، ويظل ساهرا طوال الليل ينمق أبياتا من الشعر ، ويصحو من نومه المتقطع فيذهب الى ميرزا عبد الحميد وهو القائم بأعمال عمه ، وزوجته هي التي أرضعته وهو طفل بعد وفاة أمه وولده « رحيم » صديقه ومن نفس سنه وزميله في الدراسة •

وبلقائنا برحيم نلتقى بأول المجانين الحقيقيين في الرواية . ان رحيم لا هم له في الدنيا الا شيء واحد يشغل عليه فكره ليل نهار وهو الأرقام ، ان غرامه بالعدد يقطع السبل أمام أى غرام آخر ، انه خليفة فضل الله الحروفى الذى عاش في القرن الثامن الذى كان يرى في الأعداد أسراراً ، وهو خليفة محمود النقطوى في القرن التاسع الذى كتب رسائل عديدة في أسرار الأرقام ، وهو لا يفتأ يحدث محموداً عن أسرار الأعداد بتخريجات تكاد تخرجه عن طوره . ان محموداً يرى أنه في سبيله الى الجنون ان لم يكن قد جن بالفعل ، الا أن رحيم لا يرى شيئاً من ذلك ، ان غرامه بالعدد « واحد » غرام خالد يستطيع في سبيله أن يضحي بكل غرام . كان محمود يهرب من رحيم الا أنه كان مضطراً لزيارة أسرته لأنه كان يجد عندها السلوى ، ولا يكاد يخبر صديقه بسرّه حتى يلجأ صاحبنا الى الأعداد ، ان اسم محمود بالأعداد مشؤوم واسم بلقيس هو الآخر مشؤوم ، اذن فلن يتم الأمر ، ولا يجد محمود بدا من أن يلجأ الى أم صديقه ليهرب من رحيم وأعداده التى أنهت الموضوع دون أن يخطو فيه قدماً .

يقدم لنا شخصية أم هذا الصديق « سمينة مفرطة في السمينة الى ما شاء الله أبرز صفاتها الكلام الكثير والسمع القليل ، واذا أضفت الى ذلك عبادة الأوهام والخرافات فسوف تصل الى سحنة شاه باجى بلا زيارة أو نقصان » وتسوق السيدة خطبة عصماء في فضائل المحبوبة لا تزيد محموداً الا ولعا تردفها بخطبة أخرى في فضائله هو لتصل في النهاية انه ان وجد اثنان جديران ببعضهما بعضاً في الدنيا فهما محمود وبلقيس ولكن ما أن يعود الى المنزل حتى يعلم الخبر السيئ : لقد شفى عمه ولم يعد هناك مبرر للزيارة وبعد أن ييل من مرضه يعلم أنه سقط في غيبوبة ثلاثة أيام وأن محبوبة القلب هى التى كانت تمرضه . لقد عرف محمود أن ابنة عمه تحبه ولكن ماذا عن العم الذى يود زواجها لآخر ؟

تصف لنا شاه باجى هذا الخطيب بكل تقيصه ، ان « نور
جشم نعيم التجار » وهذا اسمه لا ميزة فيه الا أنه وارث والده .
وهو لا أهل له ولا حسب ولا نسب ، وهو فى حاجة الى برذعة وليس
الى امرأة . وهو جدير ببغايا « چاله سيلابى » حى الدعارة فى طهران
وليس ببليقيس ، وهو جلف لو لعقت من ققاء سبعة كلاب لشبعت ،
وقد خاف عليه والده من البغايا فأرسله الى باريس للدراسة ، ولما
انقطعت أخباره ذهب لزيارته ، وبينما هما يسيران معا فى شوارع
باريس لفت نظر الرجل مبنى كبير فسأل ابنه عنه فعجز عن الجواب
فلما سأل الشرطى المكلف بالحراسة علم أنه مبنى مدرسة التجارة
الذى من المفروض أن ولده يتعلم فيه من سنوات ، فجره من ققاء
وعاد به الى طهران . ولا يجد محمود بدا من ارسال خطاب الى ابنة
عمه ، ولكنه كان القشة التى قصمت ظهر البعير فقد سقط فى يد عمه
ليحول بينه وبين محبوبته الى الأبد .

ويخرج محمود فيقيم عند أحد أصدقائه عشرة أيام ثم يذهب الى
رحيم فيجد جنون الأرقام قد تمكن منه ، انه يصرخ طالبا النجدة
لأن رقم الاثنين يهاجمه ويغضى جدران حجرته بأبيات من الشعر
الفارسي تمدح الواحد وتذم الاثنين ، ليس الواحد الذى يمدحه
العارفون بل الواحد الرقم الذى يرى أنه منشأ العالم وأن كل ما فى
العالم من شرور نابع من رقم الاثنين ، ولا تلبث علامات الجنون الى
أن تظهر على رحيم بوضوح فتجحط عيناه ويتقوس فمه ويرتعد ويسرع
الى والدته ، لكنها لا تريد أن تحضر الطبيب الى ولدها .

ان الأطباء فى رأيها رسل عزرائيل ، ان برحيم مسا من الجن ،
وليلة الجمعة ان شاء الله يأتى العارفون بالأموه فيخرجون الجنى
من جسد ولدها ، ولن يدخل الطبيب البيت الا على جثتها ، لقد أطفأ
ولدها سيجارته فى صدر أحد أطفال الجن . ويسرع محمود الى
والد صديقه فى منزل عمه فيشكو الرجل من أن العم لا يترك له لحظة

يتنفس ، وحين يدخل محمود حجرته يجد بلقيس قد كتبت الحرفين الأولين من اسميهما على الجدران فيعثره الحزن ويسرع الى صديقه الذى استضافه ، أجل ان الحل عنده ، فهو طبيب فى الأمراض العصبية وليحمله لعيادة رحيم •

حين يذهب الى صديقه يجده يعانى جنونا من نوع آخر ، انه يشعل موقد الكيروسين فى حجرته رغم شدة حرارة الجو ، فهذا الصوت يذكره بصوت الموج الذى يعشقه تماما وهو لا يملك من المال ما يمكنه من الحياة الى جوار الشاطئ ، والطبيب يعترف ببساطة أن ذلك نوع من الجنون : « وفى هذا العالم يوجد عند كل انسان نوع من الجنون ، فليس فى مقدور كل انسان أن يحيا كما يهوى ، وليس فى مقدور أى انسان أو معظم الناس على الأقل أن يسيطر على رغبته المجنونة فى أى شىء ، ان العثر بشىء ما يبدأ فى الانسان دون أن يحس ويأتى الوقت الذى يرى نفسه فيه منقادا اليه ، لا يرى حوله أحدا ولا ما يسميه الناس بالتقاليد العقلية ، أن يفعل ما يراه موافقا لميله دون أن يهتم بأن يعتبره الناس مجنونا ، انه يبدأ باللامبالاة • والجنون مثل العقل هبة من هبات الله ، وفى نفس الوقت الذى يعبر فيه الانسان دائرة العقل ويضع قدمه فى وادى الجنون ، يفقد الارادة ، ويتحرر من قيود الخوف والتدبير والتردد والاستدلال والأوهام التى تكبل أيدينا وأقدامنا - نحن العقلاء وتصينا بالعجز الكلى » •

يذهب الطبيب وهذا شأنه لعيادة رحيم ، ويحدثه عن الأرقام ويتسلل الى دائرة اهتمامه ، ان رحيم يصاب بنوبة الجنون فى حضور الطبيب ، ويشخصه الطبيب بأنه جنون الاضطهاد ، ويقيده رحيم بالأغلال ويساق الى دار المجانين •

هكذا ينتهى الجزء الأول من الرواية بهذه السخرية المرة ، ان

الطبيب الذى ساق رحيم الى الدار لا يقل عنه جنونا * تسرع أم رحيم الى الدار ضاربة كل من تلقاه ، ويتسم الجميع ، ليس من المستبعد اذن أن يكون مجنونا وله مثل هذه الأم ، وتمنع من زيارته ولا يكون هناك الا محمود يأخذ على عاتقه هذه المهمة ، لكى يقترب من المجانين ويقترب من مصيره فى الوقت نفسه *

اتهى اذن هذا الجزء من الرواية ، وقد علمنا أن من هم خارج أسوار دار المجانين ليسوا بأقل جنونا ممن هم فى داخلها * فهم عبدة المال وعبدة الشهوة وعبدة الأوهام والخرافات ، والذين تمزقهم متناقضات الحياة فلا يجدون بدا من أن تشرذ عقولهم هنا وهناك فيفكرون فى ألف موضوع ويحبون دون سبب ، ويغضون أيضا دون سبب ، وفى النهاية تفاجأ بأن واحدا فقط هو الذى سيق الى الدار لأنه مال الى شئ لم يتعارف عليه الناس ولأنه لم يحتفظ بهذا الميل لنفسه ، وتبلغ السخرية قمتهما حين يكون الطبيب هو الآخر مجنونا ، ومن أمثال هذا الطبيب سنلتقى فيما بعد بالكثير ، الا أنهم يفلحون فى اقامة هذه الموازنة المطلوبة بين داخلهم وخارجهم *

صدرت هذه الرواية لأول مرة فى ايران سنة ١٩٤٢ ، وهى أول رواية لجمازاده بعد فترة الصمت ولكنى أشك فى أنها كتبت قبل نشرها بفترة طويلة ، ولم تكن الظروف تسمح بنشرها الا فى هذا التاريخ ، وقبلها كتب هدايت البومة العمياء فتحدث عن ايران كمقبرة للأفكار ، ولم تنشر الرواية الا سنة ١٩٤٢ مع أن الثابت أنه كتبها فى الثلاثينات وطبعها فى عدد صغير جدا من النسخ فى بومباى ، أكون جمازاده قد هدف الى الحديث عن ايران كدار كبيرة للمجانين فى تلك السنوات التى كان من المستحيل للبومة العمياء أو دار المجانين أن يطبعا فى ايران ؟

عن طريق عيادة رحيم يتعرف الراوى الى عدد آخر من المجانين :
 الأول شاب من أهل سبزوار اسمه روح الله . كان روح الله يشتغل
 حلاجاً ، ومنذ عدة شهور جاء الى طهران ماشياً وقوسه فى يده ،
 واستمر يتسكع فى شوارع العاصمة ، وكلما صادف سحابة فى السماء
 ظلها قطعة قطن وطفق يحلجها . ولما استمر على هذه الحال دون
 طعام أودعوه دار المجانين ، لم يكن لروح الله فى مقره الأخير من شغل
 الا حلج السحب ، ثم يقضى فى ركن يصلح قوسه ، ويترنم بأغنية
 شعبية . لم يسفر المؤلف عن السبب فى سر جنون روح الله ، الا أنه
 لا يخفى على أذهاننا ، أن روح الله عامل مسكين يعتمد فى كسب رزقه
 على عمل يده ، ولعل الصناعة صادفت سبزوار فكسد عمله ، فقدم
 الى طهران ، الا أن الأمر لم يكن أفضل . وفى النهاية أدرك أنه
 يعيش فى عصر غير عصره ففقد عقله .

أما المجنون الثانى الذى يتعرف اليه الراوى فكان من كبار
 الملوك ، اجتاح سيل عرم أملاكه فقضى عليها وقضى على أسرته ، ونجا
 هو بمعجزة ففقد عقله . انه يجلس طوال اليوم القرفصاء يمسك
 بدفاتره ويحاسب عماله العديدين القائمين على ضياعه ، وكل من يمر
 به يظنه من هؤلاء العمال فيخاطبه من طرف أنفه ، ويسبه مذكرا اياه
 بماضيه أيام كان جائعاً عارياً وكيف انتشله من الفقر والجوع وأعطاه
 عملاً وقوتا وداراً وعقاراً فى احدى قرى ، ومن ثم أطلق عليه القائمون
 بأمر الدار لقب « أرباب » وهو اللقب الذى يخاطب به العمال
 والفلاحون فى ايران أصحاب العمل أو كبار الملوك .

والشخصية الثالثة التى نلتقى بها مع محمود فى المستشفى كانت
 ذات أثر كبير عليه ، انها ليست من أهم شخصيات الرواية فحسب ، بل
 من أهم شخصيات الأدب الفارسى الحقيقية ، وهذه التورية الصارخة
 لا تخفى على انسان قرأ لهذا الأديب ، والراوى ولنقل ان المؤلف يرمز

اليه باسم هو أقرب الى التصريح ، ومن يكون هدايتعليخان الا الأديب العظيم الراحل صادق هدايت « ١٩٠٣ - ١٩٥١ » . يلتقى الراوى به فى دار المجانين ، شابا فى الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره من أسرة كبيرة ، لكنه أصيب بالجنون من كثرة قراءاته والأبحاث التى قام بها ، وهو لا يغادر فراشه ويسمى فى دار المجانين « مسيو » ويصف الراوى الشخصية بصفات تنطبق جسديا على هدايت العظيم ، أما أقواله ومعتقداته فهى فقرات من مؤلفات هدايت ينقلها جماله كسا هى ويضعها بين الأقواس ، بل ويطلق عليه اسم أشهر أعماله « بوف كور أى البومة العمياء » (انظر الترجمة العربية لها لكاتب هذه السطورة هيئة الكتاب ١٩٧٦) .

لقد تعلم هدايتعليخان فى أوربا ، لكنه عشق هناك نموذجا مما تعرض له الثياب وأحضره معه من أوربا « من أحداث قصة الأراجوز لهدايت » (انظر قصص من الأدب الفارسى المعاصر تأليف صادق هدايت ترجمة كاتب هذه السطور هيئة الكتاب ١٩٧٥) . وبعد أن فقد أهله الأمل فيه أودعوه دار المجانين ، ولكنه ذات يوم رأى مجنونا يخرج أمعاءه ويعبث بها « أحداث قصة ثلاث قطرات من الدم » ، فخرج من المستشفى ، ولكى يعالجه أهله خطبوا له فتاة من أسرة محترمة ، ويزف إليها ثم يطلقها ، وبعدها يجد فتاة تشبهها فيحملها الى منزله ويقتلها ، ويدفنها فى جبانة الشاه عبد العظيم ويجد زهرية رازية أثناء الحفر عليها صورة الفتاة « أحداث رواية البومة العمياء » فتزداد حالته سوءا ويعود الى دار المجانين .

كل هذه الأحداث التى سمعها الراوى عن مسيو تثير رغبته فى التعرف اليه ، فيتقرب اليه . وبعد فترة تتوطد العلاقة بينهما ، ان مسيو حسن الحديث ، لكنه يخرج عن طوره ان ذكر انسان كلمة واحدة عن مدرسة الأدب القديم ، ان كل أقوال مسيو فى الرواية

منقولة من أعمال هدايت * ومسيو مصاب بجنون من نوع خاص هو جنون « خدمة المجتمع » ، انه يكتب ولكنه لا يريد لأحد أن يقرأ ما يكتب ، انه يكتب لخيااله « قصة البومة العمياء » * وهو يسلم محمود بعض أعماله ليقرأها في المنزل ، فهو نفسه لا صبر له على قراءتها ويأخذها محمود ويقرأها « كلها مقتطفات من أعمال هدايت » *

استمر محمود في قراءة هذه الأوراق طيلة أسبوعين نسي الدنيا خلالها ، وحين انتهى كتب خطابا الى بلقيس سلمه الى شاه باجي ثم أسرع الى المستشفى ، لم يستطع أن يخرج رحيم عن هذيانه ، فأسرع الى مسيو ، وحاول أن يناقشه حول لغته واقتنارها الى قواعد النحو ، الا أن مسيو يسخر من كل قاعدة ، ان القرآن نزل قبل أن تنزل قواعد النحو وعظماء الأدب الفارسي لم يكن لهم شأن بكل هذه التفرعات التي تسمى « النحو » *

ويعود محمود الى المنزل فيجد صديقه الطبيب في سبيله الى الرحيل ، انه لم يعد يطبق الابتعاد عن البحر ، انه سوف يغيب ثلاثة شهور دفع ايجارها مقدما * ويبقى محمود وحيدا مع مكتبة الطبيب وكلها في الأمراض العصبية ، فيبدأ القراءة ، ويوما بعد يوم تشده حياة المجانين ، انه معجب بتجردهم وغيوبتهم عن كل ما في العالم ، وماذا في العالم ؟ حبه اليأس بلقيس أم عناد أيها الذي يريد أن يبيعها بيع السائمة ؟ ، ان محمودا مأخوذ بجماع نفسه الى عالم الجنون ، ان الدنيا لم تعد في نظره الا دارا كبيرة للمجانين وأقل من فيها هم الذين داخل الأسوار بالفعل *

ويذهب محمود لزيارة مسيو ، فلم يعد يستريح في الحديث الى أحد الا اليه * ويحدثه عن الكتاب ، فاذا بمسيو يعلم كل شيء عن الكتاب وعن مؤلفه ، انه يعجب أشد العجب كيف أن محمودا لا يزال

يشك في أن العقل عقال بالفعل ؟ وأن السعادة كل السعادة في الجنون ، ان مسيو يحاول أن يقنع محمودا بأن السعادة في الجنون والعقل هباء ، أليست السعادة هي أن يتعلق قلب المرء بوهم يسرع في أثره ؟

نقد سبق المجانين العقلاء في هذا المجال بمراحل ، هذا عن الدنيا فما بالك بسعادة الآخرة أليس أكثر أهل الجنة البله ؟ وألم يعد المسيح البلهاء بملكوت السماء ، وأليس المجانين هم الذبن يمنعون الناس لأنه لا خير هناك الا وهو ممزوج بشر ؟ أليس الايمان هو أن يسلم الانسان نفسه لله وهو مغمض العينين ؟ وهل كاذ، العباقرة والمصلحون من المجانين ؟ لا جدال ، أليست العبقرية على كل حال ضربا من الجنون ؟ ألم يقل ديدرو « ما أقرب الجنون الى العبقرية » ؟ دعنا من الغرب ، ألم يقل الصوفي سهل التستري « الدنيا دار المرضى والناس فيها مجانين » ؟ وفي النهاية يغري مسيو محمودا بأنه من الخير له أن يجن ، ولم يكن يعلم أن الفكرة تداعب محمودا منذ زمن •

كانت هذه المناقشات تدفع محمودا الى التفكير في أحواله ليل نهار ، حتى شاه باجى التى أفقدتها المصائب شحمها ولحمها كانت تنظر الى عينيه فتلمح فيهما بريقا غريبا ، انها تمنيه الأمانى لكنه بات يرى وجوده وعدمه في الدنيا سواء ، ويفكر في أحواله فلا يجد فرجة واحدة من أمل ، ويستعيد مصائب حياته ، انه بات يخاف من كل شيء ، لم يعد يصلح لعمل لأنه يخاف القانون « أ تكون هذه البداية الحقيقية للجنون ، انه لا يأمل في شيء فماذا لو تظاهر بالجنون ؟ لن يكتشف أحد الأمر ، لقد كان أبوه مصابا بنوع من الصرع ، وهناك أنواع من الجنون قرأ عنها مناسبة له تماما ، ليست من النوع الخطر الذى قد يؤدى الى عواقب لا تحمد عقباه •

بدأ محمود في التظاهر بالجنون ، لقد أصبح الآن محمود

الغزنوى فاتح الهند ، وعلم الخادم بهرام أن يطيعه ويجهز أسباب الرحلة الى الهند والا أمر به فألقى تحت أقدام الفيلة ، وهو يقوم ببعض الألاعيب ، انه يوصى الباعة بأن يأتوا ببعض البضائع الى المنزل فاذا أحضروها سخر منهم وأنكر طلبه لأى شئ ، وهو يكتب خطابا لمدير دار المجانين يوصيه شرا بمسيو ، وخطابا الى ميرزا عبد الحيد يوصيه فيه بشر الأمور بعمه وبنعيم التجار . وفى النهاية يذهب الى البوليس ، ومنه الى دار المجانين .

نال محمود ما تمنى ؛ فى اليوم الأول لم يخرج من حجرته بل انشغل بشاهدة رفيقه المفلس السعيد ، وهو نوروز خان ، انه شديد السرور يتصور أنه يعيش فى جنة الخلد ، كل رجل عنده فى عظمة سليمان ، وكل امرأة فى جمال بلقيس ، وهو يجلس بالساعات فى حديقة المستشفى يتحدث الى الطيور والقطط ، وقد اقتنى بصلة يرى فيها أعظم جوهرة من جواهر العالم ويرى أن الطباق الصفيح الذى يقدم له فيه الطعام هو كأس جمشيد التى يرى الناظر فيها كل مناظر العالم ، وهو يتحدث عن نفسه كأنه فى قوة رستم وفى غنى قارون . الخلاصة أن نوروز خان كان يرى أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان .



لنر اذن كيف التقى محمود برفاقه المجانين مجنونا مثلهم بعد أن كان يلتقى بهم كزائر أو رفيق ، انه يقضى أوقاته تحت شجرة الرمان فى الحديقة محدقا فى السماء ، لكن شتان بين مجنون بالفعل ومجنون بالهواية ، ان المجانين أنفسهم لا يصدقون ، انه يشكر الله أن تجرد من كل شئ وفرغ لنفسه ، الا أن أشد ما يؤرقه أن يكتشف تصنعه فيطرد من الفردوس الذى وصل اليه بعد لأى . يلتقى به رحيم أسوأ ما يكون اللقاء ، انه لم يدخل الدار الا ليكون جاسوسا للرقم

« اثنين » اللعين • أما روح الله حلاج السحاب فقد هجر أغنيته المرحه • وأخذ حزن عميق يسكن أعماق عينيه وأخذ يزمزم بأغنية تتحدث عن الغربة والخيبة والفشل وحين التقى بأرباب قام فيه صارخا أكثر من ذى قبل ، ان الجميع يتلقاه ، وكأنما فطن الى اللعبة التى لعبها •

ويفكر محمود فى مسيو ، هو الوحيد الذى سيقوده الى عالم الجنون ، ان محمودا لا يزال فى فن الجنون من صغار « الأبدال » بينما مسيو من الأقطاب الأوتاد ، لكنه يخشى من لقاء مسيو فيرجى اللقاء ، ويزيد من نوبات الاغماء التى يتعسفها تعسفا • وقليلًا قليلًا يحس أنه ثبت أقدامه فى دار المجانين ولم يعد يخشى أن يشك أحد فيه ، أما مسيو فليس عليه الا أن يتعد عنه ، انه الوحيد الذى يعلم سره ، لكن مسيو لا يتركه للراحة التى شملته ولدخله الذى بدأ يفتش فيه ، ولمذكراته التى بدأ يكتبها ، انه يوقظه من النوم ذات ليلة ساخرا من سمنته ومن صحته التى تقدمت على جو الدار ، ويوصيه بأن يكف عن التظاهر بالجنون فتلك هى اللعبة التى لعبها سويا ، الا أن محمودا يحاول أن يتعد عنه ، يدعى كل ما ينفر مسيو ، ولا سيما أنه يكتب شعرا زاخرا بالصنعة البديعية • وفى النهاية يهجم على مسيو ممسكا به من مكان حساس ، تكون النتيجة أن ينقل الى قسم المجانين الخطرين •

ثم نواصل قراءتنا لمذكرات محمود التى صارت أساس الرواية ، وهى الآن بلا تاريخ « لأنه فقد احساسه بالزمن تماما » انه يسخر من فكرة الأيام ، ولم يعد يعرفها الا بيوم الجمعة الذى تزورهم فيه شاه باجى ، فتتظر طويلا فى عينيه وتتعجب من وجوده فى المكان وهو أكثر عقلا من أى عاقل ، فلا يجيب الا ببعض التصرفات التى تحدث

من المجانين بالفعل ، ثم تدمع عيناه حين يرى أى حزن يسببه لها
بتصرفاته هذه .

ويبدأ الضيق يتسرب الى محمود فلا يجد بدا من مصادقة مسيو
ثانية ، ويخبر مسيو محمودا أن كبير الأطباء في سبيله الى فقدان عقله
بالفعل ، ان الطبيب أخبر مسيو أنه أصبح يضيق بالحديث الى الناس
العاديين ، فاذا تعجب محمود قال له مسيو : ان التأؤب يعدى
فما بالك بالجنون ؟ • والأيام تمضى بمحمود ، لم يعد في الدار ما يثير
اهتمامه اللهم الا المناقشات التى يدخل فيها مع مسيو ، ان محمودا
يقضى ليلة العيد في الدعاء فاذا بمسيو يسفه ما يفعل ، ان الله قدر
الأمر في سابق علمه ، فماذا يفيد الدعاء ، ثم ان دعاء الناس متناقض
فكيف يتم أن يستجاب دعاء الخير لأحد بينما قد يكون فيه شر لآخر •
ومع ذلك يشغل محمود بالدعاء وبمشاركة « المفلس السعيد »
سروره ، ان المعرض الدولي في أمريكا أرسل في طلب جواهره ،
ولكنه لا يجد وسيلة النقل التى تكفى كل هذه الجواهر وحين يرى
محمود اندار تضاء بالشموع يحس بحزن حقيقى ، انه يحس
كما لو أنه قد مات وأوقدت هذه الشموع على جثته •

يأتيه مسيو كى يريه مفاجأته ، وخلف شجرة يقفان ويشاهدان
جنون مدير الدار وهو جنون من نوع خاص ، ان المدير يتخيل كما
لو أن نساء العالم أصبحن محبوبات له ، انه يأتي بزجاجته وكأسين
كل ليلة ويجلس تحت الشجرة ، ويخاطب محبوبات الخيال بأرق
الألفاظ ويساقيهن ، وينتقل من واحدة الى أخرى « وكأنه ورث حريم
السلطان كما يقول مسبو » ان مسيو شامت ، لكن محمودا حزين حزنا
شديدا يردد بيتا من الشعر يجرى مجرى الأمثال :

كل ما يفسد يداوى بالملح يا ويلتا ان فسد الملح

ولم يعد عند محمود بعدها ما يخطه في يومياته ، ثم يضيق فيلقى

بأوراقه كلها فوق الدولاب ، ولا ندري بعدها من أين أتى الكاتب بما أكمل به الرواية ؟ لقد آن الأوان لأن يغادر محمود الدار ، لقد توفي العم فجأة وفرغت له بلقيس وكل نروتها ، وها هي ترسل اليه تتعجله الخروج ، ولكن متى كان دخول الحمام كالخروج منه ؟

انه يود لو خرج بحريته ولو تسلل من الدار خارجا كما تسلل اليها داخلا ، لكنه ولأول مرة يكتشف أن للدار بابا ضخما وحارسا فظا وسورا عاليا لو ألقى بنفسه من فوقه لدق عنقه لا محالة ، وينظر فلا يجد في الطريق الا سكيراً يشكو هموم قلبه بأبيات من الشعر ، فاذا ما بدأ يساعده ، اتابته نوبة قىء تركه بعدها وفرغ لحاله ويذهب الى مسيو يقص عليه الأمر فيسخر الأخير منه ، انه تظاهر بالزهد حتى اذا وصلت الى خياشيمه رائحة الشواء لم يستطع صبرا الى الصباح ، كان ينبغي أن يصبر قليلا فلا يفاجئ المدير هكذا برغبته في الخروج فاذا واصل محمود الشكوى ، سخر منه مسيو قائلاً « ان العاقل الحقيقي لا يلقي نفسه أبدا بين المجانين » • ويفاجأ محمود بأن مسيو صلب كتابا على الجدار ، فاذا أبدى عجبه أخبره مسيو أنه تعب كثيرا من الكتاب فلم يجد بدا من عقابه هكذا •



تبدأ مرحلة جديدة من حياة محمود في دار المجانين ، وكأنما السعادة التي كانت قد تيسرت له خارج الدار كانت مصحوبة بحوادث داخل الدار زادت من رعبه ومن شقائه ، انه قبل أن يذهب الى المدير في الصباح يرى بعينه « المفلس السعيد » وهو يجود بالروح ، لقد ظل يناجي الطيور طوال الليل حتى الفجر في البرد فأصيب بنزلة برد قضت عليه • ويدخل محمود حجرة المدير ثانية ، ويحدثه المدير كما ينبغي لمدير أن يحدث مريضاً ، ويخرج محمود عن طوره انه يرجو الطبيب أن يختبره في ما لا يجتمع في بشر قط ، يخبره أنه ينظم الشعر

ويكتب القصة والمقال يطلب منه أن يسعه قصائد عويصة عن ظهر قلب ، يطلب منه أنه مستعد لأن يعد له الشهور والأيام والأعوام ، أن يحلل له جسد انسان الى غير ذلك من الأشياء التي تثبت لنا لا للطبيب فحسب أن محمودا قد جن بالفعل • ويصرفه الطبيب بحجة الاستعداد لدفن « المفلس السعيد » ويستشيط محمود غضبا فيمضى الى كل من في الدار من العقلاء الى المرضى والبستاني والطباخ يسألهم ويستحلفهم بكل عزيز وغال : هل هو مجنون بالفعل فلا يسع الا مصمص الشفاة وعبارات من قبيل « حاشا الله » و « استغفر الله » و « من يقول هذا » فلا يجد بدا أن يسرع الى المدير ثانية •

ويواجهه المدير بكل عجرفة وعنجهية ، انه لا ينظر اليه ويسب من في الدار أولئك الذين يتركون مجنونا يفسد عليه خلوته • ولا يصدق محمود ولا يتحمل ولا يتخيل أن هذا المدير الذي رأى من جنونه ما رأى يعامله هذه المعاملة ، فيواجهه المدير بما يعرفه عنه ، فيثور ويسب ويلعن ويستنجد بكل من في الدار ليعبدوا هذا المجنون عنه •

يبدأ محمود يشك في أنه مجنون بالفعل ، ويتذكر الكلمات التي نقلها اليه مسيو عن الطبيب أن الجنون لا أصل وله ولا فرع ، ويخاطب نفسه قائلاً : يا غافل القلب قد تكون مجنونا بالفعل وأنت لا تدري ، لكن المجنون الحقيقي لا يدري أنه مجنون ؟ لم يبق أمامه اذن الا أن يسير في الطرقات وهو يدق على صدره ، انه يستطيع أن يصبر قليلا ، لكن بلقيس تتعجله بعد أن تحلق حولها الذئاب عندما رأوها وحيدة وذات ثروة ، لم يبق له اذن الا أن يهدد بالانتحار ، فيأمر المدير بنقله الى قسم المجانين الخطرين •

ويرى محمود نفسه في حجرة هي أشبه بالسجن لا يربطها بالعالم

الخارجى الا كوة صغيرة ، النهار لا يصل اليها ، أما الليالى فحدث عنها ولا حرج ، كانت تسليته الوحيدة أن يسمع أصوات الحمام وهديلها على السقف المواجه ، فى اليوم التالى عندما تزوره شاه باجى شاتمة فى زبائنه الجدد يقسم لها بكل مرتخص وغال أنه ليس مجنونا ويطلب منها أوراقا وقلمًا ، فتحضرها وتدخلها له بعد أن ترشو الحارس ، وتنصرف لكن بعد أن تطلب منه الصبر حتى تجد مخرجًا ، وبعد أن يطلب منها ألا تخبر بلقيس بشيء عن سر شقائه • ويأتى اليه مسيو ليحدثه من خلال الكوة ، انه شامت به غير حزين عليه ، ولاشك أن الإقامة الجديدة سوف لا تجعله يفكر بالمرّة فى خيانة العالم الذى اتّمى اليه ، ويهدد محمود بالانتحار : الا أن مسيو عندما يفرغ مصباحك لن تحتاج الى الانتحار •

يقضى محمود أياما ثقيلة فى السجن ، يشغل نفسه بقراءة التذكارات الشعرية والنثرية التى كتبها من سكنوا الحجره قبله ويستعرض خلالها جمالزاده محفوظه من شعر الشكوى الفارسى ويفكر فى أن يرفع عريضة الى المسئولين ، لكن من يصدق ؟ ان عليه أن يكتب أحداث حياته كلها ، وفى هذه الحالة من الذى سوف يقرأها عليه اذن وأن يلخصها ، ومسيو يأتى اليه بين الآن والآخر الى الكوة فيحدثه عن مشروعاته ثم يخفى فجأة ولا يعود بعدها • ويعلم أنه انتحر ، « كانت هذه هى بالفعل نهاية صادق هدايت وبعد ثمان سنوات من صدور الرواية » وفقد محمود الأمل تماما ، وكان قبلها قد فقد الأمل فى بلقيس التى رآها الجميع وحيدة ثرية فالتفوا حولها وكل منهم يدعى حقا فى تركه المرحوم •

وفى النهاية يلتقى محمود بمذكراته لبيثها أن والد صديقه رحيم قد مات وأن أمه قد انقطعت عنه ، أجل لم يعد له من أمل الا أن ينقل الى قسم المجانين الهادئين ولم يعد يثق فى شيء اسمه الحرية انه « يخاف أن تكون الحرية أيضا ومثل كثير من الأشياء الأخرى

نتيجة عن فكر الانسان الخرب الذى يفكر فى المستحيل » • وتنتهى
الرواية •

ولا أدري بعد أن قدمت الرواية هل نسميها رواية أم نسميها
دراسة ؟ هى رواية لأن فيها شخصيات وفيها أحداث ، وهى دراسة
أيضا لأن فيها مناقشات حينا جادة وحينا هازلة وفيها منقول كثير من
الأدب الفارسى الكلاسى ، لكن فيها الى جانب ذلك التبعية
للتطور الداخلى لدى الشخصيات ونموها ، وفيها أيضا شخصية
مسيو وهى ليست الا دراسة لأدب صادق هدايت • ولننظر الى بطل
الرواية ، انه بطل رواية انسانى بكل ما تعنيه الكلمة ، الا أن تتبع
الراوى أو الكاتب لحياته يوحى الينا بأنه أراد أن يقدم شخصية
نموذجية لانسان فى سبيله فعلا الى الجنون ، لقد نشأ فى أحضان
أب يجمع كل المتناقضات ، ولما انتقل الى عمه اذا بهوة المتناقضات
تتسع • ان البطل وهو يقنع نفسه بادعاء الجنون ينظر الى أحواله
المادية المتدهورة ، أجل اننا أمام رواية دراسية ، رواية اذا نظرنا
الى شخصية محمود ، ودراسة اذا نظرنا الى شخصية مسيو •

ويشور سؤال آخر : هل الرواية ساخرة فكاهية كما يحلو
للمؤرخى الأدب الفارسى وصفها ؟ الواقع أننا اذا تركنا حوار جمالزاده
الساخر وبعض المواقف المضحكة المتناثرة هنا وهناك نجد أنفسنا
أمام رواية ترجيدية من الطراز الأول ، بل أن بعض المواقف الضاحكة
هى التى تثير الدموع وراء ضحكاتنا • أليس مما يثير الحزن أن نجد
شابا واسع الثقافة يفضل الجنون ويقيم فى دار المجانين بدلا من
أن يخرج الى الحياة الواسعة ينتفع بعلمه وينفع به ؟ وأليس مما يثير
الحزن طبيب الأمراض العصبية الذى يترك مرضاه ليسرع أثر هوس
أو مرض ألم به ؟ وذلك الطبيب الآخر الذى أوكل اليه علاج المجانين

وهو في الحقيقة أكثر جنونا منهم ؟ وذلك العامل المسكين ألا يثير
فينا حلجه للسحاب شيئا من الحزن ؟

ثم : ألا يدور هذا السؤال في أذهاننا : ما هي الأسباب الحقيقية
وراء مرض هؤلاء ؟ لابد أن سببا ما وراء انصراف رحيم الى الأعداد،
أليس من الممكن أن يكون ذلك قد ألم به من انشغال والده عنه الى
العناية بحساب مخدومه ؟ وانصراف المدير الى مغازلة معشوقات
خياليات دليل بلا شك على فقدانه لجانب الحب الحقيقي في حياته
وما أعمق سخرية جمالزاده حين جعل مدير المستشفى مجنونا فالراعى
من طينة الرعية ، وما أشدها من لحظة حزن حين نردد مع الراوى
بيت الشعر الذى رده في هذا المجال :

كل ما يفسد يداوى بالملح يا ويلتا ان فسد الملح

وفضلا عن ذلك نلاحظ روحا عامة من آثار الضغط الفكرى
وجو الاختناق الروحى الذى ساد ايران في تلك الفترة وما بعدها ،
ان جمالزاده الذى ربي في بيت زعيم لم يترك قضايا أمته على البعد،
بل أن اقامته الدائمة في الخارج من المواقف التى تثير أسئلة عديدة
ورفضه الساخر أكثر من مرة لمنصب الوزارة حين عرض عليه ، الا أن
الكاتب بالرغم من ذلك هادىء النبوة لا نحس عنده تلك الحدة التى
نحسها عند غيره من الكتاب الايرانيين ، ولعل ذلك من تجاربه الطويلة
وتبنيه في فترة مبكرة من حياته لفكرة الاصلاح المرحلى التى بشر بها
في كتابات عديدة •

ولاشك أن قراءات الكاتب في الآداب الأوربية قد ظهر أثره
واضحا في هذا العمل ، وقد ذكر رواية الأبله لديستيوفسكى في
ثنايا روايته فلا جدال أنه اطلع عليها ، وواضح تأثيرها في شخصية
محمود ، وأبله ديستيوفسكى لا يحس الانسان بجنونه المطبق
الا حينما يبلغ به الاضطهاد مداه •

أما العمل الآخر الذي لا أشك أن الكاتب قد اطلع عليه وإن لم يذكر ذلك في روايته فهو قصة « العنبر رقم ٦ » لأنطون تشيكوف ، فأرباب ليس الا موسى اليهودي الذي أتت النار على دكانه فجبن ، والرجل المغرم بالنياشين ليس الا « المفلس السعيد » بشحمه ولحمه ، والعلاقة بين مسيو ومحمود تذكرنا بالعلاقة بين أندريه أندريتش وبافيل بافيلوفتش ، وأندريه جن بالفعل في رأى المجتمع عندما شهد لبافيل المريض نزيل العنبر أنه أوسع ثقافة من كل من قابلوه في حياته والجو العام لدار المجانين يذكرنا بالجو العام لعنبر رقم ٦ لأنطون تشيكوف .

وفي النهاية تبقى لجمالزاده روحه المستفيضة ذات الجانب الصوفي وسخريته الشرقية البحتة ، وربطه بين الآداب القديمة والحديثة وروح الراوى الذى يرفع الكلفة بينه وبين القارئ ، كل ذلك يجعلنا بالفعل نحس بالروح الايرانية في الرواية ، هذا الى جوار المصطلحات والتعابير الشعبية التى يوردها لا فى الحوار فحسب بل وفى الوصف أيضا .

٤ - التنجستاني

صادق جوبك

ولد صادق جوبك في يوشهر في الجنوب الابرائي سنة ١٩١٦ وبعد انمام مراحل تعليمه الاولى في شيراز ، رحل الى طهران حيث اتم دراسته في الكلية الأمريكية ، وكان معلوما أنه كان تحت رعاية صادق هدايت في بداية حياته الأدبية ، وهو كاتب قصة قصيرة من الطراز الأول ، ظهر في المحيط الأدبي بمجموعتيه : مسرح العرائس ١٩٤٥ والقرود الذي مات صاحبه ١٩٥٠ . وبعض قصصه القصير ترجم الى اللغات الأوروبية ، يعد جوبك الآن طليعة الكتاب الايرانيين . له ايضا :

اليوم الأول في القبر والصدقه الأخيرة وهما مجموعتان من القصص ، وله من الروايات غير التنجستاني حجر الصبر وقد انارت ضجة عند اصدارها لغرابة لغتها وموضوعها وبعد جوبك ممن تأثروا بالأدب الأمريكي الروائي المعاصر ، خاصة اعمال وليم فوكنر وجون شتاينبك وفي تمجيده لبطولة الانسان وهو الميدان الأول للرواية التي بين ايدينا يذكرنا بروائع همينجواي التي يدق فيها كثيرا على هذا الموضوع .

لعل القارئ مل حياة طهران وأبطال طهران وقادة طهران واهتماماتهم، ولعله ضاق ذرعا من نساء طهران والأعيهن وكيدهن ، ولعله قد تاق مثلى الى الحياة في ظلال قرية نائية من قرى الجنوب الايراني ، والى لقاء أناس من لحم ودم ذوى اهتمامات عادية وأفكار عادية وحياة عادية لا تشوبها حمى مرض الرياسة ولا الأعيب دهاقين السياسة ، اذا كان الأمر كذلك بالفعل ، فاني أقدم له هذه الرواية من روايات المدرسة الحديثة في ايران رواية « التجستاني » أى الشخص الذى يعيش أو ينتسب الى منطقة تنجستان من ولايات الجنوب الايراني ، تلك الولاية النائية التى لعبت دورا كبيرا فى الحركة الوطنية الايرانية خاصة فى القتال الذى شنه أهلها بينادقهم القديمة ضد الانجليز فى الحرب الأولى •

هذه رواية شكل وليست رواية مضمون • ان أحداث الرواية بالرغم من حجم الرواية (٣٢٠ صفحة) قليلة جدا من الممكن أن نلخصها فى صفحة أو صفحتين ونستريح ، الا أن المؤلف جعل من هذه الحادثة أساسا لكتابة رواية مجبوكة الأطراف ، مالتا اياها بالرموز ، محلا ما وراء الحادثة وما بعدها موجيا بأكثر مما تعنيه الحادثة ، كل هذا دون أن يقدم لنا مقدمة ، ودون أن يسوق الخطب ودروس الفلسفة على ألسنة الأبطال أو أبيات الشعر ، وبعد أن تنتهى من قراءة الرواية لا نملك الا أن نفكر : الى ماذا يرمز بطلها ؟ والى ماذا نرسم بقية الأبطال ؟

ان الرواية كلها قائمة على حدث حدث بالفعل ، أصبح من التراث الشعبي فى الجنوب الايراني ، قصها كاتب آخر فى قصة قصيرة لا تزيد صفحاتها على العشرة ، شاب بسيط نصب عليه بعض أهل المدينة وسلبوا أمواله ، ولما فشل فى استردادها منهم بالحسنى والقانون قتلهم جميعا • اتنا أمام جريمة وأمام مطاردات بوليسية ،

وأمام مجرم هارب يمسك علينا أنفاسنا ، ونحن نتابعه في طريق هروبه ، الا أننا رغم ذلك لسنا بصدد قصة بوليسية تقليدية ، ولسنا أمام جريمة عادية نهز رؤوسنا بعد قراءتها مرددين القول الذى بلى « الجريمة لا تفيد » بل نحس أن بعض ما يسمى جرائم تطهيرا للمجتمع واعلاء لشأن الانسان الذى كرمه الله وخلق على صورته ونفخ فيه من روحه •

ثم اتنا لا نملك أنفسنا من أن نعيد قراءة هذه الرواية أكثر من مرة ، مرة لتستبع صورها الانسانية العظيمة ونماذجها البشرية التى تخرج الينا من بين السطور ، ومرة لكى ندقق فى ألفاظها الموحية الغريبة التى أحس الكاتب بغرابتها فأثبتها فى كشاف فى آخر الرواية ، ومرة لكى نعيش البطل فى سخطه وغضبه ثم فى شفائه لغبل نفسه ثم وهو مطارد من الشرطة تحيط به قلوب الناس وتلقفه أذرعهم الحانية بحب وعطف ، ومرة أخرى لكى نستمتع بهذا الحوار العظيم الطبيعى الذى أجراه المؤلف على لسان أبطاله ، وكأنه سجله من أفواههم مباشرة فيدخل قلوبنا مباشرة عاريا من الوشى عاريا من التقرع والفلسفة كاشفا رغم قصره عن بعض جوانب الشخصية وتطوراتها وماضيها ومكوناتها • كل هذا دون أن يتدخل الكاتب بشخصه فكأنه امتزج بموضوع روايته وشخصها حتى بات واحدا منهم •



فى افتتاحية الرواية نجد أنفسنا فى يوم شديد القىظ من أيام رمضان الكريم ، نحس من خلال الأشجار الساكنة والطيور الصامتة والطريق الخالى بهذه الحرارة وهذا السكون ولا نجد بدا من أن نلجأ مع « محمد » بطل الرواية الى ظل شجرة ، ها هو محمد يجلس تحت شجرة قد التصق قميصه بجسده ، فيخلعه ويعصره وينشره بجواره ويجلس بصدره الغزير الشعر غارقا فى أفكاره ، وعن طريق

المونولوج الداخلى المستخدم بنجاح تام نعرف الكثير عن محمد وعن الشجرة فى صور متداعية لا تأخذ صورة الاعترافات كما تعودنا فى الروايات السابقة ، ان الشجرة تقع فى ميناء « يوشهر » أحد موانئ الجنوب الايرانى ، ومحمد ليس من أهل الميناء وانما هو من أهالى قرية « دواس » التى تبعد عن المدينة بحوالى سبعة كيلو . ترات وهو صاحب دكان لبيع الأرز فى المدينة . وهو يقطع هذا الطريق على قدميه فى طريقه ذهابا الى دكانه وايابا الى قريته ، ولكنه لأمر ما عاد مبكرا عن ذى قبل .

ان ثور احدى أرامل القرية قد انطاق هائجا ، ولا يستطيع أحد الامساك به ، بل انه جرح غلاما حاول ذلك . وها هو ذا بين النخيل يعيث فسادا فى القرية ، وها هو ذا محمد فى جلسته يفكر فى هذا الأمر ، انه يود لو يسرع الى القرية لكن الحرارة الشديدة لا تساعد ، انه ينتقل فى وحدته هذه من موضوع الى آخر ، من الثور الهائج ، الى الشجرة المباركة التى يجلس تحتها والتى نعلم ذلك من كثرة الخرق المعلقة عليها والأساطير التى نسجت حولها ، انها مسكونة بالجن . وهو نفسه شاهد مرة عرسا للجن فيها ، لكنه لا يخاف ، انه ينذر بينه وبين نفسه لو استرد نقوده التى سلبت منه ، تلك التى جمعها بكده وسعيه ، لو تم الأمر واستردها ، « دسنة » من الشمع لهذه الشجرة .

ومن هنا نعلم أن محمدا قد وقع عليه ظلم ما ، ولكن أى ظلم ؟ وممن ؟ لا ندرى ، وها هو ذا ينهض من جلسته ولا يلبث أن يصل . الى سبزآباد ، حيث يقع المبنى الذى يسكن فيه الانجليز ، ينظر الى الارية التى ترفرف فوق المبنى ويتعجب ، بعد سنوات من الكفاح لازال الأمر كما هو ، لو قام قائده « رئيس على » من فبره ماذا يقول ؟ ثم يتذكر أيام كان هو نفسه يعمل مع الانجليز حدادا ، كم

كانت أياما رغم سوءها سعيدة ، كان خفيفا كريخ الشمال لا أهل ولا ولد ولا هموم ولا أعباء ، ثم يفرغ من أحلامه ويواصل طريقه ويقف أمام دكان حميه « حاجي محمد » فيجد انجليزين يبتاعان وينظر اليهما شذرا ، وتفهم من حوارهم مع خاله أن محمدا ساخط على حميه وهو خاله أيضا . كيف يتعامل مع الانجليز وتقودهم كلها ملوثة بالخير ولا بركة فيها ، وأيضا في شهر رمضان ، انه ساخط عليهم ، فكل شيء لهم ، وهو فخور لأنه عندما قام « رئيس على » لقتالهم اشترك معه وقتل بينديته الكثيرين منهم ، ويذكره خاله بالنقود التي اكتسبها منهم ، فينكأ عند محمد جرحا لا يندمل ، ويلقى الضوء على جانب آخر من جوانب الظلم الذي وقع على محمد ، لقد كسب منهم ألفى « تومان » أعطاهما لامام الجمعة فقرأ عليهما دعاء التحليل وأخذ لنفسه ثلاثمائة ، أما البقية فقد تكاتف بعض الناس على خداعه وأخذوها بحجة استثمارها ، وأنكروها تماما .

وها نحن مع محمد على مشارف قريته بيوتها المصنوعة من سعف النخيل والحصر ، ويتوقف عند مقبرة القرية حيث يستوقفه نشيخ امرأة تبكي على قبر وهي تعدد محاسن فقيدها « يورد الكاتب بعض النماذج » . ولا يمشى محمد قبل أن يواسى المرأة لكنها تزداد بكاء ، ان صوته يشبه صوت فقيدها ، ويأخذ محمد بيدها ويقف على المقبرة ، ويفكر في الموت ، اذا كانت هذه النهاية فلماذا يظلم الناس بعضهم بعضا ؟ انه يتذكر أعداءه فيقف على المقبرة سابا لاعنا مقسما على انتقام يتحدث عنه الناس ويكتب في القصص ، والا ما كان من صلب والده ، لكنه يهدأ عندما يرى كلبا يلث من الحر ، فيحادثه ويلطفه كأنه انسان : « لقد ضاق قلبي بكل هؤلاء الناس ؟ وددت لو كنت مثلك ، انكم لا تنصبون الحيل لبعضكم ، لو تعلم ما فعله بى « كريم حاج حمزة » كل ما معى من نقود سلبها . النقود التي

شقيت في سبيلها عشرين سنة « ثم يقطع قضة من الكعك الذي حمله لأولاده ويرمى بها الى الكلب قائلا : « كل أيها الحيوان ، انك مستحق بالفعل مثل أطفالي » ويأخذه معه الى منزله .

تتعرف الى منزل محمد ، انه مدهون بالملاط فهو يحسب من منازل الأعيان ، ولتلقى بزوجه « شهرو » وهى تعد طعام الافطار وبينهما حديث حب ، تحاول أن تنبيه عن عملية اصطياد الثور ، الا أنه لا يستمع اليها ، من للأرملة المسكينة صاحبة ؟ ثم هبى نفسك في مكانها ، انها تطلب منه ان يحمل بندقيته معه احتياطا ، لكنه لا يرضى ، اذا مات الثور فكأنه لم يفعل شيئا ، من أين تتعيش اذن صاحبه المسكينة ؟ وعندما قاربت الشمس المغيب ، كان محمد يسحب الثور الهائج خارجا به من بين النخيل ، بعد موقف يعد من أعظم ما صور في الأدب الفارسى المعاصر .

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف صور الكاتب بطل الرواية وكيف قدمه لنا ، كيف ألقى الضوء على بعض حياته الماضية واحتفظ ببعضها الآخر ليقدمه عندما تستدعى متطلبات الرواية ؟ كيف صور شخصية محمد وجوانبها عن طريق المواقف لا عن طريق السرد ؟ علمنا اذن أن محمدا شهم وشجاع وبسيط ونصير للضعفاء والمظلومين وعرفنا أنه انسان محبوب ، فهل يا ترى نستطيع بعدها حين نلتقى بمحمد القاتل أن ندينه ونحكم عليه ؟ لتتابع الرواية اذن لنرى كيف تحكم علينا منطقية الأحداث ؟



ويدخل محمد في دور الاعداد لجريمته أو انتقامه كما يسميه ، ومن المعهود في مثل هذه الظروف أن يخفى من يزمع أمرا كهذا سره حتى عن أقرب الناس اليه ، لكن ما بال محمد ؟ ان الظلم الذى حاق به بلغ من شدة وقعه على نفسه أن يتحدث به حتى الى الموتى

والكلاب فهل يكف عن الحديث الى من يههم الأمر ؟ انه يطرق باب منزل خاله وحميه بليل ، ويفزع الخال لدخول محمد عليه في هذه الحالة ، ان الهموم تبدو عليه بصورة أشد. رغم الابتسامه الدائسة المرتسمة على وجهه ، انه يلفى بعزمه لخاله دون مقدمات : « يجب أن أقتل الأربعة : كريم حاج حنزة والشيخ أبا تراب وآقا على كجبل ومحمد كنده رجب هكذا جميعا » . وتدور مناقشة بين الشيخ والشاب ، يذكره بيوم القيامة . لكن محمدا يعرف يوم القيامة جيدا ، والله أيضا أمر بقطع أيدي اللصوص وعندما يكون اللص شيخا يؤم الناس في الصلاة فالقتل أوجب . انه يستودع خاله زوجته وأولاده ، وهل دبر محمد لكل أمره ؟ أجل : ان الأمر أمر الله ، وما دام الله يريد ذلك فليكن ، ولكن لم كل هذا العناء ؟ ليس الأمر أمر النقود ، هكذا يرد ، صحيح أنه اكتسبها من خدمة الانجليز ، وصحيح أنه يعيش ، الا أن استهانة اللصوص به وسخريتهم منه فوق أى اعتبار ، حتى الشيخ زور وحكم بالظلم ، وانسان حقير مثل محمد كنده رجب يتلو عليه الأشعار في غفلة القرويين ، والناس يسخرون منه ، ويضحكون من خلف ظهره ، ليس هناك من شيء يعلو كرامة الانسان وشرفه . فاذا سأله خاله : والأطفال ؟ أجاب : انه يفعل ذلك من أجل أطفاله ، أجل ينبغي أن يربى الانسان أطفاله ، لكن ليس بلا كرامة ، بعدها لن يستطيع أحد أن يمد يده اليهم بظلم ، انه لا يستطيع أن يرفع رأسه أمام أهالي بوشهر ، فكيف سيتحمل أطفاله هذا الذل ؟ كل ما يتبقى منه لأطفاله وزوجته ، فان تزوجت آل كل شيء الى الأطفال ، ويودع خاله ويعود الى كوخه .

نجد أنفسنا بعد ذلك في كوخ محمد ، ويا لها من ليلة شهدها هذا الكوخ الذى كان هادئا ساكنا ، طفلاه نائمان ، لكنه لا يغمض له جفن ، انه يصرخ ويهذى دون انقطاع ، ويقوم فينظر فى السماء الى نجوم « الدب الأكبر » انه يسميها الاخوة السبعة لأنها لا تفرق ،

ويقارنها ببلطته ، ويخرج خنجره ثم بندقيته ويقوم بتنظيفها ويخاطب زوجته قائلاً : هل رأيت بندقية بهذا الجمال قبل الآن ؟ والمرأة قلقة على زوجها ؟ خائفة وملتاعة ، تحس أن شيئاً ما لا قبل لحياتهم الآمنة به سوف يحدث ، ما له ولهذه الأشياء التي نسيها منذ زمن ؟ لقد آن لأسلحته أن تخرج من مرقدها ، ان أمام محمد سفراً طويلاً ربما الى البحرين أو قطر أو زنجبار ، وتجهش المرأة بالبكاء انه ضاق منها ومن حياته معها ، الا أنه يصرح لها بأنه ينبغي أن يصفى حسابه . لقد باع الدكان وباع الدار ، ان لم يعد في الغد عليها أن تحمل الأطفال وتذهب الى منزل والدها ، وان هرب عليها أن تستعد لذلك ، لقد اشترى قارباً ربطه الى الشاطئ ، وعليها أن تحمل اليه ما يلزم وتنتظره في المساء ، لا نكوص عما عزم ولا عودة ، ويسود الكوخ هدوء شامل ، انها نائسة على جنبها تفكر ، صورة محمد تغيب عن خيالها قليلاً قليلاً ، وتبكي على الأمل الكبير والعمر القصير ، ان محمداً يواسيها وعيناه لا تريمان عن النجوم ، ينظر الى أكواخ القرية ويخاطبها قائلاً : « نحن أهل تنجستان دائماً مظلومون ، كل هذا كلام فارغ ، ألا ينبغي أن يظهر انسان يمحو كل هذا الظلم من أساسه ؟ ويخلعه من جذوره ؟ لو لم أوجد أنا كل رجال تنجستان سوف يكونون آباء لأطفالك ، ولقد حدثت والدك ، وغلله عليك ، اننى مثل الحسين بن علي أذهب لأنال حقي ، وليس دمي أغلى من دمه » انه لو لم يفعل لثاه مجنوناً في الصحراء وتحدثه عن حبها له وأن العالم كله لا يعدل شعرة واحدة من شعره ثم لا تبقى نجمة واحدة في السماء .

أرأيت هذه الصورة التي يعرضها الكاتب دون زيف أو تزويق ؟ ثم أرأيت تطور حديث الزوج والزوجة من التلميح الى التعريض الى التصريح الى الاقتناع ؟ ثم أرأيت فوق ذلك كيف نجح الكاتب في مزج الصور الطبيعية بالصور النفسية لنرى أننا أمام صورة من صور

الحياة نقلها الكاتب بصدق فنى رائع قل أن يتوفر في كاتب إيراني
معاصر ؟

ثم نلتقى بسحمد في الفجر يسير في شوارع « بوشهر » يرتدى
ملابس الحراس وهو يتقلد أسلحته ، كان كل من يراه يظن أنه امتهن
الحراسة ، وهكذا كان يجيب ، وانك لا تصلح لبيع الأرز ، هكذا
كان يجاب ، اشترى محمد ملابس ، وطلب أن تصلح لباسا وكفنا
في الوقت نفسه ، وها هو يتبادل الأحاديث مع الباعة والسابلة ، كلهم
يسألونه عن وجهته ، وبعضهم يسأله عن قضيته وماذا تم فيها ، وهو
لا يجيب الا بقوله : وماذا يفعل الثعلب بين برائن الأسد ؟ ولا يدرى
أحد من الثعلب ومن الأسد ، ويظل أحد الباعة في الحديث انه
يوصيه أن يسلم أمره فيهم لله ، ويجيب محمد ساخرا : أجل ولحضرة
عباس ، ويمضى متأففا ، كأن الناس جميعا يتعجلونه ، أحدهم يوصيه
بأن يرفع شكواه الى أحمد شاه (١٩١٩ - ١٩٢٤) فيجيب ساخرا :
ان أحمد شاه لا يعلم هل تتبع بوشهر بلاد العرب أو بلاد العجم .

ويمضى محمد في طريقه ، انه يريد أن ينتهي من هذا الأمر
بأسرع ما يمكن ، لقد ضجر من كل شيء ، وها هو يصل الى
ضحيته الأولى : كريم حاجى حمزة وعلى باب دكانه يلتقى السلام ،
ويرد الرجل بسلام فاتر متبوع ببصقة ، وكأنما يريد أن يعجل في
أجله ، وها هو يعبر عن ضيقه برؤية وجه محمد في الصباح . ولا شك
أن هذا تعبير الحلم السيئ الذي رآه ليلة الأمس ، ويقيس محمد
المكان بعينه ، لعله روع بمنظر الرجل الذي سيصير كومة من اللحم
بعد لحظات ، ولعل جانبا من رحمته الطبيعية قد تحرك فيه وثناه لحظة
عن اتمام هذا الأمر ، فاذا به يطلب من الرجل مبلغا من النقود لأنه
مسافر ، وها هو الرجل يعامل محمدا كأنه شحاذ ، فلا يحس

الا بماسورة البندقية تحت ابطه ثم تنطلق الرصاصة وينتهي كل شيء •
 لم تثر فينا تلك الشخصية التي ظهرت لدقائق الا النفور لقد منحه
 محمد الفرصة الأخيرة الا أن الرجل تركها تفلت منه وأسرع الى
 مصيره ، ان القارىء ليحس أن الرجل هو الجانى وأن هجدا هو
 المجنى عليه •

وبعد سقوط الضحية الأولى ترتفع الأصوات من السوق : لقد
 نال محمد التنجستانى ثأره أخيرا ، وترتفع الأصوات : سلمت يده •
 ولم يبق أمام محمد الا أن يواصل انتقامه ، ان قتل واحد مثل قتل
 أربعة على كل حال •

ويمضى محمد الى ضحيته التالية : الشيخ أبى تراب • ان
 الشيخ فى منزله يجلس الى منضدة عليها بعض الأوراق والأقلام ،
 ولا يكاد ينظر الى محمد حتى يحس أنه ينظر الى الموت مجسدا ،
 فقد الشيخ لسانه وبيانه الذى طالما خدع به الناس وسلبهم أموالهم ،
 مات الشيخ قبل أن يموت ، وتدوى الطلقة ، ويخرج محمد وفى اثره
 امرأتان : تقيده احدهما من الخلف وتمسكه الأخرى من مكان
 حساس ، فلا يجد بدا من ضربهما معا بالبلطة ، ويخرج من الدار
 فتبصره قطعة تفر مذعورة ، وينظر محمد الى هيئته المخضبة بالدم
 فيخاف من نفسه ، ويخرج الى الطريق مهددا كل من يتبعه بأنه سوف
 يجبر الوبال على نفسه ، الا أن الناس لا يهمهم الا الحديث عن القتل
 الذى جاء الى بوشهر منذ عام واحد فقط أثرى خلاله ثراء فاحشا ،
 ان محمدا يتحول قليلا قليلا الى بطل شعبى ويطلق الناس عليه اسم
 « شير محمد » أى محمد الشجاع أو الأسد •

ويذهب محمد الى الضحية الثالثة : محمد كنده رجب ، أحقرهم
 فى نظر محمد ، وأكثرهم بذاعة ، انه يجلس مع انسان آخر يصرفه

بهذوء ، ويصمت رجب وهو يرى الموت يحوم فوق رأسه ، لقد رأى الموت أكثر من مرة ، وعاصر طاعون بوشهر ، لكنه لم ير الموت قريبا منه الى ذلك الحد ، كان يريد أن يشتم محمدا ، لكن فمه انفتح وانطبق دون أن يخرج منه صوت ، وها هو يرتعد ، ولا يجد محمد ازاء هذا الجبن الا أن يفرغ في صدره أربع رصاصات ثم يمضى الى حال سبيله •

لقد زاد تجمع الناس ، لكن ليكن ما يكون ، من تبعه سيكون دمه رواء لحصى الشارع ، لم يبق من العصافير الجبابة الا عصفور واحد ، وها هو يدق الباب ويرتفع صوت من الداخل : من ؟ فيجيب : خادمكم محمد وترد امرأة : عد غدا ان السيد متعب فبقول قولى للسيد اننى أحضرت ما طلب من تقود ، ويسمع الرجل فبقول لها : قولى له أن يصعد ، لا يسأل المرأة عن الطريق الى الحجرة ، انه يعرفها جيدا ، كم تذلل فيها وكم تضرع وكم التمس ، بذل كل شيء فى سبيله الى النهاية ، بعدها سوف يرحب حتى بالموت ، كان آقا على مضطجعا يقرأ المثنوى ، فلما دخل عليه اعتدل فى جلسته ، كان هناك ذباب بمأذ الحجرة ، سأله بلهفة : كم أحضرت فأجاب محمد : ما يكفيك تماما وأفرغ رصاصة • « وابتلع الهول الحجرة ، وتضرجت جثث الذباب الساقط فى المصيدة بالدم ووقعت المروحة من يد الرجل ، وانقلب كتاب المثنوى ، وأغمى على المرأة فوقم من يدها كوب الشراب وصار بددا فى الحجرة » •

وخرج محمد ، ان الشارع خال الا من جماعة قليلة من الناس ينظر اليهم محمد ضاحكا ، وعلى البعد يسمع أصوات الناس سلمت يداك يا شير محمد • كانت الشوارع تتحدث عن بطولة محمد ، كان الجميع يعرفون الا الشرطة ، وعلى رأس الحارة يستوقفه جنديان ، يهشآن له ويهشآن سائلين : هل نويت أن تعمل شرطيا يا أخ : سمعنا أن

جناية قتل وقعت في السوق ، فإرد دون أن تتحرك شعرة منه : أجل
نشاجر رجلان فقتل أحدهما الآخر • انتهى الأمر اذن ، لم يحرك واحد
من الضحايا ذرة من عطفنا عليه كان كل منهم في اللحظات التي ظهر
فيها مشيرا للنفور ، مستحقا للقتل ، وكأنهم كانوا جميعا مصرين على
الذهاب الى الجحيم دون أن يتخففوا قليلا من ذنوبهم •

نعود الى « شهر و » زوجة محمد ، ها هي عائدة من الساحل
بعد أن نقلت الى القارب ما أوصاها محمد بنقله ، وبعد أن دفنت في
الرمال ما أوصاها بدفنه ، دخلت كوخها وأغلقتة على نفسها وجلست ،
كل شيء باهت ومشلول ، مات كل شيء بذهاب محمد ، أصبح الكوخ
خاليا ، نقلت كل ما يستحق النقل الى القارب ، فقط لو عاد محمد
حيا كانت تريد أن تصرخ : أيها الناس مات محمد فقتلوا نتح ،
انها تعاقب بخيالها كل ما كان لمحمد ، لم تكن تدري ماذا تصنع ،
من العسير أن تواصل حياتها العادية ، انها تحس أنها في نزل ، ليس
المنزل نها بيع المنزل ويبتع الماعز واما قليل يأتي صاحبها لاستلامها ،
نم تعد حتى تطيق النظر الى وجوه أطفالها ، فقد أصبحت تحس في
وجوههم سحنة اليتامى • و يأتي الرجل ويسوق الماعز : انه يشنى
على ذكاء محمد الذي باع كل شيء ليستثمر أمواله في المدينة ،
والأولاد لا يصدقون •

عند الظهر تسمع شهر و سنايك الخيل تتوجه الى كوخها ، وعلى
باب الكوخ يترجل جنديان ، أحدهما آذرى ينظر اليها ويسأل عن
زوجها ، وتعلم شهر و لأول مرة أنه قتل ستة أشخاص وهرب ، وتنزل
الكلمة على قلبها بردا وسلاما ، ويقسم الجندي الآذرى أنه سيعثر
عليه حتى وان كان نجمة في السماء • ولأول مرة في يومها تحس
شهر و بالجوع ، انها تقوم فتعد الخبز بهمة ، وذهب الجندي الآذرى

الى العمدة ، بينما جلس الجندي الآخر الذي نكتشف أنه تنجستاني من خلال تبادل الحديث مع الزوجة ومن تعاطفه معها ، انه هو نفسه معجب بمحمد ، انه لن يرفع عليه بندقيته أبداً وليكن ما يكون . اما الجندي الآذرى فهر مصر على تفتيش الأكواخ واحداً واحداً ، والعمدة يثنيه ، لا فائدة فيما يفعل الا أنه سوف يثير الناس عليه ، انه يمر مع العمدة على الأكواخ بينما يجلس الجندي التنجستاني يتجاذب أطراف الحديث مع طفل محمد ، ولا يلبث الجندي الآذرى أن يصل ، وتحذره شهرو من محمد ، من الخير له أن يقلع عن فكرة القبض عليه ، وهو مصر ، يطلب من الجندي التنجستاني أن يتبعه للبحث بين النخيل ، لكن الجندي يتعاس ، من العسير أن يقبض شخصان فقط على محمد ، عليهما أن ينتظرا حتى تصل قوة من المدينة ، وجلس الجنديان ، وظل الأهالي بتجمعون حول كوخه ، بينما يقسم العمدة بأغلظ الأيمان أن محمداً لا يمكن أن يعود الى القرية ، والا من الذي سمع عن قاتل قتل ستة أشخاص ، ثم عاد واختبأ في منزله ؟



حينما أنهى محمد مهمته كان يعرف مقصده تماماً : كان عليه أن يختفى حتى المساء ، ثم يمضى الى حال سبيله ، ولا مكان أصح لهذا الاختفاء الا دكان ذلك البقال الرومى « أساتور » الذى تربطه به صداقة قديمة . ويذهب الى البقال فى دكانه ، وينكر البقال هيئة محمد الذى يعترف له بكل شيء ، وفى حروف قليلة يعرض عليه خطته ، ان أجاره فيها والا سار لتوه ، ويرد الرجل : الى أين والشوارع مملوءة بالجنود ؟ لكن الدكان ليس بالمكان المناسب للاختفاء ، ان محمداً يقف وراء ستار ، وما من حديث على أفواه المشتريين الا ما فعله محمد ، والرجل يفيض معهم فى الحديث حتى بات محمد يشك أنه فى سبيل تسليمه ، وحين يخلو الدكان من المشتريين يعود اليه ، عليه أن يمضى الى الحجرة العلوية للدكان ، لكن ليس بعد أن يرسل

صبيه في عمل ما فالصبي لا يؤمن • وقد يفلت من فمه ما يؤدي الى القبض على محمد •

يتكور محمد في الحجرة الصغيرة وسلاحه الى جانبه ، ان الحجرة لا تمنحه حرية التنفس لو فتح الباب فسوف يظفر بقدر من الهواء ، ولكن صبي « أساتور » سوف يعرف مكانه ، جلس القرفصاء ووضع ركبته بين قدميه ، أخذ العرق يخزه وكأن نحلة دخلت بين ملابسه ، خيل اليه أن زمنا طويلا قد مر على فعلته ، بدأت صورة زوجته وأطفاله تنمحي من خاطره ، انه لا يزال يتذكر منظر الكوب المكسور على الأرض ، والشراب المراق المخلوط بالدم ، والقطة التي فرت هلعا من منظره وهو ملوث بالدم ، أخذت أمواج سوداء كأمواج البحر تحيط برأسه ، وهو في السفينة برسوبوليس ، والسفينة كثرمة القثاء تعوص في موج البحر وتطفو ، وهو يمسك بدفتها بكل قواه خشية أن تنقلب منه ، ثم رأى نفسه في منزل الشيخ أبي تراب وقد طعن بخنجر مدبب أخرجه من جسده ، وأخذ يعدو والدم يتدفق منه ، ثم رأى نفسه ثانية في البحر ، زوجته وطفلاء متعلقون بطوق تتلاعب به الأمواج ، وفي حجرة القبطان كان هناك ضبع نائم ، وكان كريم حاجي حمزة ينام في أحضان الضبع والدم يسيل منه ، ثم رأى رجلا انجليزيا جاء يشتري من « أساتور » وهو وراء الستار ، لقد رأى أساتور يشير الى الستار ، وها هو يطلق الرصاص على أساتور والانجليزي ، وطوفان من الأمواج يحيط بالسفينة ، ثم تستقر في قاع البحر ، كان قاع البحر مضيئا كأنما أشعلت فيه آلاف الشموع والأعشاب كاليراعات ، ثم يرى جنود الحكومة يحيطون به وأربعة من الذئاب تحيط بشهرو والأطفال ، وهو لا يجد اليهم سبيلا ، ثم ركل الصناديق بقدمه وفتح عينيه ، ليجد نفسه وجها لوجه أمام « اسماعيل » صبي « أساتور » •

يقف اسماعيل وقد جحظت عيناه ، ويقف محمد في مواجهته

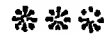
مهددا بسلاحه ، ثم يضع السلاح الى جواره ويجر الفتى الى الحجرة ويضربه حتى ينهار الفتى ، فيوسده بيديه ويخرج فيحضر له كوب ماء ، فلم يلبث أن عاد الى وعيه ، لقد سمع صوتا في الحجرة فظن أن لصا تسلل اليها ، ويسأل محمد : وهل تعرفني فيجيب الفتى : لعلك أنت الذي يقولون عنه ! . اذن أنا هو . ان اسماعيل يتقبل الأمر وكأنه شرف ما بعده شرف أن يشترك في اخفاء محمد ، بل يشير عليه أنه من الخير ألا يعرف سيده ، فهو ليس مسلما وقد لا يحفظ السر ، ويشير على محمد بخطة للهرب مضحكة ، ويدله على ما يدور في المدينة، ان الناس كلهم في صفه ، والحكومة لا تملك الا عشرين جديا نصفهم من تنجستان . ان الفتى ينصرف ليعد طعاما لمحمد ، ويخبره محمد أنه يستطيع أن يهرب وحده ، والويل له ان فكر في خيائه .

فاذا انتقلنا الى الفصل التالي وجدنا أنفسنا لازلنا في منزل أساتور ، الخادم يحتال ليأخذ أكبر كمية من الطعام وهو يفكر في محمد ، والبقال يفكر في نفس الشيء ، وكلاهما يظن أن الآخر لا يعرف ، ومحمد قابع في مكانه يحس ويسمع والاطمئنان يغمره ، الا أن الأحلام السوداء التي رآها في هذيانه لازالت تؤرقه . ويبدأ اليأس يدب الى نفسه ويحدثها قائلا « لقد نفذت ما أردت فالى الجحيم بكل ما عدا ذلك ان أربعين سنة من الكرامة خير من مائة سنة من الذل » . وحين تخف الأقدام يصعد اليه « أساتور » ويضع له الطعام ، ويخبره أن الليل قادم وأنه سيخبره في حينه ، ولكن من أسف أن الليلة مقمرة .

ويرتد محمد ثانية الى ذكرياته ، الى الأيام التي تعرف فيها الى أساتور ، لم يكن يظن يوما أن يوما سوف يأتي ويكون على ما هو عليه الآن ، أكل دونما شهية ولعبت بطنه ، وأحس أنه يريد أن يقضى حاجة ، وينزل السلالم ثم يعود بسرعة ، ويأتي اسماعيل هو الآخر

بعض الطعام ، ويعرض على محمد أن يهرب معه فان اثنين لن يثرا الشك فيشكره محمد ويربت على كتفه ، انه يود لو يترك المكان في التو واللحظة ، لقد تعب من الانتظار المر ، وتظهر القتران في المخزن فيلقى اليها بعض الطعام ، ويتسم ان في بوشهر فترانا تتحدى القطط وتحاربها ، ويفكر حينما يكون الانسان ميتا في القبر سوف تفعل القتران بلحمه هكذا ، وحينذاك لن يستطيع المقاومة • ويأني الليل ويصرف أساتور خادمه بعد اصرار من الخادم على أن يبيت في المنزل ويصعد الى محمد لقد جاء الليل اذن ، ويودع محمد أساتور بين دموع الأخير وينزل الى الزقاق •

أرأيت في هذين الفصلين كيف وازن الكاتب بين الأحداث الخارجية والصور الداخلية التي كانت تترى على ذهن محمد ؟ أرأيت كيف سيطر على العلاقة بين الخادم والسيد وكلاهما لا يدري أن الآخر يعلم بوجود محمد ، ويريد أن يخفي عليه الأمر ؟ أرأيت كيف استخدم صنعة الحلم استخداما يخدم سير الرواية ولا يسيء اليها ؟ فاذا بنا نعلم من أحلام محمد كثيرا من أحداث حياته الماضية التي أقت الضوء على كثير مما خفي علينا ؟



ميناء بوشهر ساكن صامت ، كأن كل من فيه موتى ، سكن الناس وهجعوا في بيوتهم بعد أحداث هذا اليوم الحافل • محمد يسير وحده في الشارع ، المكان غاص بالجنود ، فيحاول ألا يمر من أمام القنصلية البريطانية ، ويلمح جنديا يريد أن يحشو بندقيته ، من أين أتوا بهؤلاء الجنود الأحداث ؟ ويشتبك في عراك صامت معه ويكيل له الضربات ثم يأخذ بندقيته ويمضى « سلاحين يمكن أن يكون رجلين » ويمضى في طريقه الى البحر ويتبعه جنديان ، انه لا يريد أن يشتبك معهما ، ان أحدهما يأمر أن يلقي بسلاحه ، ولكن

هل يلقي الرجل بسلاحه ؟ ويطلق عليه الجندي الرصاص ولكن بعد أن يكون قد ألقى بنفسه في الماء •

ويعود بنا الكاتب الى قرية محمد ، حيث جلس القرويون حول كوخ محمد في ضوء القمر • كان الجندي التنجستاني يغالب النوم ، بينما كان الجندي الآخر خائفا بدأ يحس بالغربة أمام العيون الغاضبة التي تحيط به ، ان الجندي التنجستاني يحاول أن يقنعه بالانسحاب من هذه العسيلة ، وليس عليه أن يخشى المأمور • فلاشك أن المأمور نائم الآن بعد أن سكر كعاداته ، على الجندي الآذرى أن يخاف من أهل تنجستان خاصة في الليل ، فان الله وحده يعلم ماذا يدبرون الآن ، ولا يقر للجندي الآذرى قرار •

ولنعد الى محمد • ألقى محمد بنفسه في الماء ، وها هو يغالب الأمواج يتخلص من البندقية التي سلبها والتي تقيد حريته ، ويسبح وسط الماء فهو قرب الساحل الضحل الذي لا يصلح للسباحة ، انه يسخط على القمر الذي جعله يضع رأسه تحت الماء لا يرفعها ، وهو خائف من قوارب الصيادين التي ربما تأتي لصيد السمك ، وخائف من وحوش البحر التي ربما تشتبك معه ، ولا تلبث أن تشتبك معه احداها بالفعل فيترك خنجره في أحدها ويمضى يغالب الأمواج وتخور قواه ، ويفقد الأمل في نجاته ، الا أن موجة قوية تأتي اليه فتحمله ويجد نفسه قريبا من الشاطئ فيدب فيه الأمل ويبدأ في السباحة •

كانت شهرو تجلس صامئة أمام الكوخ ، نام الأطفال وظلت ساهرة تنقل نظراتها بين أهل القرية وجنود الحكومة ، انها تتمنى ألا يكون أحد من أهل قرينتها موجودا ، انها تعلم أنهم جاءوا لمساعدة محمد لكنها بدأت تقلق ، ، انها تذكر كل مزايا محمد وكأنها تقدم التماسا الى الله أن ينجيه ، ثم لا يلبث أن يصل ستة من الجنود على

رأسهم المأمور نفسه ، انه ساخط يسب ويشتم وفوق ذلك فهو ثمل ، يتعرض لعرض شهرو فتخمش وجهه وتضربه ، ويعلو صوته من داخل الكوخ فيتجمع أهل القرية ، وينظر الجنود الى بعضهم بعضا برعب ، ويأتى العمدة فيناقش المأمور ، من المستحيل أن يأتى محمد الى القرية بعد ما فعل ، ثم يظهر محمد خلفهم جميعا ، ويهددهم جميعا فيلقون بأسلحتهم ، ولا يخضع المأمور للتهديد ، ويلقى الجنود التنجستانيون بأسلحتهم ، ويتقدم شاب من أهل القرية فيجمعها ويلقيها تحت أقدام محمد ، ويعمى على المأمور ، وتخرج شهرو من الكوخ تحمل أطفالها ، ويمضى محمد وأسرته نحو البحر ، والجنود يتبعونه بأبصارهم ، وأهل القرية خلفهم ، وتركب الأسرة القارب ، والقرية كلها تلوح خلفهم داعية « يحفظهم الله » •



وتنتهى الرواية • رواية محمد الذى كان مظلوما فى أول الرواية ثائرا فى وسطها - بطلا لا يشق له غبار فى نهايتها ، ان محمدا الذى حارب الظلم وحارب الطغاة وحارب جنود الحكومة ثم وحوش البحر وخرج من كل هذه الحروب سالما معافى ليذكر بأبطال الشاهنامة ، بذكرنا برستم وأسفنديار ، لقد أخذ چوبك الحادثة ، وحاول أن يكتب عملا مليئا بالرموز • يمجّد البطولة بينما لم يقص مواطنه الكاتب رسول برويزى القصة فى أكثر من خمس عشرة صفحة لم يلبس محمدا فيها أيا من هذه الرموز ، لقد أراد چوبك أن يقول ، ان محمدا كان بطلا شعبيا وكان مناضلا ، ولم يكن مجرما ونجح فى ذلك بالفعل •

لقد كتب الكاتب تحت عنوان الرواية « رواية فارسية » فهل نحن أمام رواية فارسية بالفعل ؟ الواقع أننا لا نلتقى خلال الرواية الا بكل ما هو ايراني لغة وشخصا وأحداثا بحيث تصدق صفة الكاتب التى أحبها لروايته بالفعل ، •

ولم يبق ما يقال الا أن المؤلف استفاد كثيرا من مدارس الرواية المعاصرة ، وصوره واضحة بكل أبعادها ، والرواية من أصلح الروايات للاخراج السينمائي وكنت حين قرأتها منذ عشر سنوات تمنيت أن تخرج للسينما ، فلما شاهدتها فيلما إيرانيا أسفت للرواية التي جردت من رموزها وشوهدت معالمها ولم نعد تخرج عن أفلام المغامرات العادية التي ما انفكت السينما سواء في مصر أو إيران تدور حولها •

٥ - زوج السيدة آهو

على محمد افغانى

ظهر افغانى الى الوجود الادبى الايرانى بروايته الضخمة « زوج السيدة آهو » التى ابارت ضجة أدبية فى ايران والعالم ، وبالرغم من ذلك ليس بين ادبنا ما يعين فى التعرف الى حياة الكاتب الأدبية او الفعلية ، وفى احدى زيارتى الى ايران حاولت لقاء افغانى ، الا اننى فوجئت بأنه لا يلتقى بأحد ، وأنه يقوم بأعمال تجارية لا صلة لها بالأدب ، ومن أسف ان كل من كسبوا عن الرواية لم يكتبوا سبباً عن الكاتب .

صدرت للكاتب روايتان بعدها : السعداء فى وادى قره سو ، واللفت فاكهة الجنة ، وهما دون مستوى « زوج السيد آهو » بمراحل .

هذا العمل الأدبى الذى أقدمه عرف أول ما عرف من خلال البلاغات الأدبية والنقدية المتتالية - اذا جاز هذا التعبير - وليس من خلال نصه الأدبى ، والواقع أن النقاد فى البداية صمتوا عن الرواية تساماً ، حتى اذا حركتهم الجماهير التى كانت فى حاجة الى نص أدبى

يحرك مشاعرها بعد فترة من القحط والجذب ، طلق انفاد بحماس شديد يتناولون جوانب الرواية بالمدح والاشادة ♦

والواقع أن حماس النقاد كان صادرا من اعجاب لا تشوبه شائبة بالرواية وبالرواية فحسب ، فلم يكن كاتبها من أصحاب الأسماء الالامعة في عالم الأدب والصحافة ، بل لم يكن له اسم على الاطلاق ، ولم يكن من أصحاب المناصب الذين يتقرب الناس اليهم مهما كان الغناء الذي يكتبونه ، لم يكن الدارسون والنقاد يعرفون شيئا عنه ، وهل هذا هو أول عمل أدبي له ، أم أنه نشر شيئا قبل ذلك بالفعل ، والواقع أن الكاتب الذي ولد بهذا الحجم « رواية في حوالى ٩٠٠ صفحة لأول مرة في تاريخ الرواية الفارسية ولعلها آخر مرة أيضا » جدير بأن يثير كل هذه الأسئلة ♦

والنقد الذى يصل الى حد المبالغة والحماس الذى يصل الى حد الاحالة قد يضران بالكاتب ، اذ يقبل القارئ على الرواية وقد وقر في نفسه أنه بسبيل عمل كامل أو قريب من الكمال ، ومن ثم تباينت الآراء بين الصف الأول من النقاد ، والصف الثانى الذى أقبل على الرواية مفتوح العين والذهن لا يغادر كبيرة ولا صغيرة الا احصاها ♦

ففرق صعد بالكاتب والرواية الى السماء السابعة ، فهو في رأى نجف دريابندى : « كاتب حاد النظرة لا يدرك أدق أحاسيس البشر فحسب ، بل ويدرك أحاسيس الحيوانات أيضا ، الى جوار أنه لا يقسم الناس كمادة الكتاب الرومانسين الى خير وشرير ، وانما يبقى الانسان انسانا مهما ارتكب من جرائم » وهو في رأى آخر « ملأ فراغا في الرواية الفارسية كان موجودا بالرغم من ظهور رواية عيناها لبزرج علوى (لم أعثر على الرواية المذكورة أخيرا لأسباب لا داعى لذكرها) ♦ ويواصل سيروس برهام : ان الرواية تعد دائرة معارف اجتماعية

واسعة للعادات الاجتماعية والمجتمع الإيراني • انها ليست رواية مدينة أو رواية أسرة ولكنها رواية حياة ، والمشاكل التي تواجه أبطالها ليست مشاكل فردية ، والأبطال عاديون جدا لا يبدو عليهم أثر الصنعة قد تقابلهم في الشارع وقد تتعرف اليهم في جيرانك ، والى جوار ذلك فالرواية نموذج واقعي وتحليل عظيم لقدر المرأة في إيران . كل ذلك عبر عنه الكاتب بقوة ناشئة عن التأمل الشخصي والتجربة ، وذلك بلغة عظيمة وبأسلوب كلاسيكي قديم يذكر القارئ بروايات بلزاك وستندال وديكنز وتولستوى • أما الدكتور محمد على اسلامي ندوشن فقد ركز اهتمامه على لغة الكاتب : « ان الرواية هي أعظم الروايات التي كتبت في اللغة الفارسية ، فمن أول صفحة في الرواية الى آخر صفحة فيها نلتقى بالمصطلحات الشعبية ، ويصف الأحداث في لغة جميلة لا ينفد جمالها ، وذلك فيما يبدو لأن الكاتب أعد نفسه بذخيرة جيدة من المصطلحات قبل أن يبدأ رحلة الرواية الطويلة ، أجل اننا اذا استثنينا هدايت العظيم فلن نجد مثيلا لأفغانى في استخدام العامية في اثراء الفصحى بتعابير جديدة جميلة وجذابة في نفس الوقت الى اللغة الفارسية ، وفوق ذلك فنظرة الكاتب مثل نظرة العقاب ، وليست الرواية هامة من الناحية الأدبية فحسب ، ولكنها هامة أيضا من الناحيتين التاريخية والاجتماعية ، انها تشعرنا أنه لا ينبغي علينا أن نفقد الأمل في إيران ، أجل ففي لحظة غير متوقعة ستحدث أشياء مثيرة للدهشة •

ولم تلبث الرواية أن اختيرت ككتاب سنة ١٣٤٠ هـ • ش • (١٩٦٠ م) من قبل جمعية الكتاب في إيران ، ثم تعدت شهرة الرواية الحدود فاعتبرها بيتر آفرى أستاذ الأدب الفارسي في جامعة كمبردج نداء أدبيا جديدا موجها من إيران الى العالم ، واعتبرها كميسروف عضو الأكاديمية السوفيتية إحدى روايات ثلاث تعبر عن إيران المعاصرة خير تعبير •

علمنا اذن أن الرواية على اتساعها وطول نفسها تعد الانتاج الأول لشاب لم ينشر له قبلها حرف واحد ، وبالتالي فسوف تصادفنا في الرواية بعض الهنات التي لن تقلل من شأنها ، وأهم هذه الهنات بلاشك أن الكاتب كان ينسى في بعض الأحيان أنه يتحدث على لسان أبطال حظهم ضئيل من الثقافة أو معدوم ، فكان يجري على ألسنتهم محاضرات عميقة في الأدب والفلسفة ومدارس الفكر الشرقي والفكر الغربي مما قلل الى حد كبير من عمق النزعة الواقعية في الرواية كما لاحظ الأستاذ حسان كمشاد في كتابه « النثر الفني في الأدب الفارسي المعاصر » ، ومع ذلك احتفظ الأستاذ كمشاد للمؤلف بدور المؤرخ الاجتماعي العظيم لفترة تعد من أعقد فترات التاريخ الإيراني المعاصر ، وهي فترة ما بين الحريين ، وذلك بأستاذية وفن ودون الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها أصحاب المدرسة القديمة في الرواية الفارسية المعاصرة •

يبقى بعد ذلك انطباع القارئ العادي بالرواية – ولأدخل في زمرة هؤلاء القراء العاديين – فنحن أمام عظيم بلاشك ، عظيم في تناوله للأحداث اليومية العادية التي قد تقع للأنسان العادي فلا يحس بها ولا تستوقفه ، وعظيم في أخذه بناصية الأحداث وعدم انقراط خيطها من يده واحتفاظه بالتشويق الواجب للرواية من بدايتها الى نهايتها ، هذا اذا استثنينا الصفحات الأولى التي تعد تمهيدا للرواية وان كان تمهيدا يخدم الحدث ولا يخل به • وهو عمل عظيم في لغته وفي تعبيراته التي لا يمسك بأطرافها الا من تعمق باللغة الفارسية العامية ، تلك العظمة التي اتبه اليها المرحوم محمد معين فجعل الرواية أحد مصادر قاموسه العظيم الذي وضعه للغة الفارسية ، وعظيم أيضا في اضافة أحاسيس فياضة من شعور الكاتب على الأحداث العادية ، وعظيم في استغلاله للأحداث التاريخية في خدمة الرواية ، وعظيم من ناحية اللمسات الانسانية التي تصادف من القارئ الوجدان

والشعور ، ومن ناحية التحليلات النفسية التي تصادف من القارىء العقل والتفكير ، وسوف يحس كل من عاش في منزل يحتوى على زوجتين لرجل واحد أن الكاتب قد اقترب من تقاطد دقيقة قد يففل عن ادراكها من عاش هذه الحياة - أما عن عيوب الرواية فسوف أتعرض لها خلال عرضى للرواية •

نحن في مدينة كرمانشاه في ظهر يوم من أيام شتاء ١٣١٣ هـ ش •
(١٩٣٨ م) ، الشمس تجاهد لازالة ثلوج الليلة الماضية والمدينة تحيا يوما عاديا من أيام الشتاء ، المهنة ينصرفون الى أعمالهم والتلاميذ الى مدارسهم • ويقف بنا الكاتب أمام دكان خباز ، وبعد أن يصف الدكان وجو الدكان نلتقى ببطل روايتنا « سيد ميران » نتعرف الى سيد ميران من خلال حديثه مع بعض زملائه في المهنة ومن خلال هذا الحديث نعرف الكثير عن سيد ميران ، نعرف أنه نقيب الخبازين ، وأنه كان من المقرر عقد اجتماع للنقابة الا أنه أرجىء لما بعد العيد لأن شهر رمضان ليس من الأوقات المناسبة لهذا الاجتماع بالرغم من أن هذا الاجتماع على جانب كبير من الأهمية فالنقابة أمام قرارات اتخذتها الحكومة لا عهد لهم بها من تقسيم لحصص الحبوب وتحديد الأسعار وما الى ذلك • وينصرف الزميل نلتقى بشخصية أخرى من شخصيات الرواية ولماذا لا نقول انها أهم الشخصيات جميعا ؟

اننا لم نعرف شيئا عن هذه الشخصية حتى الآن ، الا أنها امرأة تلتف بعباءة بيضاء ، ولم نعرف منها الا أطراف أصابعها التي مدتها لأخذ الخبز من سيد ميران ، وان كنا نشك كثيرا أنها قدمت لشراء الخبز فقط ، ان بعض التصرفات الصغيرة تجعلنا نرفع حاجبينا دهشة مثل سيد ميران بالرغم من أنه سيد « لقب يعطى في ايران لمن ينتسبون الى آل البيت النبوى الكريم » ورغم أنه صائم ورغم أن

أخلاقه بشهادة كل من يتعاملون معه لا تشوبها شائبة ، وتنصرف المرأة ، ولتحدث عنها من الآن بالاسم الذى سنعرفه فيما بعد « هما » ويفرغ سيد ميران أو مشهدى سرايى لاجترار أفكاره عن المرأة عموما وعن لابساة العباءة البيضاء خصوصا ، وندرك من خلال تتبعنا لأفكاره بأنه لم يكتف بحفظ الأجزاء الظاهرة من زينتها فحسب ، بل يتخيل فيما بينه وبين نفسه ما فى المرأة من جمال خفى لم يره ولم نره نحن .

وتأتى نفس المرأة فى اليوم التالى الى دكان سيد ميران وهى تحمل طفلا ، ولأمر ما ينطلق الطفل بالبكاء والعيول ، عويلا يخرج حنان سيد ميران من عقله ، فاذا به يداعب الطفل ويرسل فى طلب الحلوى له ويسألها عن الطفل . ويتصل جبل الحديث ، حديث نعلم منه الكثير عن « هما » ، فاذا بها منفصلة عن زوجها ، قد حرماها من رؤية أطفالها ويا لها من أيام قاسية تعيشها . وتحدثه عن حياتها الماضية مع ذلك الزوج القاسى ولم تترك صفة من الصفات السيئة الا وألصقتها به ، وخلال حديثها لا تنسى بين الآن والآخر أن تصلح من وضع عباءتها لتكشف من جواب جمالها وأن تدلل الطفل بلهجة فى غاية الرقة تحرك كوامن الرجل ، ثم تتحدث عن الزوج القاسى الذى أجهضها فى شهرها الرابع وعن أفكاره بشأن المرأة ، ورغم أنها لا تختلف عن أفكار سيد ميران نفسه الا أنه يتعاطف مع المرأة . وتشير الى جمالها الذى لم يسبب لها حسن الحظ وسيد ميران يعزف معها على نفس الوتر ، ويقترح عليها أن تبحث عن زوج جديد ، وهى تنكر وتنكر ، وسيد ميران مشئت الذهن لا يعرف ان كان قد أخذ من المشتري الأخير ثمن الخبز أم لم يأخذه وتنصرف « هما » . مثل هذا الحديث بين امرأة محجبة ورجل داخل دكان يبدو مستغربا الا أننا حين تقدم فى الرواية لا نتعجب من أى سلوك منها .

فاذا انصرف سيد ميران من عمله وانصرفنا معه الى المنزل تعرفنا معه الى أسرته حيث يقدمها لنا الكاتب في جلسة عادية لا زيف فيها : آهو زوجته وكلارا « ومعناها بالكردية عين » كبرى أخواتها ، ثم « بهرام » في التاسعة من عمره ويزن في السادسة ومهدى وهو في السنتين من عمره أو يقل عن ذلك ، نجد أنفسنا في الجو العائلي لأسرة سيد ميران ، الزوجة آهو تمنع أصغر الأولاد من مشاكسة أبيه أثناء الصلاة وبحنانها المعهود فالطفل هو قرة عين الأسرة خاصة وقد أصيب بمرض لم يشف منه الا بعد يأس ، وينتهي سيد ميران من صلاته ، ويتحدث مع زوجته حديثا عاديا ، انه يريد أن يخرج لكنها تخبره أنهم في انتظار ضيوف ، ومع ذلك تحس آهو أن شيئا ما غير معهود في سلوك زوجها • فهو لا يهش للصغير كما دته ، لكنها لا تنكر شيئا وتلمس له عذرا من متاعبه في العمل ، وتقوم فتعد الطعام ، وتجتمع الأسرة حول الطعام في تلك الساعة التي لا تعدلها ساعة في هنائها •

نعم : ان توفيق الرجل في عمله ، وحسن تدير المرأة داخل منزلها أقاما تناسبا عظيما في المنزل ، كما كان الرجل دقيقا في عمله ودودا سخيا عطوفا ، كانت المرأة داخل المنزل تفيض على جيرانها الفقراء ببعض ما أنعم الله عليهم به • وكما تتعرف الى الأسرة تتعرف الى هؤلاء الجيران الفقراء الذين يستأجرون بعض حجرات منزل سيد ميران الواسع ، تتعرف الى المرأة « نقره » وزوجها « كل محمد » العاقل ومع ذلك يغيب عن المنزل لمدة شهور تاركا زوجته دون مئونة ، وتتعرف الى « ننه بى بى » وابنتها « رعنا » اللتين تقيمان في المنزل وتساعدان آهو في بعض شئونها •

في هذا الفصل تتعرف الى بعض جوانب حياة « سيد ميران » مثل زيارته لمشهد ، وبعض مشاريعه القادمة بشأن شءاء حديقة وبناء

طابق آخر في المنزل ونغوص في ذهن سيد ميران وهو ينظر الى أسرته راضيا ومتذكرا ماضيه : من كان يظن أنه حين لقائه بتلك المرأة آهو أن الزمن يخبىء له كل هذه السعادة ؟ في تلك الأيام كان يعمل في حدائق كرمانشاه المسماة « سراب » بستانيا في الصيف وعاملا في الطواحين شتاء ، ولم يكن يرى عارا في بيع الفواكه في الطرق ، كان في الخامسة والثلاثين وقد بدأ الشيب يدب في رأسه من تجارب الحياة المرة ، وكانت هي الأخرى يتيمة تعيش مع خالتها وزوج خالتها حياة قاسية ، نعم رحبت بالزواج به وهي التي وجهته الى العمل خبازا ، وهي التي فتحت معه الدكان ، كان رأس المال « طستا وصاجا » استعارتهما من خالتها ، كانت تقوم على أمر الدكان بينما كان هو يسعى في جلب الحبوب ، كلاهما كان ينام في الدكان « لم تكن النقود التي يكتسبها نقودا ، لكنها كانت عصارة روح هذين الزوجين خاصة آهو » أجل : لو لم تكن آهو لكنت حياتهما الآن مثل حياة جيرانهم : نقره وزوجها أو خورشيد وزوجها الذي لا يعمل الا فيما ندر ، ويعتمد في عيشه على حماته العجوز التي تغزل الصوف هذه الأسرة وابنهم « محمد حسين المصاب بقراع لا شفاء منه » تكون صورة من الشقاء الى جوار صورة أسرة سيد ميران السعيدة ، لكن ألم يذق سيد ميران الشقاء ؟ أجل ذاق مرارة الشقاء ، الشركة في العمل والاستئجار في المنازل ، والنظرات المتعالية ممن هم أعلى منه ، واستطاع بعد ذلك أن يثبت مركز آهو بشراء منزل لها وأن يثبت وضعه في السوق بزيارة الامام في مشهد ، وأن يثبتا من مركزيهما معا بمشاركة الناس في حزنهم وفرحهم ، لم يبق الا أن آهو تريد أيضا زيارة مشهد وهذا أمر متيسر ، استطاعا أن يأخذا المكانة في المجتمع ، هو في الرجال وهي في النساء ، انها الآن سيدة بكل معاني الكلمة كأنها لم تحمل طستا ولم تنم في دكان ! انها حياة مثالية جديدة بالرضا ، لا مجال فيها للتطلع .

وتتعرف أيضا الى بعض أصدقاء الأسرة وأهمهم ميرزاني
القطايطى وزوجته هاجر ، هما في زيارة الى منزل سيد ميران ، هاجر
تداعب آهو حول ما كوته من ثروة من خلف ظهر سيد ميران وترد
آهو « بأن الكافر يظن الناس كلهم على دينه » فميرزا نبى يعمل
بالتهريب والاحتكار وزوجته تساعده في ذلك ، وينتقل سيد ميران
الى الحديث عن مشاهداته في مشهد ، وتعترف أيضا الى « كربلائي
عباس » وزوجته « ناز برى » من أصدقاء الأسرة الذين يقيمون
في نفس المنزل . وينتهى هذان الفصلان دون أن يقدم لنا جديدا
من الأحداث .

هذان الفصلان يقدمان لنا البيئة التي ستجرى فيها أحداث
الرواية وشخصيات الرواية ، سأتها الخلقية والجسدية ، وهذا يدل
على أن الكاتب لم يخلص من هذه العادة وهى عادة تقديم الرواية
تقدما مسرحيا ، انه لم يقدم لنا الشخصيات من خلال الأحداث
كما فعل چوبك ، بل اعتمد على السرد ، وكثيرا ما كان يلتقط الخيط
ويتدخل بشخصه معلقا أو مفسرا مما جعل بعض النقاد يظن أنه أجرى
على لسان الأبطال ما لا يتناسب معهم وانما كنا سنصادف هذه
النقيصة كثيرا فيما بعد . نحن الآن مستعدون لدخل في الرواية وتابع
أحداثها ، حياة سيد ميران الهادئة التي وصلت الى بر الأمان ، تتعرض
قرب الشاطئ الى عاصفة تلقى بها في أعماق اليم ، ولم تكن هذه
العاصفة الا : « هما » .



لم يكن حديث سيد ميران الطويل مع هما في الدكان بلا نتيجة
اننا نلمح من حديثه العادى ومن تصرفاته الصغيرة أن شيئا ما لا يزال
لا يدره قد دخل حياته وفي ذلك المساء بينما كان سيد ميران عائدا
من منزل صديقه لمحها ، أجل رغم مشاكله ميز تلك المشية ، وبدخل

بنا الكاتب في حديث عن تعدد الزوجات فلا يجد مبررا الا أن الرسول الكريم كان يميل الى النساء ومن ثم فهذه أيضا خصلة في نسله ، ولن تتعجب من هذا الموقف من الكاتب اذا صادفنا فيما بعد موافق أشد سخفا واحالة . ان سيد ميران المسكين لا يفكر في « هما » كامرأة جميلة ، لكنه يفكر في شقاؤها وتعاستها ، وهو يتبعها حتى يعرف منزلها ، ثم يتحدث اليها وترى أنه بالفعل شقى لشقاؤها ، انها حقيقة مطلقة لكنها تعيش في منزل مشبوه ، وهي تفكر في الانتحار لأنها لا تستطيع أن ترى أطفالها ، ان هناك من يدفعها الى امتحان الرقص بالرغم منها ، كل هذا الحوار يدور في الطريق ، يعدها سيد ميران أنه سوف يعود اليها في اليوم التالي ، انه سوف يستخرجها من هذه البؤرة وهو جدير حقا بذلك الدور ، دور المنقذ ، لكن ماذا ستفعل ان خرجت من المنزل ؟ ستبقى أيضا مشكلتها بلا حل ، لكن هذه المشكلة في رأى سيد ميران ليست جديرة بالمناقشة ، ان الطريق الى زوجها لم يخلق بعد ، ولا تجد « هما » ازاء كل هذه الشهامة الا أن تقارن بين هذا الملاك الكريم سيد ميران وزوجها السابق حاجي بنا ، ولا يجد سيد ميران الا التفكير في هذا الوجه الطفولي المعذب الذى ستره واياه رداء الليل ، وتحدثه عن الرجل الذى هو بصدد التباحث معه من أجلها ، وتحذره منه ، انه سينفق كثيرا في سبيل اتمام هذا الأمر ، ولكن : أليس تحرير امرأة من ذل رق يساوى تفقات الذهاب الى مشهد ؟ ان الفن الذى ستقوم به لا ينظر اليه بعين الرضا في ايران ، ويتجرأ الكاتب فيسوق على سيد ميران رأيه في الفنون عامة ، ويتجرأ أكثر فيسند رأى سيد ميران هذا الى الاسلام ، ولا ندرى من أى كتاب أو سنة اشتقه أو من أى مجتهد سمعه ؟ « وهما » تدق على الوتر الحساس ، ان حسين خان الطبال - وهو اسم الرجل الذى يدفعها الى امتحان الرقص يدفعها الى ما هو أشد وأنكى : الأفيون والشراب ، انه يضمن بها على أن ينظر

اليها أحد ، وتنسى هما حذرهما ، ان والديها اشتريها من العجر وهى تحب الرقص طوال عمرها ، الا أنها تتوق الى الحياة الطاهرة الكريمة . ان « هما » تلقى الطعم لسمكة عمياء سرعان ما تبتلعه ، ان هذا الملاك الحارس سيد ميران يثور ثورة مضرية : هل يظن حسين خان هذا أن المملكة بلا صاحب ؟ أو أنها بلا قانون ؟ سوف تسمع جوابه الواضح فى الغد ، وتنتهى هذه المناقشة التى جرت فى الطريق فى مدينة كرمانشاه الصغيرة ومع ذلك استغرقت من الكاتب أكثر من عشر صفحات ، انها تترك سيد ميران ناضجا تماما وجاهزا للأكل ، انه يفكر : عجيبة هذه الدنيا ! لماذا يكون جمال المرأة سببا فى شقاؤها ؟ انها مثل الدابة التى ترعى المرعى تنتج أحلى اللبن ، كم سيكون الزوج الثانى لهذه المرأة سعيدا ، انه لا يحس بأى تردد فى أن يزوج نفسه فى أوساط الطباليين والراقصات فى سبيل هذه المهمة المقدسة ، انه يشعر بشعور الشهداء والقديسين ، مسيح على الصليب ، انه جالس فى فراشه يدخن السيجارة تلو السيجارة ، وفى اليوم التالى يكون فى منزل حسين الطبال .

يقابله حسين خان وهو يشك فى أمره ، كيف يكون موفدا من قبل زوجها وهى طالق ثلاثا ، وتأتى « هما » وهى تدعى الخجل ، كيف ذلك ؟ ما دام قد طلقها فلماذا يريد لها ، انها تريد أولادها وبعدها يأتى ويتفاهم مع حسين خان ، لم يكن حسين خان موجودا ، وبذهب سيد ميران اليه فى دكانه ، انه الرجل الذى يملك زمام أمور « هما » ، كيف ؟ لا ندرى ، انه أبرع وأكثر خبثا مما كان يظن سيد ميران ان « هما » فى رأيه لم تخلق لرجل واحد ، ليس من الخير أن يذوى هذا الجمال بين جذران أربعة ، ويتحدث حسين خان الطبال عن الفن حديثا شاعريا مليئا بالأمثلة من الأدب العالمى ولكن « ما علينا » ، انه يلح لسيد ميران أن سيد لا يسعى الا من أجل نفسه ، وهى ليست لائقة به ، انها لائقة فقط بعشيقها « البرز » الذى

لا يدري أحد من أى مكان أتى ، وسيد ميران ينكر على حسين خان الفهم الذى يرمى اليه ، مهما كانت « هما » بالنسبة له فهى ليست أهم من سعادة منزله وأطفاله ، عليه اذن أن يدبر الأمر مع حاجى بنا زوج « هما » السابق وبعدها يستطيع أن يأتى الى حسين خان .

فى الموعد التالى يذهب سيد ميران الى منزل حسين خان ، كان الأخير يدرب تلاميذه ، ويجلس سيد ميران فى انتظاره ، تنساب الألحان الى أذنيه فتحمله الى عوالم أخرى ، لقد أعد للأمر عدته ، حمل من النقود ما يكفى دفع النفقات التى أنفقها حسين خان على « هما » ، كما حمل لها صندوقا من الملابس ، كانت « هما » هى التى تتدرب على الرقص بحركات خلعت قلب الرجل خلعا ، هل قال لها حسين خان انه قادم ؟ وألا يعتبر ما تفعل نقضا للعهد ؟ انه يشاهد الرقص ويفرق فى أفكار عتيقة ، لا ندري للكاتب أم لسيد ميران ، وفى النهاية يعتبر خروج « هما » من هذا المنزل خسارة ما بعدها خسارة . ان الرقص فى وجود « هما » قدر لا مفر منه ، لقد كان الرجل صادقا فى الصباح .

ولكن : هكذا قال سيد ميران بلسانه ، وربما كان تحت وطأة الحالة الشعورية التى كان عليها فى منزل حسين خان . أما الأيام التالية فانتا نشهد تطورا فى شعور سيد ميران الداخلى ، لقد تركها حقا لكنه ينتظرها فى دكانه كل يوم ولا تأتى ، ما هذا ؟ هل هى تتلاعب به ؟ أم أن أحدا غير رأبها ، مر أسبوع على زيارته الأخيرة لمنزل حسين خان تلك الزيارة التى خرج منها بلا نتيجة ثم ما ان رأى حسين خان فى الطريق ذاهبا الى الطبيب حتى أسرع الى المنزل للقاء « هما » ، ولقيته بوجه متجهم ، لماذا غضب من رقصها فى ذلك اليوم لقد كانت ترقص لتودع الرقص ، ان حسين خان لم يمرض الا لأنها صممت على مغادرة المنزل ، وهكذا سرعان ما اتفقت مع

سيد ميران على أن يستضيفها في منزله مع زوجته وأولاده حتى يرى ما هو راء بشأنها ، عليه أن ينتظرها في منزله وتأتي على أنها مستجيبة به بعد طلاقها وسوف يلحق بها طفلاها ، لكن سيد ميران على طول ما انتظر لم تهل « هما » بطلعتها ، انه يحس في أعماق قلبه بالشوق اليها والقلق من أجلها ، ويحس بجرح عميق على أنها قابلت سلوكه هذا بالجحود من جانبها ، ماذا بها ؟ أهى مريضة ؟ بالتأكيد لا ، لابد أن شيئا ما قد حدث ، لقد كانت مصممة تماما على الخروج من ذلك المنزل ، لابد أن يذهب متخفيا ليرى ماذا في الأمر ، ليس من الخير أن يراه أحد يتردد على هذا المكان ، ثم يتردد ، ثم يطلب من نفسه الصبر ، أجل الصبر ، الى أين سيذهب ؟ والى أين ستصير أموره ؟ تمنى من صميم قلبه ألا يكون قد قابل المرأة وألا يكون قد تعرف عليها ، في الأيام الأولى كان قد أنفق عليها الكثير ، لكن لا يهم « افعل الخير وارميه في البحر » ، ويزداد الصراع حدة في نفس سيد ميران ، يحدث نفسه : أنت شيخ يا سيد ميران لو كنت قد تزوجت في سن مبكرة لكان أحفادك الآن يتحلقون حولك ، ولكن ألا يجعل العشق قلب العجوز شابا ، وضع الخفاء وصارح سيد ميران نفسه بحقيقة الأمر لأول مرة •

في الطريق يقابلها سيد ميران فيسرع اليها بلهفة ظاهرة ، ولكنها ليست وحيدة ، انها مع زوجة حسين خان ، كلتاهما لا تجد ثمن دواء المريض ويسرع سيد ميران فيشتري الدواء ، ويلحق بـ « هما » وتفهم زوجة حسين خان الأمر فتوصى « هما » بالتعجيل بالذهاب ، ان مثل هذه الفرصة لا تلوح في العمر مرتين ، ان سيد ميران ينتظر « هما » ويفرق ثانية في أفكاره وتردده : آكانت تعيش وحيدة حقا في الدار ؟ • لا يهم ، ان الحب يظهرها له في أحسن تقويم ، فإذا جاءت « هما » وسألها عن سر غيابها ، أجابته : كيف تذهب معه الى منزله ، وماذا يقول الناس في هذا الوضع غير الطبيعي ؟ ويحاول

سيد ميران أن يهون عليها الأمر ، ولكن « هما » خائفة ومشفقة ، وسيد ميران مندفع ومندفع حتى تأتى سيرة الزواج على لسانه عفوا ، وتلتقط « هما » الخيط ، ماذا تفعل لو أن زوجته لم ترض بوجودها ؟ لا ، انها كالحمل الوديع « وهما » تعلم ذلك الجانب الذى علمناه نحن جميعا فى سيد ميران : عدم تقديره للأمور وطيبته الزائدة عن الحد ، انها تضرب على النعمة الأخرى ، من الخير لها أن تموت ، ان زوجها الأول وقد أخذها من أهلها عاملها هذه المعاملة ، فكيف بزوجها الثانى الذى سوف ينتشلها من هذه البؤرة ؟ انها لا تستطيع أن تعتدى على أسرة سيد ميران وعلى زوجته وأطفالها والاسم الذى كونه فى سنين ، الا أنها بعد ذلك كله فى يده عليه أن يصنع بها ما يشاء ، ويحس سيد ميران بمرور الرجولة فيبتسم ، ويعرض عليها أن يعقد عليها عقد نكاح للمتعة « ويشير الكاتب نقاشا حول المتعة ذكر من خلاله كل آراء المحبذين وآراء المعارضين مما يضيق المجال عن ذكره » ويرفع سيد ميران رأسه بعد تفكير عميق متسائلا عن مصير زوجته وأطفاله ، لكن ما لها ولزوجته وأطفاله ، انها لم تتحدث عنه لا تلميحا ولا تصريحاً انها فى حاجة الى « ظل رجل » لكن دون أن يكون ذلك على أنقاض بيت آخر لكنها ستكون خادمة لزوجته وأطفاله .

ويقاوم سيد ميران ولكن أية مقاومة ؟ ان صوته يتهدج وكأنه غلام فى السادسة عشرة من عمره ، وتسوق « هما » الدلال وهو منوم ، فتضربه الضربة تلو الضربة وكأنه ملاكم وجد خصمه يخور أمامه ، كانت صيدا فى نظر سيد ميران لكنها كانت أمهر من الصياد . فى النهاية يطلب أن تنتظر يومين ، سوف يفكر فى حل آخر من أجلها ، لكن أى يومين ؟ لقد خرج سيد ميران وهو مصمم على أخذ « هما » الى منزله ، مهما تحمل فى سبيل ذلك ومهما قال الناس .

ثم نجد أنفسنا في منزل سيد ميران مع آهو وجيرانها ، حيث تنسكو نقره من ولدها وتكاسله في العمل فتنبى آهو وتلقنها درسا طويلا في كيفية تربية الأولاد لا تستطيع دكورة في التربية أن تلقيه « وآمنا بعده بالطبع أن الكاتب يفهم في التربية » وفي هذا الجو العادى جدا تبدو « هما » في الأفق ، يدخل بها سيد ميران وهو مطأطىء الرأس ويقدمها الى زوجته على أنها امرأة طلقت وطردت من منزلها فلجأت الى المسجد حيث عهد له الامام بها ، ان هناك حجرة خالية ينبغى أن تجهز لها على الفور ، ان آهو تشعر بالقلق ، أى مسجد وأى امام ؟ ترى هل رأى وجهها من خلف الحجاب ، أجل لابد أن يوضح زوجها الأمر وفي نفس الليلة ، وخين تسأل زوجها يتهرب من الجواب قائلا انه ليس من الذوق أن يسألها ، ثم حين تصر على السؤال مذكرا اياه بالجيران ، يخبرها ببساطة أنه سيسعى الى اصلاح ذات البين بينها وبين زوجها وهو ما لم يكن سيد ميران يفكر فيه بالمرة ، كما أنه لم يكن قد اتخذ قرارا قاطعا بشأن وجود « هما » في المنزل الا أنه سيمتتع نظره بهذا الجمال .

تستمر اقامة « هما » في منزل سيد ميران أسبوعين + أعصابه تزداد سوءا يوما بعد يوم ولا يدري من أين يبدأ ، كانت « هما » قد ثبتت وجودها في المنزل ، وكانت تتعامل مع الأسرة والجيران وكأنها تعرفهم منذ سنين ، وفي نفس الوقت بدأ سيد ميران يمازحها في المنزل وبدأت « هما » تسأله بوضوح وصراحة ، ماذا ينوى بشأنها بالتحديد ، ولكن ماذا كان ينوى بشأنها بعد أن نبت حبها في قلبه كالبذرة الحرام وأخذ يمتد بجذوره يوما بعد يوم ، انه يتساءل دائما بينه وبين نفسه : أية امرأة هذه المرأة ؟ كيف استطاعت أن تستحوذ على كيانه في هذه الفترة ؟ احساسان أخذا يتجاذبان سيد ميران وهو بينهما كالقشة : حبه لـ « هما » وخوفه على « آهو » والأولاد ومكاته في المجتمع ، ولكن تصرفات سيد ميران رغم الصراع الذى

كان يعاينه كانت ترجع كفة حبه لـ « هما » دائما انه يعود الى المنزل في فترات متقطعة من اليوم ويتعلل للبقاء فيه أكبر وقت ممكن ويفتح مناقشات طويلة تأخذ فيها « هما » صفه دائما أما « هما » فقد باتت ترى الثمرة ناضجة لقد حاول سيد ميران أن يقبلها ذات يوم ، لكن هل يكون مصيرها أن تتزوج على شريكة ، منذ صغرها وهي تسمع أن الشريكة كالجذام والسرطان انها لا تريد هذا النوع من الحياة ، لكن ماذا تفعل وقد سدت في وجوها أبواب العودة الى زوجها الى الأبد ، وحرمها أيضا من أطفالها ، لم يعد أمامها الا الاعتداء على حق المرأة المسكينة المضيفة آهو وتسرق منها زوجها ، وها هي تخرج صور أطفالها وتنظر اليها وتبكي ، وها هي آهو تسرع اليها مواسية حانية تربت عليها وتبشرها بالأزواج والعشاق يرمون تحت أقدامها ، وهنا فقط تتمنى « هما » لو أنها وجدت زوجا غير سيد ميران ، الا أنها لا تنسى أن تصلح من زينتها قبل أن تذهب الى مائدة الغداء .

وتمر الأيام ، لا يبدو على « هما » أنها تريد أن تغادر المنزل ، ولا خبر هناك عن أقاربها التي قالت انها أرسلت في طلبهم ، بل هي تتحدث عن قريتها الكردية حديث الساخر الذي لا يود أن يراها فضلا عن أن يعيش فيها ، أما آهو فكان شكها يزداد : ان هذا الوضع غير طبيعي ، لا يمكن لضيقتها أن تستمر على هذا المنوال الى الأبد ، لو فقط تقنع بالجلوس في حجرتها كأية ضيفة وطعامها يحصل اليها ، ان الحياة في الأسرة خرجت عن مجراها الطبيعي ، زوجها ينام في حجرة وحده وأطفالها معها و « هما » في حجرة ، ان الشك يزداد في قلبها ، مرة تجد خصلة من شعر غريب في حجرة زوجها ، ومرة يحدثها « ميران » الصغير بما لا يستطيع من هم في سنه أن يختلقوه ، الا أن المرأة لا تنفرد بسيد ميران أبدا ، انها تنادى طفلا للجلوس معها كلما كانت وحيدة ، آكانت تتهرب من زوجها كارهة

أو مذكية نار الهوى فيه ؟ كم أصبح الرجل كريما ومضيفا وبشوشا في تلك الأيام ، حتى الأطفال ينفقون النقود ذات اليمين وذات اليسار ، حتى مصروف المنزل تدخلت فيه « هما » ان آهو تفتاح زوجها ، لماذا لم يأت أقرباؤها ؟ ولا يملك سيد ميران الا أن يرد من بين دخان سيجارته : ربما كان هؤلاء الأقرباء خرافة ، وتفكر آهو : ان الأمر لا يهم سواها ، وعليها أن تكشف النقاب عنه •

تزور آهو منزل « هما » القديم ، أخطأته مرة ووجدته مرة ثانية ، هي أخت زوجها التي سوف تكشف النقاب عن الماضى القديم ، ان أخت زوجها تهاجمها بعنف ، أحقا انها تبكى من أجل أولادها ؟ لماذا لم تحافظ على شرفها وسمعتها اذن بعد أن غادرت منزلها ؟ بل لماذا هربت من زوجها في الأصل في سبيل شاب أشقر أزرق العينين ؟ ليس من الخير أن ترى أطفالها ، ماذا تستطيع أن تقول لهم ؟ لا بد لآهو أن تخبر زوجها • وتعود آهو وتفتاحه ، وتثير في نفسه الخوف ، انه لا يدرى ماذا تدبر له المرأة ، هو المتدين الطيب القلب ، ان المرأة تخرج كثيرا ولا يدرى أحد الى أين ، ولا يجيب سيد ميران الا بتقطيعة ، لقد سألتها مرة الى أين تذهب فأجابت أنها تبحث عن حجرة لأنها سئمت العيش في بيوت الغرباء ، حتى اذا اشتدت آهو في النكير لا يملك الا أن ينادى « هما » ويسألها فتنبى له آهو متحدثة بما توصلت اليه من معلومات ، انها تخاف أن ترتفع بطنها وهى في منزلهم ، ويصدم سيد ميران ، لم يكن يتوقع كل هذا من وقار زوجته ، وتأتى « هما » ، وأمام الزوجة أخذت في مطاردة الفريسة ، والرجل في حال غير الحال ، لم تكن « آهو » تظن أن الرجل متيم الى هذا الحد ، ثم تضرب الرجل الضربة القاضية ، انها مستعدة للعودة الى زوجها على الا تتدخل أخت الزوج في حياتها •

في اليوم اتالى حبسهم الثلوج عن الخروج ، وكان من الواضح

أن الحرب أعلنت في البيت ، ان آهو تستدرج « هما » في الحديث ، فلا تحصل منها على شيء وتحاول أن تحرك في سيد ميران البقية الباقية من نخوته وتخوفه من الجيران فلا يرد الا أن الجيران جهلة وأغبياء ، ومن صفاتهم كذا وكذا وكيت وكيت ، فاذا ذكرنه بأن له ابنة ، أفصح عن كل أغراضه دفعة واحدة ، انه أيضا ضائق بنظرات الناس على المقهى ، ولابد من وضع ما للمرأة في منزله : متعة ، مصيبة ، داهية ، أى شيء ، لابد من تصحيح الوضع ، ان شرفه فوق كل شيء • وترسل « آهو » تستدعى « هما » من غرفتها للغداء ، وضح الخفاء ، ما كنت تخشى منه قد حدث ولا داعي لانهما في حجرتهما •

ولكن أية ليلة نابغة باتتها الأسرة ؟ آهو في مرقدها كلمات سيد ميران تتضخم أمام عينيها ، وسيد ميران يغوص في أحلامه السيئة ، « وهما » في حجرتهما تحس في قلبها بردا وسلاما ، لقد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفها ، وفي الصباح تحاول آهو أن تصلح ما أفسدته وأن تطمئن سيد ميران وقد ظنت أن موقف الخوف فحسب هو الذي سوف يدفعه الى تصرف ما ، لكن سيد ميران مكفهر يرى أن امرأة حياتهما قد أصيبت بخدش ، وأن الكلمات التي تفوه بها بالأمس في سورة غضبه هي خير ما يعبر به عن حقيقة نفسه وهي الحقيقة بعينها ولا زيف فيها ، وها هو يفتح زوجته في الأمر ببساطة : ماذا ستخسر اذا جعل من « هما » زوجة متعة له ؟ انها سيدة المنزل بلا منازع ، وهل يمكن أن تشك في سيد ميران بعد كل هذا العمر ؟ أى عشق من الممكن أن يحس به ؟ لابد أن حياة المنزل الرتيبة قد أثرت في أعصابها سوف يأخذها بعد العيد « عيد الأضحى » الى خراسان لزيارة الامام في مشهد ، انها سوف تلاحظ الأطفال في غيبتهما ، فاذا اتهمته أن عشق المرأة قد أخذ منه عقله وأنها ليست ساذجة الى هذا الحد ، والا فلماذا اشترى لها كل

هذه الأشياء قبل مجيئها ، هاج سيد ميران وثار ، انها لم تعرف زوجها
بعد كل هذه السنوات •

وكان صباح ، وكانت ظهيرة ، عاد سيد ميران ، وأخذ « هما »
وخرج بينما كانت آهو في الحمام ، حتى اذا عادا من الخارج
انصرفت « هما » مسرعة الى حجرتهما ، وجلس سيد ميران أمام آهو
مطأطئ الرأس ، لم تسأله حتى عن مدة العقد المؤقت « عقد المتعة »
ثم دعت له بأن يوفقه الله في حياته الجديدة ، وألقت اليه بحزمة المفاتيح
ليختار ل « تحفته الجديدة » ما يشاء من حجرات المنزل ، قائلة :
قم واذهب الى تحفتك التي أعيتك بالتفكير كل هذه الفترة ، وها هي
الأسرة تتحلق حول غداء حزين ، سيد ميران و « هما » لا يرفعان
رأسيهما ، وآهو تقدح بالشرر ، وفي الليل انصرف سيد ميران الى
فراشه الجديد ، وتتعلق الجارات حول آهو يواسينها مستكرات ،
متعة ؟ لا ان سيد ميران لا يفعل ذلك ، واذا حملت في الغد ؟ ولكن
الشيء الذي لم تعرفه آهو حتى ظهر اليوم التالي ، أن زوجها لم
يعقد على « هما » عقد متعة ، بل عقد عليها عقدا شرعيا دائما
وأصبحت زوجة مثل آهو تماما ، مثل آهو ؟ لقد تمننت آهو فيما بعد
من صميم قلبها أن تكون عند زوجها عشر معشار « هما » •

« تأتي على الانسان بعض الأوقات لا يحب فيها أحدا ولا يريد
أن يحبه أحد ، يكون ضائقا من كل شيء ومن كل انسان ، يكون
ضائقا حتى من وجوده ، لا يميل الى العمل ولا يشتهي الطعام ويرغب
من كل قلبه في أن ينتحي جانبا ، ويركز بصره في نقطة ثابتة ، أو أن
يلقى بوجهه الدامع على وسادة ولا يفكر في شيء » وهكذا كانت
آهو ، لم يكن على شفقتها سوى كلمات الرغبة في الانتحار ، وكان
سيد ميران يعرف رقة زوجته ، كان يعرف أنها حية ولكنها ترى موتها

بعينها ، وأن الأمر ليس بسيطا أو سهلا بالنسبة لها ، ولكنه كان يتحين الفرص للحديث اليها وتهدة خاطرها ، في تلك الأيام كانت حياته تسر كما هي ، ينام في حجرته وتنام « هما » في حجرتهما وتنام « آهو » في حجرة ثالثة ، وها هو يدخل الحجرة ذات صباح على آهو ، يحدثها في أمور عادية عن المنزل والأولاد ، ويعطى الأولاد مصروفاتهم ببذخ ، حتى اذا خلت الحجرة الا منه ومن آهو ، شرعت في البكاء ، فاذا حاول أن يبرر فعلته بأنه اشترى امرأة مسكينة ، صفعته بأنه يكذب عليها ، ولا تلبث طبيعة سيد ميران أن تعود اليه ، هاج وثار : هل فعل خلاف ما يجيز الشرع ؟ وهل انطبقت السماء على الأرض ؟ ثم يتركها لبكائها ويمضى . الا أن سيد ميران مع ذلك لم يكن مستريحا الى « هما » ، لم تكن طعاما سائغا لا يخلو من المر ، هناك بالتأكيد من معارفه من يعرف ماضيها ، صبيه « عبدل » الذى حمل بعض هداياه الى منزل « حسين خان » ، وهو أيضا ضائع من الجارات اللائى تحلقن حول آهو يواسينها ويشتمن في منافستها التى قابلت الاحسان بالاساءة ، فاذا انصرفت الجارات ، أفاقت آهو قليلا من الصدمة أجل : انها شهوة وتنتهى ، ومن حسن الحظ أن مؤخر الصداق قليل ، عليها فقط أن تعمل حتى تقضى « هما » عن منزلها قبل أن تحمل من زوجها . لكن أى تحرك ، انها مهما تحركت لا تتحرك الا في محيطها ، وماذا يجدى ذلك ؟

انها تشكو لجارها العجوز « كربلائى عباس » فيستمع اليها ويواسيها ، ويوعدها بأنه سيعمل كل ما فى وسعه لاقناع سيد ميران أن هذا الأمر وبال عليه ، ثم لا يلبث أن يقول انه لا هو ولا سواء يملكون شيئا لسيد ميران ، انه قادر ، والشرع حلل له ذلك ما دام قادرا ، أى انسان من هؤلاء المستأجرين الفقراء يستطيع أن يرفع عينيه في وجه سيد ميران ؟ ان الجارات يقاطعن « هما » وماذا فى ذلك ؟ ولا تجد آهو بدا من الذهاب الى ميرزا نبى ، ويجمع الأخير

الأسرة في ضيافته ، الرجل والمرأتين ، ثم يتبادل الرجلان الحديث فلا نلمح أية بادرة تشير الى أن الرجل يريد أن ينهى الأمر وفق ما تريد آهو ، ان أقصى ما يريد أن يفعله هو أن يتعاون مع صديقه على حمل المرأة حبالا على قبول الأمر الواقع ، ليست هذه أول مرة تحدث وليست أيضا آخر مرة تحدث ، وها هي « هما » ترتطم على أقدام آهو ترجوها العفو والغفران وأن تقبلها خادمة لها ، ويعود الجميع من الضيافة ، وقد قبلت آهو الأمر الواقع مرغمة ، لأنها لا تجد بديلا ، الا أنها في قرارة نفسها مصممة على القتال في سبيل حقها الى آخر لحظة .

ان سيد ميران في تلك الأيام الأولى لا يرفض لآهو طلبا ، بل ويحط من قدر « هما » أمامها ، أجل : انها ليست الا خادمة أتى بها لكى ترفع الحمل قليلا من على كاهلها ، ويقسم بينهما الليالى ، الليالى الزوجية للسيدة الصغيرة ، والليالى الفردية للسيدة الكبيرة ، والليالى الباقية يكون الزوج حرا في اختيار احدى السيدتين . وتبدأ « هما » في التفانى في عملها في المنزل ، وتصلى ، وان كانت آهو تقسم أنها كانت تخطيء في الصلاة ، ثم يأتى مساء كانت « هما » نائمة فاذا بها تتحدث في النوم حديثا متقطعا يفهم منه أنها تحب آهو وأن الأطفال في مقام أولادها ، وتوقظها آهو فتقبلها وتحتضنها ، ويحتفل الجميع بهذه المناسبة السعيدة ، ويجلسون في أمسية هاتئة ، ونظن جميعا أنه قد آن لهذا المنزل أن يعيش في راحة وسرور ، ولكن أنى كان ذلك ؟

من التصرفات الصغيرة لـ « هما » لا يفارق آهو تفكيرها ، هناك لابد أشياء وراء هذه المرأة ولا بد أن تكشف عنها لزوجها بالتفصيل ، فاذا رفضت أن تذهب معها الى حمامها المعتاد ذهبت آهو وحدها ، وتحدث مع « الحمامية » فاذا بها تعلم عن ماضى « هما »

كل ما هو فاضح ومخز ، وتعود آهو من الحمام موفورة السعادة فلاشك أن زوجها عندما يعلم كل هذا سيسرح « هما » سراحا غير جميل ، انها تحرص على أن تصل هذه الأخبار الى زوجها عن غير طريقها ، وتنتظر رد الفعل ولا شيء ، ان « هما » توطد صلاتها بالجيران والأطفال مستعينة على ذلك بطبيعتها المرحة ، وسيد ميران يتقرب الى آهو يحاول أن ينسيها الأمر بشتى الطرق .

فاذا كانت ليلة من ليالى آهو أخذت تدس بما تعلم لمنافستها ، والزوج يدافع عن « هما » فاذا طلبت منه ألا يسدحها في ليلتها أبدا ، وتواصل دسيستها يجلس سيد ميران في الفراش ، فتشور عليه وعليها ونرميهما معا بكل تقيصة ، واذا به يترك الفراش ويذهب الى حيث كان ينام أيام كانت « هما » ضيفة ، واذا بها تفكر في أن تذهب وتسترضى زوجها ، الا أن « هما » كانت أسبق ، واذا بآهو تستمع الى حديث الزوجين السعيدين وهما يتشاكيان من تلك التى لا تريد أن تتركهما يعيشان في سعادة سوية ، ان المرأة الغبية - هكذا قال سيد ميران - لا تعلم أنه يعلم كل شيء عن ماضى زوجته الحبيبة ، وأنها تظن أنها تأميه بجديد ، ولا بد أن تعتبر بهذه الليلة فلا تفتاحه بعدها في ذلك أبدا ، وسمعت آهو وانصرفت وهى تسب وتشتتم ، لم يبق أمامها الا السب والشتتم ، ان كان ذلك يجدى ، كان ذلك ايذانا باشتعال الحرب ، فلا آهو أصبحت تطمئن الى نخوة زوجها التى أرادت أن تحركها ، ولا « هما » أصبحت تخشى فقدان سيد ميران بعد أن سمعت منه أنه يعلم كل شيء عن ماضيه المشبوه .

فاذا كان الصباح ، انهار ذلك البناء القائم على خراب ، بناء التعايش بين « هما » و « آهو » آهو تتحدث أحاديث ذات مغزى وكناية عن « هما » ، و « هما » ترد الصاع صاعين ، أجل انها ان كانت تحترمها قبل ذلك فلأنها كانت محترمة بالفعل ، أما ان كانت

ستبدأ في الشجار فهي مستعدة له تماما ، وسمع سيد ميران ، آهو لا جدال هي المخطئة ، هي التي بدأت الشجار ، فاذا به ينهال عليها ضربا وشتبا ، كان يريد أن يخيف زوجته معا ، واذا بآهو ، وقد فوجئت بهذه القسوة الشديدة ، ترد على زوجها الصاع صاعين وترتفع ستائمها فيمن كانت السبب في كل ما حدث ، واذا بغضبة سيد ميران تبلغ أوجها فاذا به يحصل عصا غليظة ويشج رأس تلك التي كانت سيدة المنزل منذ شهر ، ويمضى عن المنزل وهو يهدد ويتوعد ، لا الى عمله بل الى مقهى حقير من مقاهى المدينة ، لم يكن نادما ، لا ولا كان عطوفا على تلك التي عاشته في فقره وغناه سبع عشرة سنة ، كان كل غضبه أن ما حدث حدث أمام الجيران •

فاذا عدنا الى آهو وجدناها بين الجارات اللائى تحلقن حولها يضمذن جراحها ، ويزج الكاتب بامرأة أرمنية من الجارات تلقى محاضرة طويلة عن سوء معاملة الأزواج المسلمين لزوجاتهم ، ولكن هذا الموقف الحزين ينتهى حين يصحو الصغير ييزن من النوم فيرى وجه أمه تحيط به الضمادات فيشبهها بالشيخ الذى يأتى الى المنزل ليقرا روضات آل البيت وسيرهم المبكية ، وينفجر الجميع ضاحكين ، وترد الأم : أجل يا بنى ، صرت شيخة ، لكن روضتنا قرأها أبوك ، أى عيد هذا الذى يعده أبوك لنا !

فاذا كان المساء عاد سيد ميران الى المنزل ومعه أقارب « هما » ، عمها وأخوها : لم يكن فرحه بهما أقل من فرح « هما » حاولت « هما » أن تحدث آهو ، لكنها لم تعرفها أدنى التفات ، لم يكن قد بقى على العيد سوى أيام ثلاثة الا أن الضيوف الأعزاء بقوا أربعة أيام باصرار من الصهر العزيز ، كان سيد ميران يلبس جلد السيد الحقيقى أمام أقاربه الجدد ، يعتنى بملابسه وهندامه ، يتحدث في كل موضوع ، وتوثقت بينهم العلاقة عندما أبدوا استعدادهم

لتوريد الجوب اليه من قرينهم ، هذه الزيارة عمقت احساس
آهو بالمصيبة ، ان كان لـ « هما » أهل يدافعون عنها ، فأين أهلها
هى ؟

قضت آهو أسوأ عيد مر بها طيلة حياتها ، تجاهلها سيد ميران
نهائيا ، ومهما أجهدت فكرها لم تستطع أن تصل الى الذنب الذى
جنته لتلقى من زوجها كل هذا الاهمال ، فى تلك الأيام السوداء
أحضر لها جيرانها الدخان فدخت ، انها لا تستطيع أن تنسى ، مهما
نسيت فلن تنسى كلمات زوجها فى تلك الليلة السوداء « لا أريد أن
أراها أو أسمع صوتها ، حين أكون معها أحس بنفسى فى سجن »
أكانت هذه الكلمات وهما ؟ أكانت كذبا ؟ آه لو لم تكن قد
سمعتها بأذنى رأسها ، هذا التغير الذى أصاب الرجل جعل كل
السنوات التى عاشتها معه هباء ، هذا الرجل لا عهد لها به ولا تعرفه ،
لكن كيف تنتقم منه ، هؤلاء الأطفال ؟ لا : تحتفظ بهدونها ولتنس
سيد ميران نهائيا ، تلك الزوجة التى جاء بها قضاء لا دواء له
ولا مهرب منه وليعد سيد ميران الى النظام الذى بدأ به ، هذا
أقصى ما تطمع فيه ، لقد وسطت كل من تعرف ، ولم يبق الا مهدي
الصغير ، ان سيد ميران يداعبه ذات يوم فيسأله الصغير : هل تحبنى ؟
فاذا أجاب الوالد بالايجاب ، سأله الصغير هذا السؤال الساذج
الذى يلخص مأساة أمه : اذن لماذا لا تأتى الى حجرتنا ؟ وفهم
سيد ميران أن الأم وسطت الطفل الصغير الذى لا يفهم ، وكان أن
ذهب الى حجرة آهو ، وفى نفس الليلة ذهبوا جميعا لزيارة ميرزا نبى
بعد أن عاد من مشهد ، وعادت الأمور الى مجاريها ، ولكن أية أمور ؟

لم يكن سيد ميران عادلا ، فى ليلة « آهو » لم يكن يعاشرها
كما يعاشر الرجل زوجته ، وها هى « هما » تتحدث عن خوفها
من النوم وحدها ، ثم تروج الأحاديث عن يتعرض لها أثناء نومها
ومن يريد اقتحام حجرتها ، وحين يحل الأشكال بأن تنام كلارا معها

في ليلة أمها تصرخ في الليلة الأولى وهي توهم الصبية أن في الحجرة لصا ، ولم تلبث الأمور أن زادت سوءا فها هي الخطابات المجهولة تنهال على سيد ميران من الجدران تطلب منه تطبيق « هما » والا الويل ، ثم أخذت الخطابات تلمز الى عمله : « انه الرجل الذي يذهب الى زيارة مشهد وكربلاء لكنه يخزن القمح أكواما في منزله ويحبسه عن الناس » آكانت هذه الخطابات لعبة من « هما » ؟ أم كان هناك بالفعل من له مصلحة في طلاق « هما » ؟ ولم يلبث الخوف أن تسلل الى نفس سيد ميران ، ليس من الخير أن يلجأ الى الشرطة ، ليوصى أحد الشرطة بمراقبة المنزل ولينته الأمر ، لكن موت كربلائي عباس المفاجيء يزيد من شكوكه وخوفه ، انه يلمح الزوج السابق لـ « هما » يطاردتهم أثناء الذهاب الى المقبرة ، وفي نفس الليلة يتعرض المنزل لعاصفة من الحجارة ، ويقضى المنزل ليلة مرعبة ، وفي الصباح يذهب سيد ميران الى الشرطة ، لقد كان خائفا « بدأ ينظر حوله وهو يسير ، وبدأ يعود الى المنزل مبكرا عن عادته وقبل أن يحل الظلام » ، كل هذه الأحداث لم تجعل سيد ميران يفكر في طلاق « هما » ، ويأتى رسول من قبل زوجها حاجى بنا يطلب منها الصلح ، لكنها تردده برد قاطع أنها لن تعود الى حاجى بنا مهما كان الأمر .

ان آهو لم تياس ، ان زوجها لم يتأثر بماضى زوجته فكيف يكون الحال ان علم أنها وهي في عصمته ليست الزوجة الأمينة على عرضه ؟ لاشك أن الأمر يختلف ، وفي نفس الوقت كان سيد ميران يشك ، أجل انه لم ينس فرق السن بينه وبينها ، بدأ ينظر حوله ، من يا ترى الجدير من الجيران وأهل المنزل ، بأن يكون عشيق « هما » ؟ ليس هناك أصلح من ذلك الشاب « داريوش » ، لماذا أصبح الشاب يحمل الماء من البئر المشترك للمنزل كله ، لماذا أصبح يحرص على البقاء في الفناء أكبر وقت ممكن ؟ وها هو سيد

ميران يلسحها ذات ظهر حار تمازح « داريوش » عند البئر ، واذا به يلقيها في الماء والجيران يققون بين مصدق ومكذب ، فاذا حملها سيد ميران الى الحجرة خلعت ملابسها المبللة أمامه فأفحمه بجسدها العارى قبل أن تفحمه بقولها انه ان كان يشك في أهل المنزل فعليه أن يأمرهم بالرحيل ، انها لا تستطيع أن تعيش في « خان » .

ويلجأ سيد ميران الى « آهو » ، انها تستع الى زوجها ولا تصدق ، لقد سمعت « هما » تنزل في داريوش ورأته يتحسس شعرها ، لكن ذلك كله كان قبل العقد ، وقد رقصت معه « هما » حين اقترحوا بعض اللهو للتخفف من حزنهم على كربلائى عباس « يصف المؤلف هذا اللهو والرقص في صفحات طويلة شديدة الشبه بما ذكره تولستوى في الحرب والسلام ، وهذا اقحام فولكورى على الرواية ، لم يكن هدف الكاتب منه الا ذكر بعض المأثورات الشعبية في منطقة كرمانشاه » وحين يفتح سيد ميران « هما » تدافع عن حقها في المرح ، ان الجيران يبالغون لأنهم يتعاطفون مع آهو في كراهيتها لها ، ويفتح آهو فتنبى مدافعة عن الشاب ، عليه هو أن يمنع زوجته من هذه الألاعيب ، وترى أنه على أبواب غضب جديد فتصمت ، وبينما « هما » على هذه الحال ، اذا بصوت سقوط في البئر ، لم يكن أحد الأطفال ، بل « هما » ، ويخرجها سيد ميران من البئر وهو يقسم أن بلقنها درسا لا تنساه ، الا أنه حين يخلع عنها ملابسها ، ينيما على الفراش بكل حنان .

وينتهى الأمر بأن تبحث والدته الشاب عن مسكن ، انها تخاف على ولدها من « هما » فاذا كان يوم الانتقال وجدنا آهو تسرع لوداع الأسرة وهى حزينة ، والأسرة تبدى من الجزع على مصير آهو وسيد ميران الكثير ، ثم تخبر أخت الشاب آهو بأن هما تحتفظ بصورة لأخيها من الخير أن تجدها حتى لا تسقط في يد سيد ميران

ويحدث ما لا يحسد عقباه ، وتسرع آهو الى سيد ميران ، انه يتلقى الخبر بسخط ، ليس على « هما » بل على الجارة ، وبعد يومين تذهب « هما » الى الحمام ، ويبدأ سيد ميران بالبحث عن الصورة بين حاجيات « هما » ، ونأتى آهو ، وبعد بحث طويل تقدم الصورة لزوجها ، وجدتھا في مكان جدير حقاً بأن تخفى فيه المرأة صورة محبوبها ، ويتناول سيد ميران الصورة ويشتم المحبوبة الغائبة ، ثم يغتم : ماذا تقصد بهذه التصرفات الجنونية ، وتنصرف آهو وهي تكتم فرحها ، لقد أفلحت هذه المرة .

فاذا عادت « هما » بعد قليل من الحمام تكتشف اللعب في حاجياتھا ، ولا تستطيع أن تفتح آهو ، حتى اذا عاد سيد ميران تسأله « هما » ويجب عليها بصراحة ودونما مواربة ، ويریھا الصورة ، فلا تنكر لقد سرقتها ، فاذا ثار عليها ، ابتسمت : ترى لو وجدت صورة امرأة أخرى في جيبه ، هل تتهمه بالخيانة ؟ ، ثم تعترف بالاعیھا السابقة ، كل هذا فعلته لأنها تحبه ، لو لم تكن تحبه لما استحوذت عليه ولتركته ليلة آهو لها ان اقتناءھا للصورة ليس الا من قبل عناد الأطفال ، أجل انها لا تتحمل أن يكون زوجها العزيز على بعد عدة أمتار منها في أحضان امرأة غيرها أجل ، لتكن الصورة ما تكون : مؤنسة ، انتقاما ما ، أى شيء ، فهذا كله ليس الا من حبھا له ، اذا كان قد فقد أعصابه من أجل صورة ، فليأت لها كلیة « ان الحب ليس نقودا تقبل التقسيم » .

اذن فهم سيد ميران أن الصورة كانت لتحريك غیرته ، ثم تتهاوى « هما » بين يديه متظاهرة بأنها حامل ، فاذا بسيد ميران والد الأربعة يبدو وكأنه لم ينبج قبلھا قط ، انه ينهار فرحا ويحنو ويدلل ولا يكاد يدرى ما يقول ، وتخرج « هما » وهي الكاسبة من المعركة ، انه يعلنها : لن أذهب الى تلك الحجرة أبدا ، وتطلب « هما » أن تستقل في معیشتھا ، انها لا تأمن لآهو بعد ذلك ، ويستجيب سيد

ميران ، وينجنى راكما فوق جسد « هما » نصف العارى قائلا بصوت متهدج من الأعساق : « هما » حبيبتي ، سامجيني • وتراهما آهو على تلك الحال ، فلا تدرى كيف تتحمل الصدمة ، لم تكن تتوقع هذا أبدا ، فاذا بها تغمغم فى قهر : ليس هذا حبا ، لقد فقد الرجل عقله •



ويشتد المرض على « هما » ، واذا بالطبيب يفحصها يقرر أن الأمر نزلة برد وليس من الحمل فى شىء ، « وهما » تفكر : ربما كان ذلك من تأثير الدواء التى تناولته فى منزل زوجها القديم للاجهاض ، وها هى مذعورة ، ربما حرمها ذلك من الأمومة ، الى الأبد ، وسيد ميران مذعور لذعرها ، لا يجد عيبا فى أن يتردد على أوساط الدجالات وأن يجلس فى مجالس النسوة يتحدث فى هذه الأمور ، وفى النهاية يلجأ الى الطب الحديث ، هناك مستشفى أمريكى فى كرمانشاه ، هو المستشفى الوحيد ويحملها اليه •

لم يلبث أن تأيد فى المستشفى ما علم سلفا ، من المستحيل أن تحمل « هما » بعد ذلك ، لقد هون عليها الطبيب بأنها مازالت صغيرة ، وأنها سوف تحافظ على قوامها ، فى المستشفى كانت تصلها ورود حمراء كل يوم من مصدر غير معلوم • وخرجت « هما » من المستشفى نائرة على الزوج القديم الذى لم يقدر جمالها الذى خلب لب الأطباء فى المستشفى ، وفى نفس الوقت تفكر فى سيد ميران ذلك الذى يقدرها حق قدرها ، ترى كيف تستطيع أن تحافظ عليه ؟

ان سيد ميران يعاملها بعد خروجها من المستشفى كطفل صغير مريض يستحق الشفقة والحنان ، وها هو يفكر فى بناء طابق جديد لها « لكى ترقص لزوجها وحده » ويأسف سيد ميران على الشباب الذى

مضى فتهون عليه « هما » مستشهدة بفلسفة خيامية (١١) ، انها تستطيع أن تعيد اليه شبابه بهذا الجسد الذى لن يؤثر فيه بعد حمل ولا وضع ، ويتمنى سيد ميران لو أنه يملك العالم كله اذن لأنفقه تحت أقدامها ، ويضرب الأمثلة على ذلك من التاريخ القديم والحديث (١١) •

وحين تقبل الدنيا يقبل أهل الدنيا ، وها هم الجيران الذين تقموا على « هما » تعديها على سيدة المنزل ، يتجمعن حول « هما » علمن يصبن بعض الخير الذى كان ينصب فى حجر « هما » دون حساب ، « وأصبحت النقود التى تنصب بين كفى سيد ميران كالرمل تنساب من بين كفيه كالماء » لكن صداقة الجارات مع « هما » لم تكن خالصة ، كانت صداقة منفعة ، بل كان اخلاصهن الحقيقى للسيدة الأصلية آهو ، ذلك أن غرام « هما » بالمظاهر بعد أن أضافت اليها بند الملابس ، كان يثير فى نفس أولئك النسوة المعدامات شبا فوق الحسد هو الخراب وسوء المصير الذى يسرع اليه رب الدار •

وبالرغم من كل ذلك لم تكن « هما » سعيدة ، لماذا ؟ كانت تعلم أنه ليس لها من سلاح فى معركتها الا الجمال والشباب ، وكلاهما لا يدوم ، ففى ميدان القتال « كانت ضررتها كالدبك المهزوم طوت جناحيها وأسرعت منسحبة الى كنها ، ولكنها حينما كانت تمر بجوارها كانت تحس تماما بقوتها وكبريائها انها وان انتصرت انتصارا ما الا أنه مؤقت ، ان الهزيمة النهائية سوف تحيق بها ، والهزيمة كلما تأخرت كانت نتائجها أكثر شؤما ، فى هذا الميدان هى قوة واحدة ، ولكن الطرف المنافس خمس قوى « أجل ان الحياة المشتركة لآهو وسيد تدوم حتى بعد وفاتهما فى شخص أولادهما » لم تعد « هما » تحافظ على مشاعرها حين تسمع الأطفال يتناجون فى الفناء أو يلعبون أو حتى يتشاجرون ، حينئذ كانت تحس كما لو أن الجدران تخنقها ،

وها هي تستعيد نصيحة إحدى الجارات العجوزات « مكانك ليس هذا المنزل أيتها العزيزة ، ان حياة الضرتين أولها وجع الرأس وأوسطها الملل وآخرها لا محالة الانفصال » • وزاد في بأسها أن زوجها السابق قد تزوج ومن ثم فقدت الأمل في حياة زوجية مستقرة الى الأبد •

أصبحت « هما » تضيق من كل شيء تخاطب نفسها في وحدتها « هما ، هما ، قدماك تستندان على الريح » ، وتضيق من حفيف الأشجار حين تحركها رياح الخريف ، وتضيق من صوت الهاون يأتي دقه من بيت الجيران ، ومن صوت الماء يتحرك في الحوض ، وتضيق من كل شيء فتصرخ في نفسها : « حياتك هباء ونهايتها هباء » ومن ثم ازدادت حالات الانغماء التي تنتابها وإن كانت آهو لا ترى إلا أنها من ألعيبها ، والا فلماذا تزداد عندما يكون سيد ميران في حجرتها ؟ أما المنزل فلم تعد تقوم فيه بأى عمل ، أى منزل ؟ انه لم يعد منزلها ، انه منزل آهو وأولادها •

ولم تمر فترة طويلة حتى أصبحت تحظى برؤية أولادها ، لقد سمح لها زوجها أخيرا بذلك ، وانظر الى اللمسة الانسانية العظيمة حين يصف الكاتب زيارة الأطفال لأهمهم في منزلها عند زوجها الثانى : « كانا مطيعين مثل يتيمين ذليلين يحن عليهما رجل غريب ، وكانا يلعبان بلعبهما وكانها أعطيت لهما لفترة معينة ، كانت نظراتهما لأهمهما مسلووة بالتعبير والذكاء والادراك ولكنها كانت خجلة صامتة متهربة » كانا يقضيان مع أهمهما فترة من الوقت ، فاذا اقتربت عودة سيد ميران تسرع بهما خورشيد الى منزل أبيهما ، وكم كانت هما تهتم بهذه الزيارة ، كانت تعد المنزل وكانها تعده لاستقبال عظيم ، كانت تتخيل الأحاديث التي ستدور بينهم كما اشترت لهما حلتين جيلتين ، التقطت لهما صورة بها ، كان سيد ميران لا يستاء من تلك الزيارات ، كما أنه لم يكن راضيا عنها كل الرضا •

كان سيد ميران يزداد يوما بعد يوم حبا لـ « هما » ، وكانت « هما » كلما رأت لجمالها سوقا ازدادت هوسا « فأصبحت احدى قدمي سيد ميران في السوق والأخرى في المنزل » ، كانت تدرك أنها بهذه الوسيلة تعلم مقدار حب سيد ميران لها ، لقد علمت أنها في منزل سيد ميران ليست الا وسيلة للمتعة فكانت تلعب الدور المطلوب منها تماما ، وكان سيد ميران راضيا « لأنه قادر على اسعاد قلب محبوبته » وللسرة الأولى في حياته يتلقى سيد ميران صفقة من امرأة ، ومن « هما » ، ذلك أنه في احدى حفلات الزفاف التي دعى اليها أبدى اعجابا زائدا بالراقصة ، وعلق أحد الحاضرين « امرأة واحدة لا تكفى ، اثنتان غم ، ثلاث راحة للقلب » أما آهو فقد علقت بأن الأمر يستوى لديها ، أما « هما » فقد أسرتها لسيد ميران ، الذي أقر بعد صفعه أنه انما كان يمزح فحسب ، ان كل امرأة جميلة يراها تذكره بـ « هما » بل لم يعد هناك مجال للمقارنة .

في تلك الأثناء كان الحديث عن الحجاب والغائه حقيقة ليست خيالا ، وبعد أن تم الأمر مع طالبات المدارس ، أتى الدور على ربات البيوت ، وقد دعى الرجال المرموقون الى مبنى البلدية مع زوجاتهم سافرات ، كان سيد ميران مثل كل من هم في سنه يرى في هذا الأمر هداما للدين ، كانت « هما » أكثر استعدادا للذهاب ، ولكن سيد عرض الأمر على آهو ، فاعتذرت بأنه لا ينبغي أن تحاك الملابس لواحدة وتذهب أخرى ، فلم يجد بدا من اصطحاب « هما » وهو كاره . وفي عصر ذلك اليوم الذي خرجت فيه المرأة الجميلة سافرة مع زوجها كان الناس ينظرون اليهما كمخلوقين نازلين من المريخ ، أما سيد ميران فكان يحس « أنه ارتكب جريمة الزنا وأنه يساق خارج المدينة للرجم » لم يكن الأمر صعبا ، كان الصالون الذي اجتمع فيه المدعوون مع زوجاتهم مثيرا للضحك لا لشيء آخر ، فقد كانت الأزياء مضحكة وكان الحديث أكثر اضحاكا ولكن سيد ميران مع ذلك

احتاج الى الراحة بعض الوقت في المنزل بعد « حادثة الصالون » هذه ، فبعض الغوغاء أسمعوه كلاما لا يرضاه بينما كان يمشى مع زوجته ، وبعد يومين كان يتسلم نصيبه من القمح من مخزن المدينة فاحتج أحد زملائه في المهنة على قلة نصيبه ، وتفوه بأعلى صوت « كان هناك الحاد وظلم وأضيف اليهما قلة الشرف ، فاما أن تذهب وتزوج امرأة جميلة واما أن تذهب وتضع رأسك على الأرض وتموت » ، ولم يلبث أن زاد لغط الناس حول الحفل ، وجرهم الحديث الى الحديث عن الحكومة في طهران « التي لم تكن حتى تشرب الماء دون أمر الانجليز » لقد كانت البلدية تأمر النساء المشبوهات بلبس الحجاب حتى تغفنه الحرائر ، وبعكس ما كانت الأسرة تظن أثر حفل البلدية تأثيرا عكسيا في « هما » لقد أصبحت لا تخرج من المنزل الا نادرا لكن لا ، لم يكن عفافا أو احتشاما ، بل كانت تعد للأمر عدته ، لقد تعرفت على حائكة ثياب من نفس الحي . لقد آتى خلع الحجاب أكله ، كانت الملاة تخفى ما تحتها من لباس . أما الآن فقد زاد هوس النساء الى الملابس ، فما بالك بـ « هما » المتهوسة أصلا ، انها تقترح على سيد ميران أن تذهب لتتعلم الحياكة ، ويحتج سيد ميران بكل ما يحفظ من آيات وأحاديث حول هذا الموضوع ، لجت « هما » في الخلاف ، ان قوامها مثل قوام « كلارا » وكلارا تخرج الى المدرسة ، وتحور « هما » الحديث الى الوجهة التي تنتصر فيها دائما ، الى الحب والعشق ، ويحدثها سيد ميران عن أحلامه ، تلك الأحلام التي فسرهما المفسرون بأن « هما » ستصبح قدم السعد بالنسبة له ، ويعدها بأخذها للزيارة في القريب « كانت الموعودة بالزيارة في الأصل هي آهو فسبحان من له الدوام » ، فاذا تقدم الليل وأمنت « هما » عيون الرقباء قامت الى زجاجة الشراب فأفرغت كأسا لسيد ميران « الذي كان يشتريها سرا لأنه لا يزال يؤمن أنها حرام » ويشرب الكأس ترضية لخاطرها فقتلوها

بكأس آخر ، ويدور الحديث مع دوران الكأس ، ويا له من كأس
ساحر حقا ذلك الذى حول الخباز سيد ميران الى فيلسوف عظيم من
فلاسفة الجنس واللذة لا يباريه « أبيقور » فى هذا الميدان .

وتذهب (هما) لتعلم الحياكة ، « ان أى تفكير يدخل فى
رأسها يشبه دخول قطعة من الفطن فى زجاجة لا تخرج الا بكسر
الزجاجة » ، ولكن سيد ميران كان دائم التفكير فى المعلمة التى خلعت
حجابها بمجرد أن أمرت الدولة بذلك والتى كثيرا ما شاهدها على
باب منزلها تحدث الرائحين والغادين ، ولو كان الأمر فى يد سيد
لأمر بإغلاق كل محلات الحياكة هذه ، ونسمع فى هذا الموقف رأى
رجل ريفى « وهو عم هما » فى هذا التطور الذى يحدث بأمر
الدولة ، ان الدولة تسعى لابتعاد الناس عن بعضهم بعضا ، لقد منعت
لعبة « الشاه والوزير » فى المقاهى ، فهل هى تجمهر أو مجلس لقراءة
النروضة ؟ أو أنها مؤتمر حربى ؟ لقد سمع من عمدة القرية « اضرب
الفلاحين لا يرفعون رءوسهم » ، ويسخر من « هما » وتسخر
« هما » منه ، ويحذرها ويوصيها أن تخفف الوطء على سيد ميران،
لكن « هما » واثقة من قوة تأثيرها ، ان سيد ميران يحبها لا كامرأة،
بل كمظهر من مظاهر الجمال . وخين كانت أفكار « هما » تدور
فى رأس سيد ميران كان يدعو « ليجعل الله عاقبتنا مع هذه المرأة
بالخير » .

أما آهو - ولنعد إليها بعد هذه الغيبة الطويلة ولعل حظها معنا
ومع الكاتب مثل حظها مع زوجها - لقد رأت آهو أن الأمر انقلبت
من يدها تماما ، لقد باتت تظن أنه كلما تمادت المرأة فى غيها ، ازداد
زوجها حبا لها ، لقد تزلزلت عقيدتها فى الزواج والحياة الزوجية منذ
حادثة الصورة ، لقد استراحت من رؤية وجه غريمتها ، فأصبحت تعد
الطعام للأسرة وتحفظ لـ « هما » نصيبها منه ، واتخذت من أهل

« هما » أهلا لها ، أما الأولاد فكانوا يحبون أباهم حقيقة ، وكان لا يزال يحبهم الا أنه كان يبدو أن مانعا ما يمنعه من اظهار حنانه لهم ، فجوة تتسع يوما بعد يوم ، كانت عاطفته نحوهم أشبه ببركة ماء كبيرة سقطت فيها أوراق الخريف حتى طمست ماءها تماما ، ان سيد ميران لم يعد يعرف على بعض أطفاله وأصبح يخطئ في اسمائهم ، أجل ليكن ، لكن آهو تحدث الأطفال عن أبيهم ، انه مشغول عنهم قليلا ، كانت تخشى أن يكره الأطفال والدهم أو أن ينسوه ؛ وبعد أن نأكدت من عدم امكان حمل « هما » باتت تعرف أن مسألة طلاقها مسألة وقت لا أكثر ، فانطوت على حزنها ، ورأت أن الأمر أصبح منتها بالنسبة اليها ، ولكن سيد ميران كان قد نسيها نهائيا .

لم يعد يحفل بهم تماما ، أصبح يمثل تمثيلات سعادته مع « هما » أمامها وأمام الأولاد و « هما » بدأت تغمز المرأة المسكينة وتلمزها ، ثم تجاوزتها الى أولادها فأخذت تقارن نفسها بكلارا ذات الستة عشر ربيعا بل وتمازح سيد ميران مزاحا ماجنا أمام الفتاة المراهقة وأخيها الذي يقترب من سنها ، كانت آهو تفضل أن تبعد بأطفالها عن هذا « الظلم القانوني » الذي يشاهدونه بأعينهم يوميا ، لو لم يكن هؤلاء الأطفال لكانت قد أراحت نفسها من هذه الحياة منذ وقت طويل ، فقط حتى يحس زوجها بالعذاب الذي نعاينه ، انها تتعذب الى درجة الموت ولا سميع ولا مجيب لهذا العذاب ، كانت على الغداء لا تستطيع أن تتلع اللقيمات ، كانت تريد أن تذهب وتجلس في ركن من أركان المطبخ تجتر أحزانها كقط مرقول أو مطرود .

لقد أصبحت تقارن نفسها بـ « هما » ، نعم : لا وجه هناك للمقارنة ، يداها خلقتا للعمل ، هي التي فعلت كل هذا العز لزوجها ، ومن أسف أن الثمار تجنيها غيرها ، ولم تجن هي الا الحنظل ، لقد أنجبت لهذا « السيد » المشؤوم أربعة من الأبناء ، ان جمال « هما »

الذى يزداد يوما بعد يوم مع الرفاهية والدلال ، يصيبها بحزن ويأس ويجعلها تحس أنها تقاقل فى معركة غير متكافئة ، ويفيض بها ذات يوم فتحدث « هما » انها لم نقنع بنصف زوج حتى سلبت منها الزوج تماما ، وتجيّب « هما » : مهما كان الأمر فهو وضع مؤقت ، ان وضعها فى هذا المنزل مثل ذلك الطائر الذى يقف على الشجرة ، انظرى لقد حظ قليلا ثم طار ، ولا تدري آهو ، هل تحس بالندم لأنها أثارت كوامن الشجن عند غريبتها أم تلك الماكرة لا تقول هذا القول الا لكى ترش بعض الماء البارد على النار التى تشتعل بين جوانحها ، وعلى أى حال ، أتملك تلك الغريمة الجمال ؟ لماذا لا تجرب وتزين نفسها •

بدأت آهو تزين نفسها ، لكنها كانت تريد أن تجعل نفسها نسخة من « هما » ناسية أن الزينة التى تصلح لامرأة قد لا تصلح لأخرى ومن ثم فقد أفسدت جمالها الطبيعى ، وأضافت الى نفسها قبحا بالزينة المصطنعة حتى صارت مسخا من المسوخ ، وبعد زينة طويلة « وصفها الكاتب فى حوالى عشر صفحات » رفعت الستار ذات غداء ، أرادت أن تقدم مسرحية حب فقدمت « كوميديا » ، ما ان رفعت حجابها ، حتى اتبه الرجل الى زينتها فضحك حتى شق الطعام فى فمه ، وتشجع الأطفال فضحكوا ، واتبه ييزن الصغير الى عنق أمه ولأمر ما رآه يشبه عنق الدجاجة فرفع صوته مقلدا صوت بائع الدجاج ، وعلق سيد ميران الذى أتت زينة امرأته المنكودة بأثر عكسى تماما : أى جهد ضائع وأى شئ لا قيمة له ؟ وتخرج آهو من الحجرة وهى تهمس لنفسها : ليس بالعافية ، ان الرجل لا يريد أن يخون حبه لزوجته ليس بالعافية •

وهكذا يمر الزمن بآهو ، كل ما تشرع فيه يفسد ، وكل ما تفكر فيه ينتهى بهزيمتها ، وبالرغم من وجود الأولاد وتفاניהها فى حبهم

وخدمتهم الا انها كانت تحس بعذاب روحى ينهش داخلها ويفسد أعصابها حتى أصبحت تشتم الأطفال عند كل هفوة ، لولاهم لذهبت ، ويرد عليها أصغرهم : فلتذهب ما الذى يوقفها ، وتذهب آهو عند احدى الجارات تبكى حتى يأتى الصغير مصالحا ومقبلا رأس أمه ، وتعود فاقدة كل أمل ، أى زهر جنته من أبيهم حتى تجنى منهم عطرا ؟ لقد صور لها خيالها أن الكراهية تتخذ سبيلها الى الأطفال ، لكنهم على كل حال كانوا الكوة التى تطل منها على مستقبل مشرق : « أجل هذان الزوجان يعيشان اليوم فى سكون ، هذا السكون لن يجر معه الا الملل والقرف ، لكنها تعيش وتتحرك فى خدمة أطفالها أجل ، ان هؤلاء يلعبون دورا كبيرا فى حياتها » كانت تفكر : لتمر الأيام وسوف يدق سيد ميران عليها حجرتها يوما •

لكن هيهات ، ان سيد ميران هو سيد ميران ، انه لم يعد يرى فى الفناء ، كان يتوضأ فى حجرته ، وهكذا طفح الكيل بأهو ، لابد أن تفتاحه ، انتهى ، لم تعد تستطيع التحمل ، انها تسد عليه الطريق أثناء خروجه ذات صباح هامسة : مشهدى ، دقيقة واحدة ، لكن مشهدى كان ينظر اليها وكأنه لا يراها ، وينظر اليها بازدراء شديد : ماذا ؟ ماذا تربدين ؟ فاذا بها ازاء هذا الرد الجاف لا تطلب منه الا أن يملأ الساعة (!!) ثم يفر منها سيد ميران وكأنه يفر من جنى ، أرادت أن تبكى ، لكن الطفل الصغير قلد لهجة أبيه فلم تملك نفسها من الضحك ، حتى خورشيد جارتها سخرت منها عندما وسطتها ، وبعد الحاح طلبت من سيد ميران أن يذهب ليرى السيدة الكبرى ، ويذهب سيد ميران وليته ما ذهب ، يسأل زوجته بجفاء ماذا تريد ، فاذا ردت بأنها تريد أن تراه ، ضحك مستغربا : ألا تراه ؟ ويتجاهل أن حياة المرأة التى عاشته سبعة عشر عاما يمسك عليها نفسها أن تزيد ، فاذا قالت : هل نسيت أنتى زوجتك ؟ ان كان قد نسى ذلك فلا يسكن أن يكون قد نسى أبوته ، ويطاطىء سيد ميران رأسه خجلا ،

نعم لك حق يا آهو ، لكنى لا أدري ماذا أصنع بك ؟ أجل تستطيع أن تفعل شيئا ، ان لم تكن قادرا على العدل سرح واحدة وأنا مستعدة . أنت تهذين يا آهو ، ويحاول أن ينصرف فتسد عليه الطريق ، ينبغي أن يقرر مصيرها في التو واللحظة ، وإذا بسيد ميران يرد : مصيرك تربية الأطفال ، ينبغي أن تكون المرأة صبورة ، فقد كان هناك نساء لا يرين أزواجهن الا بعد الزفاف بسنوات ، وترد بسخرية وهناك رجال لم يخرج على ليلة زفافهم صبح منذ عامين ونصف ، ثم تنفجر فتحاسبه على الماضي كله ، على كل ما فعله وعلى كل ما يفعله مع الأطفال ، ويحاول سيد ميران أن يرجئها الى حين ، ان المهلة واجبة في الشرع ، لكن آهو لا تتركه يمضى في طريقه ، اذن ماذا يفعل سيد ميران الذى لم يتعود على الرياء ، انه لم يكن يدرى أنه سيواجه هذا الموقف بهذه السرعة ولم يكن قد أعد له عدته ؟ لقد زاد هذا التصرف في بغضه لها ، لقد قتل ميله اليها ولن يستطيع حتى المسيح أن ينثر الماء على قبره فضلا عن احيائه ، فاذا به يخلص نفسه منها ، فترجوه الرحمة فينفجر بغضه كله .

انه يصبح فيها : لا أريدك ، أنا ضائق بك ان كان الأمر بالاكراه فاقتليني ، كلما حاولت أن أقاوم نفسى لم يستطع قلبى أن يصفو لك ولن يستطيع ، فاذا سألته وماذا فعلت حتى تستحق كل ذلك ، أجاب : لا شيء مجرد احساس ، ورفعت عنه آهو يدها وجمدت في مكانها « كانت ضربة مهولة كالصاعقة انقضت على كل وجودها فدكته دكا ، وشلت روحها وجسدها ، كأن المرأة المسكينة ترى حبها يدفن وهو حى ، ليتها ماتت قبل أن تسمع هذه الكلمات » أما سيد ميران فقد جلس يدخن سيجارته هادئا بعد أن أخرج كل ما كان في قلبه ، كانت آهو تسح الدموع بعد سبعة عشر عاما من الحلو والمر ، لمن تشكو والى أين تمضى ؟ كان حديث الرجل ظلما لكنه قانوني ، ان رجلا

قد تكشف عن وحش ، أل هذه الدرجة يراها حائلا بينه وبين حبه لهذه المرأة ؟ ويخرج سيد ميران وهو يقول بصوت عال لكن بهدوء : ينبغي أن أبحث لنفسي عن منزل بعيدا عن هذه البومة التي تنعب على رأسي بين آن وآخر ، اننى لم آخذ منها مال أبيها ، وسوف أنفق عليها وعلى أولادها والسلام ، انتهى الكلام •

لم يكن سيد ميران هو ما تريده آهو كسا ظن ، ذلك أنه في الليالى التي كان يأتى إليها فيها كانت محرومة منه ، لكن سيد ميران يريد أن يقطع كل علاقة الآن ويقال أن الطفل هو رباط المحبة ، لكن يبدو أن الأمر انعكس ، انها تريد منه أن يهتم بأطفاله فحسب ، وفيما يبدو لم ترض « هما » هانم بأن تكون خادمة لها ، لماذا كرهها سيد ميران الى هذا الحد ؟ ولماذا يخاف منها هل أوجت له « هما » أنها ربما دست له سما فى الطعام ؟ ماذا تفعل جربت الأولياء كما لم تبخل بوسائل الشيطان ، ودون فائدة •

ان الرجل يغلق الباب بعد العشاء بينه وبين العالم ، ثم ينسلخان عن الوجود ويعيشان حياة لا يطمح خيال آهو الى تصورها ، ان خلوتهما مفهومة نقلتها الى آهو تلك المرأة المسماة أكرم التي تتجسس عليهما ، لكن هذا الجزء الذى تتحدث فيه « أكرم » الى آهو يعد من أشد مزلق الرواية فهي لا تضيف الى معلوماتنا جديدا عن شغف سيد ميران بـ « هما » ومن ناحية أخرى شديدة العمق بحيث لا يتصور القارئ أن السيدة أكرم تستطيع أن تعيد هذا الكلام العميق ان صك مسامعها ، فهل يعقل مثلا أن يقول سيد ميران « نحن عقدنا ميثاقا فى عالم التوحد أن نسبح سويا فى عالم الجنون ، وما دمنا وحدنا والباب مغلق فليس أمامنا الا الألعاب والقصص والحكايات » أو يقول ذلك الخباز - لافض فوه - « ان دواء النسيان الذى بحث عنه عارفونا طوال عشرة قرون فى زوايا دور الخمر والتكاياء ولم يجده

وجدناه نحن في حبنا الخالد « ما شاء الله ! الا أن حديث آكرم ليس كله عديم الفائدة ، انها تخبر آهو أن غريمتها لاتزال على علاقة بذلك الرجل الذى أفسد زواجها الأول . وأنه هو الذى كان يرسل اليها الورود الحمراء فى المستشفى « ان الكاتب قوى الذاكرة حقاً » ، كما تعلم أن زوجها أدمن الشراب وأنه يتاجر فى المهربات وأن خياطة « هما » هى التى تقوم بتوزيع البضائع •

فاذا تقدمنا فى الرواية دخلنا مع « هما » فى عالمها الخاص فى دروس الحياكة ، وتتعرف منها الى صديقتها « سوسن » ووالدها الموظف الكبير فى الدولة ، ويتحدث المؤلف عن دخول السينما فى ايران كحدث اجتماعى كبير ، ان « هما » تريد أن تذهب الى السينما ، ويتحدث سيد ميران عن السينما كرجس من عمل الشيطان ، الا أن « هما » تناقشه كعاداتها ولا يملك الا أن يضحك وهو يقول : كل هذا فى سبيل الذهاب مرة الى السينما ، ولا يملك كعاداته الا الانصياع الا أن سيد ميران ليس مستريحا الى علاقات « هما » الجديدة ، انه يطلب منها أن تعود مسرعة الى المنزل ، ويرسل ولده الى أمه يطلب منها أن تخبره اذا عادت « هما » متأخرة عن مواعدها ، الا أن آهو أزمعت من التجارب المريعة ألا تتدخل فى حياتهما قط ، وتعود « هما » ويتشاجر معها سيد ميران ، ويبدأ ثانية يفكر فى آهو •

ان الأيام تمر وهو لا يراها ، لقد ظل يراقبها فترة طويلة حتى تأكد أنها لا تخفى أية نية ، « كانت تتصرف كجارة عاقلة حسنة الأخلاق ، لم يعد يسمع صوت ضحكتها ، ولا صوت بكائها وعويلها أو صياحها مع الأولاد ، كأنما رضيت بقدر ترم لها ، أو وقر فى قلبها ألا تقف حجر عثرة فى طريق زوجها ، لم تكن تشكو من ظلم الحبيب ولا من جفاء الرقيب ، أراحت جسدها من الحسد الذى يبريه وروحها من الغل الذى يحطمها » ، كانت فى المرات القليلة التى تتحدث اليه

فيها تتلعثم وكأنها تتحدث الى انسان غريب ، كانت تقوم بكل أعمال المنزل حتى غسل الملابس لهما ، كانت ترسل الى زوجها في حجرته ما تعلم أنه يحبه من طعام ، بل كانت تفتح لهما الباب بعد عودتهما من سهرة دون أن تسأل أين كانوا ودون أن تتذمر انها فزعت من نومها ، أجل كان هناك هاتف يهتف في أذن السيدة آهو : « اصبرى ... اصبرى ، حين يرتفع ماء النافورة ينتكس » كانت آهو تكافح ضد انسانيتهما ، تحاول أن تقتل الأمل في نفسها ، بل قل انه قتل ، كانت تسمع أن زوجها قد سار شوطا بعيدا في حبه للمرأة فلا تعلق ، علست أنه يصحبها الى منزل حسين خان الطبال لترقص له وحده وسط جمع من الموسيقين والطبالين ، وتلك الليلة التي عاد فيها زوجها محمولا على الأعناق وهو مغمى عليه ، ألم تعلم أن « هما » كانت ترقص له عارية وأن الشهوة والشراب قد اجتمعا عليه حتى جندلاه ، أجل ليكون ، كل انسان يحصد ما تزرع يده ، انها لن تتدخل في حياته أبدا .

كانت الحوادث الصغيرة تتجمع على وجود آهو ، ماتت جارتها العزيزة ، « نقرة » بينما كانت مع زوجها يعملان في حدائق ميرزا بنى وبعد أن مات زوجها جاء وحده الى المنزل مهدما ولم يلبث أن لفظ أنفاسه بين جيرانه ، « وصف الكاتب لموت الزوجين من أروع ما في الرواية ويبدو فيه التأثير المباشر لروائع الكلاسيكيات الروسية » ، أحست آهو أنها سوف تلحق بجارتها ، انها لا تحمل حقدا لسيد ميران لثمت هي ويبقى هو لتربية أطفاله ، انه لم يقم بأمر عجيب ، انه رجل والرجل اله المرأة يصنع بها ما يشاء .

وتصل هذه الوصية الى أسماع سيد ميران فيتعجب ، لا بد أن يصالح آهو وفي أقرب فرصة . كان الشتاء قد مر في هدوء ، استطاع سيد ميران بسلوكه الوحشى أن يحقق السلام في المنزل ، كانت « هما » قد حرمت من زيارة أطفالها ، فأخذت تفيض حنانها على الأطفال ، ومر الشتاء وبدأ سيد ميران يضيق بـ « هما » ويتقرب

الى آهو ، ولم يكن ذلك الا ليستغل عداوتها الطبيعية لـ « هما »
 في التجسس عليها ، الا أن آهو كانت قد تعلمت ، فاذا سألها سيد
 ميران عن « هما » أجابته بأنها تحبه أكثر من أى شئ في الوجود ،
 فاذا قص لها بعض ما يصل الى أسماعه هو خاصة حول جولاتها مع
 تجار الأقمشة في الأسواق ، وجدت آهو الضوء الأخضر واستفاضت
 في الحديث ، الا أن سيد ميران لم يكن ليصدق ما يقال عن « هما »
 اذا كان من فم آهو ، ثم ان « هما » كانت تستطيع اسكات سيد
 ميران والاستحواذ عليه تماما بزينتها وسلوكها الجنسي « الذى لا يفتأ
 الكاتب يعيد فيه ويزيد كلما شك أننا قد نكون نسيناه » ، وخلال
 تلك الأحداث البسيطة ، نحس أننا نحارب معركة خاسرة مع آهو ،
 واذا كنا نلمح في المعركة بعض بوارق الأمل ، الا أنها لا تلبث أن تخبو
 وتركنا مع آهو أشد يأسا .

لقد أصبح سيد ميران - خاصة حين يكون بعيدا عن
 « هما » - يفكر ، تلك والله بارقة أمل ، خاصة اذا علمنا أن
 موضوع التفكير كان المال ، لم يكن ليجد أحدا يشكو له الا آهو ،
 وبالرغم من أن آهو كانت آخر من يستحق مشاركته هموم حالته
 المالية ، ان « هما » لم تكتف ببعثرة أموال سيد ميران ذات اليمين
 واليسار حتى أغرت أهلها فطمعوا هم أيضا في أمواله ، وها هم يأخذون
 النقود منه بحجة توريد الجبوب ، فلا هم وردوا الجبوب ولا ردوا
 النقود ، اتنا نعلم أن أحوال سيد ميران المالية في غاية السوء ،
 ويتحدث سيد ميران مع آهو عن أعماله التى تتدهور يوما بعد يوم ،
 وعن الأولاد ومستقبل الأولاد ، ان آهو تحس بلهجة سيد ميران ان
 فيها بعض ملامح الأئس القديم ، فاذا سألته : وهل تعلم « هما » ؟
 رد بأنه كان قد تعهد لها ألا يحدثها عن أحواله المالية ، ومن ثم فهي
 لا تعرف أنه مدين ، وأنه لا ينبغي لكلارا أن تذهب الى المدرسة
 منذ أول العام الدراسى ، ولكن الرجل يدافع عن تدهور أحواله

المالية دفاعا غريبا ، ان كل من هم حوله قد آثروا بطرق غير مشروعة ، بالتهريب والغش وانقاص الموازين والمكاييل ، ثم لا يتحمل طويلا فيشكو من اسراف « هما » وينعس سيد ميران فينام في حجرة آهو ، وتقوم آهو على أعلى ملاءاتها تعطيه بها ، ويدخل الأطفال فلا يصدقون أنفسهم ، ويسرون على أطراف أصابعهم ، والفرح في وجه كلارا لا تستطيع أن تكتمه ، حتى اذا استيقظ سيد ميران أخذ يداعب زوجته ، ونعلم أنه في سبيل أن يعود اليها قلبا وقالبا ... ثم جاءت « هما » . وقت على الباب ، فوقف سيد ميران لوقتتها ، وسخرت ثم مضت في طريقها فأسرع سيد ميران خلفها ، انها تبدل ملابسها لتخرج ، فاذا وقف سيد ميران في طريقها تحدثت . ثم أغرته ، وتجيء آهو لتخبره أن الطعام جاهز ، يأمرها أن تحمله اليه الى حجرة « هما » . ان « هما » تعاتبه أنها رأتها في حجرة آهو ، فاذا رد بأنها هي الأخرى زوجته ، ردت بسخرية : أجل الأولى والأخيرة . ان « هما » تفكر في ترك المنزل في التو واللحظة ، فقط لو وجدت من عشاقها العديدين واحدا يستطيع أن يوفر لها الحياة التي تعيشها في منزل سيد ميران ، من أسف أن الشباب فقراء وأن الأغنياء فقط هم العجائز ، انها لم تعد تطيق ، وها هي تعلن لسيد ميران أنها ان رأتها ثانية في حجرة آهو ، فسوف تغادر المنزل في الصباح وتعمل راقصة « آكان تهديدا أو أمنية » ؟ وبرغم الفحش الذي ينطلق من فم « هما » فان سيد ميران لا يرد الا بقوله هب أنه نسي أن آهو زوجته فهل يمكن أن ينسى أبوته ، ويكون الأولاد وآهو قد جاءوا على صياحها ، فتتظر اليهم بكل احتقار ، وتطلب « هما » أن يطلقها وترد آهو بل عليه أن يطلقها هي ، وتنفجر مشاجرة بين الغريمتين و « هما » هي التي تكييل ل « آهو » ، وسيد ميران يقسم ل « هما » أنها لن تخرج من منزله الا في نعشها ، كان سيد ميران ضائقا لأول مرة من « هما » لكنه كان يحبها وكان أيضا بخاف

من فضيحة ان سرحها ، فلا يجد من يصب عليه غضبه الا آهو ، فيقذفها بالساور ، وتسحب أولادها خارجة من الحجرة قائلة : هيا نذهب ، لقد حول عشق الشيوخ هذا الرجل الى مسخ ، وبينما يكون سيد ميران خارجا توقعه آهو ، انها تريد منه أن يوضح موقفها وموقف أولادها • فيقول لها : موتى ، فاذا قالت : والأولاد رد : في داهية هم أيضا ، فاذا قالت انهم أولادك أيضا تنصل منهم ومن أبوتهم • ويحملها حملا ويخرجها من الدار ويقف أمام الجيران صائحا بأنه سوف يطلقها في الغد ، ويقف أمام أولاده فيخبرهم أن أمهم ماتت ، وأن عليهم أن يتعايشوا مع زوجة أبيهم مثل عشرات ومئات الأطفال ، ويجلس سيد ميران يفكر في مصير آهو ويحدث نفسه باستهانة : لتمض عن طريقه ، انه لم يعد يستطيع •

لا ندرى أين ذهبت آهو ، لكن الأطفال يخرجون عن طورهم ، انهم يعلنون العصيان فيركلون الطعام الذى يقدم لهم ، و « هما » تشكو منهم لزوجها ، وها هو يرسم مستقبلهم من جديد ، ليخرج بهرام من المدرسة الى الدكان ، انه لم يلعب وهو في سنه ، وكلاهما سوف تجلس هي الأخرى في البيت ، ان « هما » ضائقة من الأطفال تحس أنها سوف تتورط في خدمة أربعة لم تلدهم ، انها ترجو سيد ميران أن يذهب فيصلح آهو ، انها لن تسكت وسوف تفضحه أمام أصدقائه ومعارفه ، لكن سيد ميران يرجوها ألا تحدثه في شأنها قط •

أما آهو فلم تكن قد خرجت من منزلها ، لقد انتقلت من حجرة الى حجرة حتى وصلت حجرتها دون أن يراها أحد في الفناء ، كانت تبكى وتضحك في آن واحد من هذا الوضع الذليل ، لم تكن تفكر في حسنات الطلاق أو سيئاته ، ولما علمت من أولادها أن زوجها كسر صندوق مجوهراتها قالت بغل انها سوف تعيش حتى ترى سيد و « هما » يشحذان سويا في الطرقات ، ثم أدركت أنها

تتحدث أمام غرباء فأمسكت و « هما » خلال ذلك كله لاتزال
تحدث سيد ميران في أن يطلقها هي ، وهو يقسم بالأيمان المغلظة أنه
لن يفرق بينهما الا الموت ، وترد « هما » بأنه لو مات قبلها فسوف
تدفن نفسها معه حية كما يفعل السيث الهنود (!!) ، ان سيد ميران
سوف ينهض في الصباح فيطلق آهو وينتهى الأمر •

ولكن سيد ميران دفع ثمن ظلمه لآهو غاليا في تلك الليلة ، فلم
يكذ ينتصف الليل حتى دهمت الشرطة منزله بحثا عن البضائع
المهربة ، قلب المنزل رأسا على عقب ثم انتقل الى الحجرات المؤجرة ،
وفي النهاية ضبطت البضائع في حجرة « هما » ، وأخذوا سيد
ميران ومضوا ، وبالرغم من أن سيد ميران كان يعلم في قرارة نفسه
أنه برىء ، الا أن الأمور لم تجري وفق ما يهوى ، وبرغم المصروفات
التي أنفقها الا أن التهمة ثبتت عليه وحكم عليه بالغرامة ولم يكن
الأمر سهلا بالنسبة لسيد ميران ، انه يدرك أن كل ما حدث له انما
حدث من تعديه على آهو بغير ذنب ، وها هو في اليوم الأخير لعودته
من المحكمة يشتري بعض الحلوى ، ويذهب الى حجرة آهو ثم
يستدعى « هما » وتجلس الأسرة التي لم تعد تجتمع الا في المصائب •
ونفهم من حديث سيد ميران أن أموره آخذة في التدهور ، ثم يقترح
أن تذهب الأسرة كلها الى نزهة في حديقة في اليوم التالي ، فاذا سأل
طفل : حديقتنا ؟ أدار سيد ميران وجهه قائلا : حديقة أخرى ، حديقتنا
بعيدة •



في صباح اليوم التالي تخرج الأسرة كلها الى الحديقة ، حينما
يصلون يتمدد سيد ميران تحت شجرة ، وتنطلق « هما » في الحديقة
هنا وهناك وتشغل بغناء بهرام الحزين الذي يعانى من حبه لابنة
المرأة الأرمنية جارتهم ، وتتحدث معه « هما » وتسدى اليه

التعليقات « طبعا » ويجدها الكاتب فرصة لكي يصف لنا الحديقة في الربيع في صفحات طويلة وكيف لا وخلفه تراث الأدب الفارسي في عشرة قرون وهو حافل بهذه الأوصاف ؟ الا أن ما يهمنا من هذه النزهة هو ذلك الحديث الطويل الذي دار بين سيد ميران وآهو •

لم تكن آهو تدرى من أين تبدأ الحديث ، كانت خائفة ومضطربة ، ثم تبدأ بأن تشكر الله على صحة سيد ميران بعد كل ما حدث ، ويشكو سيد ميران مما حاق به على أيدي عمال الحكومة ، ويشبر من طرف خفى الى « هما » ، انها مثل المرأة التي أرسلت الحكومة عمالها وحملوا زوجها لاعدامه واذا بها خلفه تصيح : ذلك المعطف الفلاني اياك أن تنسى أن تشتريه ، وتعلم آهو من زوجها أنه باع الحديقة وباع الأرض ، ويعترف سيد ميران أن كل ذلك من أجل المرأة التي لم يعد يستطيع أن يحدد متى يمكن أن يفكر فيها جديا ، وها هو مهدى الصغير يرى الدموع على وجه أبيه فيصمت ويقاوم البكاء وتسأله آهو : أهكذا كانت حياته دائما ؟ وأليس هذا هو ذنبه ، ويتشاغل سيد ميران بالحديث مع الطفل : هل تحب أمك ؟ نعم ويضرب الأمثال ، وهل تحب أباك فلا يجيب • وها هو سيد ميران في صحوة من ضميره يحدث زوجته قائلا : « أعلم أنني مدان منك بكل ذرة من وجودك ، أعلم بأنك حكمت على بآئني مذنب ؛ ذنبا مهما ثبت عنه ومهما كانت توبتي نصوحا ، فان أثر الظلم الذي حاق بك لن يمحي من قلبك أبدا • أنا أيضا حكمت على نفسي بآئني مذنب ، وأنا أيضا لا أكره نفسي فحسب بل أخاف منها ، أنا في نظرك وفي نظر كل من يحيطون بي ويعلمون شيئا عنى رجل فاجر وفاسق وغير مسؤول ، أما في نظر نفسي فأنا انسان مجنون سيء الحظ » وتجيبه زوجته انه عاشق ولا حرج على العاشق ، ويجيب : « أجل مرات كثيرة كنت أدخل من الباب وأنا مصمم على أن آتى الى حجرتك بين أولادى لكي أضع حدا لهذا الظلم ، لكننى بمجرد دخول الفناء أجد

نفسى قد اتجهت الى الناحيه الأخرى وسرت اليها عدوا « ... » أجل
يجب أن أعترف بينى وبين نفسى أننى الآن أختلف عن سيد ميران
الذى يعرفه الجميع » •

ان رفاقه فى المهنة دون أن يخطروه أو يعلموه قد اختاروا شخصا
آخر ليكون نقيبا لهم ؛ ولم يختاروا الا صديقه ميرزا نبى ، ويمضى
سيد ميران شوطا واسعا فى اعترافاته ، انه لا يستطيع أن ينام ما دامت
« هما » يقظة لقد توسل بالخمير ثم أدمن الأفيون بعد الشراب ،
واذا بأهو تخبره بأن الله غفور رحيم ، لكن ألا تعلم « هما » ذلك ؟
ألا تعلم أن زوجها انجرف فى تيار التهريب من أجلها ؟ لا ، انها
لا تعلم ، اذن لبقى سرا بيننا يا زوجى العزيز ، وبعد أن تعلم آهو
كل ذلك تجد فى نفسها الشجاعة لتسأله : وما المصير ؟ ألا تزال تفكر
أن « هما » تريدك لشخصك ؟ ألم تسمع قصة ذلك الرجل الأعمى
الذى عاد الى منزله ببدا خالية لأول مرة بعد الزواج بسبع سنوات
فعلمت زوجته أنه أعمى ؟ كانت كل مرة تنظر الى يده وهذه المرة
فقط نظرت الى عينه • لابد لسيد ميران من حل ، ليحرب أن يعيش
بعيدا عنها ، لماذا لا يرسلها عند أهلها أسبوعا ؟ ليحرب ، أجل
لكن هل آهو مستعدة للصفح عنه ؟ الصفح عنه فقط ؟ ان كل وجودها
يصبح حينذاك ملكا له •

لكن سيد ميران حين راح فى النوم أخذت آهو تفكر : أتكون
هذه لعبة جديدة من ألأعيب غرام الشيوخ ؟ كانت « هما » تمنع
بالرحلة بينما آهو تتجرع الحنظل من اعترافات زوجها ، وكان سيد
ميران غارقا فى لجة من أفكاره :

على أى شىء تعتمد علاقته بـ « هما » ؟ أينزل فى شراكها حتى
تقوده الى العدم ؟ لقد اقترح عليها بعد شرح طويل وجامع أن يقلعا

عن الشراب فوافقت لكنه أخفق عند أول لقاء معها دون شراب ، وهو يدعوها الى الاقتصاد فتجيب :

وهل تسير في الطرقات حافية أو عارية ؟ أنه يعلم أنه شيخ وأنه يرى شبابه الذاوى فى جسد تلك المرأة ورغبته فيها تزداد تأججا وعمقا بفعل الشيخوخة وفى قاموس الزمان ليس هناك معنى للتوقف والتقهقر محال ، انه يعلم تماما أنه يواجه طريقا مسدودا ، ويعلم تماما أن حياته مع هذه الحسناء لن تسير كسابق عهدها ، الا أنه يحس أيضا من أعماق قلبه أن حياته من بعدها لن تصبح أشد خواء وأكثر عذابا من جهنم فحسب ، بل سيكون كمصباح فى مهب الريح ، يعلم تماما أن « هما » لن تودع حياتها بعد طلاقها منه بل ستبدأ الحياة مع زوج آخر مناسب لها . أما « هما » فكانت ترتدى ملابسها بعد أن استحمت فى الحديقة وهى تكفر ، انها ان تركت سيد ميران لحظة واحدة خاليا فكأنها تسلم القط مفتاح الكرار ، من أسف أنها لم تسمع أحاديث سيد ميران مع زوجته ولم تعلم أية مؤامرة جديدة دبرت لها ، لو أنها لم تقم بتلك الألاعيب التى أبعدت بها الرجل عن زوجته وصورتها بصورة الشهيدة المظلومة ، أجل كم « كانت » سعيدة بذلك الحب الذى « كان » سيد ميران يخصصها به ، وكم سعدت حين أخذ منها صورة أولادها وخبأها فى مكان لا تعرفه ، وها هى تخاطب زوجها فجأة : ست سنوات مرت ، ست سنوات من الجنون وكأنها ستة أيام ... لكن ... ان الأيام تعزف لحن الفراق أيها العزيز . وكان يوما ، عادت الأسرة الى المنزل والآمال تملأ كل قلب كل فرد منها لكنه كان يوما واحدا فحسب .

كان سيد ميران اذن يفكر فى الخلاص من « هما » ، وكانت « هما » على ما هى عليه ، لا تدرك أن الأمور تغيرت وأن عليها أن تخفف قليلا من غلوائها ، الا أنها كانت تفكر فى أن الحياة مع

سيد ميران لم تعد ناسبها : وها هو سيد ميران يراها تسير في الشارع بثوب مكشوف مما عرضها لمعاكسة الرائح والغادي ، ويدخل خلفها الحجره نائرا : هل جاء الدور على شرفه ؟ ولا تحاول « هما » أن تهدى سيد ميران كما كانت تفعل ، انها تلج في الخصومة ، أجل انها قضت على حياته وتريد أن تقضى على شرفه ، ويشير سيد ميران الى الشارع : اذن الى الشارع الذى منه آتيت ، وتجمع ملايسها فيرق قلب سيد ميران فيهبها كل ما اشتراه لها وتراجع : لن تحمل الا ما تسمح به آهو هانم ، لقد ملت الحياة في هذا المنزل آهو حزينه ، وهى خائفة ، ثم انها منذ اليوم الأول كانت تدرك أن سيد ميران لا يناسبها ، ورغم صمت سيد ميران فان « هما » تنفذ تهديدها وتخرج واذا بسيد ميران يدرك فجأة أن لها أهلا ، عليه أن يرسل لعمها فيضع يده في يده وينتهى الأمر •

وحتى المساء لم تعد « هما » ، ويكلف سيد ميران خورشيد بالبحث عنها ، وتخرج هى الأخرى بعد أن تقول لسيد ميران « المرأة التى تجعل من حبها أنشودة تخنق بها الرجل لا تلبث أن تختنق هى بنفس الأنشودة » الا أنها تغيب ، وسيد ميران قلق دائم النظر فى ساعته ، فلا يجد بدا من الاستعانة بزواج آكرم بعد أن أخبروه أنه بوليس سرى ، وفى الطريق بينما يبحثان تحدثت حادثة مضحكة مبكية ، واذا بزواج آكرم الغشوم يشير الى امرأة عارية الذراع تقف فى نافذة منزل مشبوه ، ويصيح بسيد ميران : هذه هى امرأة عارية الذراع ، وكأن هذه الصفة لا تنطبق من بين كل نساء كرمانشاه الا على « هما » ويصمم سيد ميران على طلاق « هما » ، لن يستطيع أن يرفع وجهه فى أحد من المنزل الا اذا طلقها ، ويمضى الى الشيخ فينطق اليمين ويكتب الوثيقة لكنه يرجى التوقيع الى اليوم التالى •

وعاد الى المنزل فألقى بالخبر الى آهو ، ماذا ؟ مستحيل ، وهاجت

النسوة ، زوجها ؟ زوجها لها مرة ثانية ؟ انها لا تصدق ، أخذت تنظر اليه كتاجر ردت اليه بضاعة فقد الأمل فيها ، وفي الليل تحلق الأولاد حول أبيهم وقضوا ليلة لم تسمح « هما » ولم يسمح الدهر بأن يقضوا مثلها من زمن طويل ، وفي اليوم التالي ، دخل ميرزا نبي يجر خلفه « هما » ، كانت قد أمضت اليوم الأول في منزل حسين خان ، وفي الصباح لقيت ميرزا نبي ، ويرد سيد ميران : لكن لحسن الحظ أو لسوءه أن الأمر قد انتهى ، سبق السيف العزل ، لا هذه المرأة زوجتي ولا أنا زوجها « ويهت ميرزا نبي ، لكن كل الأطفال يؤيدون الخبر ، ويأتى عم « هما » وهى مختبئة فى حجرة خورشيد ، بينما كان جالسا مع عمها انطلقت أحاديث النسوة ان ميرزا نبي راودها عن نفسها وأبدى استعدادة للزواج منها ان طلقت ، وها هو العم يرجو سيد ميران أن يقتلها ولا يطلقها ، ويطلب منها أن تذهب معه الى القرية فتسب القرية وأهل القرية بطريقة لا تثير فى نفس سيد ميران الا الضحك ، وتطلب من سيد مفتاح حجرتها بدلال يخرجها عن طوره وينسيه كل ما كان وينسيه أنها أصبحت حراما عليه ، ويمضى معها الى الحجرة بينما آهو تضرب كفا بكف قائلة : كم من الأشياء العظيمة لم نرها بهذه العيون الصغيرة •

صممت آهو على أن تحذف سيد ميران من حياتها الى الأبد ، وأن تهتم فقط بأولادها ، وتعود كلارا من المدرسة شاكية لأمها من شاب يلاحقها ، ولا تظن الأم الا سوءا ، ان سلوك « هما » يؤثر فى ابنتها ، أين القانون الذى يحمى النساء فى البيوت حتى يحمى البنات فى الشوارع ؟ لكن الأمر كان على عكس ما ظنت آهو : ان الشاب جاد ، وقد أرسل لخطبة الفتاة ، وتحدث سيد ميران فيحدثها بكل ود ، ان طلاق « هما » سوف يكون نهائيا حين يحضر عمها المحصول ، وتعطيه آهو ما ادخرته يستعين به على أحواله ، ثم تحدثه عن أمر كلارا فنعلم أن الشاب على يسار ، وتتقارب الأسرتان وتدعوا

أسرة الشاب أسرة الفتاة الى نزهة ، وفي النزهة نفاجأ بـ « هما »
تغرى الشاب المتقدم للفتاة والشاب يستجيب لاغرائها ، وعندما يعود
الجميع الى المنزل تخبر « هما » سيد ميران أن الشاب ليس جادا
وهو يريد لها هي ، ويتحدث سيد بما صك مسامعه من صفات الشاب
الذميمة ، وتفشل الخطبة ♦



ينتقل بنا الكاتب بعد ذلك الى الحديث عن حياة سيد ميران
خارج منزله لنعلم من أحواله ما خفى علينا ولنطالع جانبا من جوانب
التطور الاجتماعى فى ايران فى تلك الفترة ♦ وبالرغم من اختيار
ميرزا نبي تقييا للخبازين الا أنه لم يستطع أن يقوم بدور سيد ميران
فى الدفاع عن أبناء مهنته ، ويسوق المؤلف بعض الحوادث التى أدت
اليها القرارات الجديدة مثل القرار الذى صدر بضرورة الحصول
على تصريح بدفن الموتى ♦

ويمرض سيد ميران ، وفي مرضه كان رجل غامض يزوره ،
وبعد أن مر الشتاء وتحسنت صحة سيد ميران ، قرر فجأة أن يقوم
بزيارة مع « هما » الى الأعتاب المقدسة فى « قم » ولا تملك « آهو »
الا أن تمكث لتحافظ على أثاث منزلها وتبصر أولادها بعنق الكارثة ،
والدهم ضل ولا أمل هناك فى أن يهتدى ، ويغيب سيد ميران ،
وبينما كانت آهو تكاد تهلك قلعا ، كان سيد ميران مع ربة الحسن
والجمال بين قم وقزوین وهمدان ، وحين عادا كانت « هما » ترتدى
معظفا من الجلد لا تدرى آهو كم يكون ثمنه ♦

كل هذه الأحداث كان لها تأثيرها فى دكان سيد ميران ، فقد
تركه عامله « حبيب » عندما رأى صاحب المال لا يهتم به ، ويجلس

سيد ميران في دكانه لا يفكر الا في « هما » ، انتهى الأمر ولا فكاك ، المهم الآن أن يتخلص من آهو وأولادها وأن يذهب مع « هما » الى مكان لا يصل اليه حتى خيال كتاب القصص ، كان سيد ميران يفكر في زيادة موارد المالية ، انه يسرح العمال ، ينقص الوزن ويزيد السعر ، يفكر في أن يترك هذا كله ويستأجر أرضاً في الريف يزرعها وينتهي ، وها هم العمال الباقون يفرون واحداً بعد الآخر فلم يكن أحد يأمن على نفسه في وضع سيد ميران ، ثم تتوالى عليه انذارات الضرائب ، اذ كان في غمرة غرامه قد نسى أن للدولة حقوقاً ، وهو في خلال تلك المصائب لا يجد رفيقاً يثبته همومه الا ميرزا نبي ، « وهما » تبصره بأن ميرزا نبي ليس صديقه وأنه هو الذي كان يحرضها على الطلاق ، وتطلب منه أن يمنع من دخول المنزل ، وتظهر الغيرة على عمله ، انها مستعدة لأن تعمل معه في الدكان ، ألم تكن آهو تفعل ذلك قبل أن ترزق الأطفال ؟ وكانت « هما » تحدث سيد ميران كلما حدثها عن ضرورة ردها الى عصمته رسمياً عن الحب الذي تكنه له وماذا تجدى ورقة ؟ وتعيش الأسرة فترة من الزمن في راحة ، سيد ميران يحاول أن يصلح ما أفسده الدهر ، وآهو وقد فقدت الأمل تجد ورقة أثناء تنظيف حجرة سيد ميران فتسرع في أثر الدجالين ، ثم تحدث الحادثة التي تهز مركز سيد ميران من أساسه .

هجم موظفو التسعيرة ذات ظهيرة على المحل فوجدوا الخبز ناقص الوزن ، ان سيد ميران يعلم أن الخبز ليس ناقص الوزن ، لقد تجرأ ولم يعد يعطى موظفي التسعيرة حصتهم من الخبز ، فاذا وصل سيد ميران الى الدكان وجد خبز الظهيرة يباع بثلاث الشمن وبأمر التسعيرة ، ثم أمر باغلاق المحل لمدة شهر فاذا عاد تسحب الرخصة نهائياً .

ان سيد ميران يسب ويلعن ثم يسعى ثم يهدأ ، كان الأمر في رأيه أن الحكومة تسعى لجعل الخبز نادراً حتى تصرف الشعب عن

متابعة أخبار الحرب « العالمية الثانية » . وهكذا اغلق الدكان وتفرق العمال كل منهم يبحث عن عمل « لأنهم لا يستطيعون الاتفاق من مدخراتهم لأنهم ببساطة لا يدخرون شيئا » أما النقابة فلم تستطع شيئا لرئيسها السابق ذلك لأن الموظفين غرباء عن المدينة ولا يعرفون المجاملة .

وهكذا قبع سيد ميران في منزله ، وبالرغم من انقضاء الشهر لم يعد يريد الخروج من المنزل ، ويلج عليه معارفه فلا يخضع ، وتطلب منه صاحبة الدكان اخلاءه ، ويأتى ميرزا نبى ، فيخبره سيد ميران أنه سوف يترك هذا العمل ، وترد آهو بأن مخلة الشحاذة جاهزة ، ولا يجب سيد ميران الا بأن الشحاذة في ديار الغرباء أكرم من أن يكون المرء ذليلا بين أهله ، ثم ان الدعوة المركزية أثرت في الأقاليم فكسد حالها لكى تبدو العاصمة بمظهر خلاب أمام الأجانب ، ويجب سيد ميران بأن الذى لا يستطيع أن يكسب عيشه بين أهله لا يستطيع أن يكسبه بين الأجانب ، وهكذا يدور الجميع في حلقة مفرغة فهم لا يعلمون أن سيد ميران بسبيل اعلان افلاسه ، وها هو يعلن أنه مدين بمبلغ ضخيم ، وأنه اقترض بالربا ورهن المنزل ، بل ان المنزل لا يكفى القرض ، ونعلم أن ذلك الرجل الغامض الذى كان يزوره أثناء مرضه هو دائئه ، ولا يجد ميرزا نبى أمامه الا آهو المسكينة يعاتبها ، كيف وصل الحال بسيد ميران الى ما وصل اليه ، فتنبى باكية : ماذا تفعل انها محترقة محترقة ان تكلمت وان صتت ، انها ليست الا ضفدعة ان أخرجت رأسها من تحت الماء أهيت ، وان وضعته تحت الماء اختنقت ، ويحاول ميرزا نبى أن يصلح من شأن سيد ميران قدر المستطاع ، فها هو يقدم اليه الاقتراحات لينهض من كبوته ، الا أن الظروف مع ذلك كله كانت ضد سيد ميران .

ان العرب تؤثر في كرمائشاه والقحط يحيط بها من كل جانب ،

والوباء يحصد سكان المدينة حصدا ، وسيد ميران يوسط الناس لحل مشاكله مع مالكة الدكان ، لكن سيد ميران لا يزال يعزف على وتر الرحيل ، الناس جميعا يتحدثون عن الحرب وهو لا يزال يتحدث عن الحب ، انه يتذكر حكايات نجاح من هاجروا الى طهران ، انه سيأخذ معه « هما » فقط لأنها « رأس واحدة » وبقية الأسرة تبقى حتى يأذن الله بالفرج . واذا نظرنا الى المنزل وجدنا مكانه كالفران التي تهرب من السفينة قبل الغرق ، فأهو مع أولادها في مسقط رأسهم سراب ، وقد صنعت « هما » قبل رحيلها بقولها ان حياتها مع سيد ميران حرام ، وسرعان ما تسرب الأمر الى أهل المنزل جميعا فلم يعد أمام سيد الا أن يردها في مدينة أخرى .

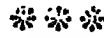
لم يبق في المنزل كله سوى خورشيد وسيد ميران « وهما » ، وها هو سيد ميران يقضى مع « هما » ليلة كليلة امرئ القيس حين وصله خبر مقتل أبيه ، انهما يشربان على ذكرى مسرات طهران الآتية والزمن الذي سيبدأ من جديد ، كل شيء انتهى المنزل والدكان والحديقة والمدرجات وغدا يبيع أثاث المنزل ويرحلان .

وكان صباح بيع فيه أثاث المنزل ، ويحزم حوائجه مع « هما » ويضع كل ما معه في كيس يضعه في إحدى حقائب « هما » ويكتب خطابا لآهو ويترك تقودا مع الخطاب على باب حجرتها ، أما « هما » فكانت تفكر في الاتصال بذلك الحبيب الذي تردد اسمه طوال الرواية « البرز » ونعلم أنه سائق عربة ، ولم يكن سيد ميران يعلم أن خورشيد أسرعت الى آهو تخبرها .

وتعود آهو صارخة مولولة نادية المنزل الذي انهار ، وتجد الخطاب ، انه اعتذار من سيد ميران ووداع يبدو نهائيا ، وبالرغم من الضربة الأليسة التي تلقتها آهو أسرعت الى محطة العربات ولحقتهم

وصاحت بهم : لتسر العربدة لكن على جثتى : وتشتتم سيد ميران كسا لم تتبتمه فى حيانها ، وتجذب الرجل فلا يجد بدا من الركوب معها . كانت المدينة فى هرج وفوضى ، الناس يتكأأون على محلات الألعمة ، وحين يصل سيد ميران الى المنزل يجلس على عتبه ، وينظر الى آهو قائلا : لم تكونى قط هكذا ، وترد : من الآن فصاعدا سوف أكون هكذا وأكثر ، وفى تلك اللحظة يأتى عدد من العمال بالسرب الجديد الذى كان قد أوصى به من أجل « هما » ويرجى العمال الى الغد ، لكن الأسواق معطلة فى الغد فالانجليز يزحفون على كرمانشاه والمدينة حبلى بألف فتنة وفتنة •

وتصل خورشيد من المحطة ، لم ترض « هما » أن تعود معها ، وركبت مع شاب أشقر أزرق العينين ، وتبلغ خورشيد آخر كلسات « هما » لسيد ميران : « خورشيد هانم ، ان الأمر الصعب هو أن تسامحنى آهو هانم ، لكن « هما » أكثر شبابا من أن تعطى هذه الأمور أية أهمية ، ليكن كل ما يحدث فى هذه الدنيا الجسيلة جيلا ، أما فى الآخرة فليكن ما يكون » ويسمع سيد ميران وكأنه يسمع الحكم باعدامه ولا يملك الا أن يقول : « لقد كنت أنا لها فلن كانت هى يا ترى لتذهب فى إيمان الله » لقد ذهبت « هما » بكل ما تبقى من مال لسيد ميران ، وها هو يطلب من زوجته أن تدفع مبلغا من المال لصبيان النجار وأن توقد المصباح • ولم تدر آهو هانم هل تضحك أم تبكى ؟ بالتأكيد ان أذنها لم تخطئ ، ففى صوت زوجها بالرغم من أن الحب القديم لا يبدو ، الا أن رنة الأنس القديم تتجلى فيه •



هذه هى رواية « زوج السيدة آهو » حاولت تقديمها بتلخيص شديد ، فالرواية حافلة بالألحان الداخلية والأحداث الفرعية والصور

الطبيعية لشتاء المدينة وصيفها وربيعها وخريفها • وأثر ذلك كله في شخصياتها ، تلك الشخصيات التي قدم المؤلف أدق سماتها وملامحها بحيث بعث فيها حياة غنية خصبة فكأنها شخصيات حية يمكن أن نلتقي بها • وقد اكتسبت الرواية تلك الشعبية الهائلة في إيران لأنها عالجت موضوعا مطروقا بطريقة جديدة •

وقد ذكر بعض النقاد أن الكاتب كتب روايته بتأثير من خلفية ثقافية من حزب توده « الحزب الشيوعي الإيراني » إلا أن هذا الأثر باهت وضعيف ، فبالرغم من أن سيد ميران من أرباب المهن إلا أن كل ما يتصل بالعمال لا يعدو صفحات قليلة جدا من الرواية ، ويفصح الكاتب كثيرا عن عداوته للدين بطريقة مضحكة ويحاول أن يقنعنا أن كل الظلم الذي حاق بآهو مرده إلى الدين ، ولكن اقتناعه هذا لا يصادف قبولاً لأنه واضح التجنى وصادر عن غرض ويدل على خطأ بشع في فهم الاسلام •

والرواية حافلة بالخطب والحوار المطول ودروس الفلسفة والعرفان وعلم النفس والتربية وملخصات الكتب والمقتبسات منها ، ولم يكن كل ذلك إلا لكي يستعرض الكاتب لعصلاته الثقافية فأساء إلى البناء الفني للرواية من حيث أراد أن يخدم نفسه •

وبالرغم من أن الرواية تجرى في كرمانشاه وأن بعض النقاد قد غالى فزعم أن الرواية تأريخ اجتماعي للمدينة في فترة ما بين الحريين إلا أننا ننسى كرمانشاه ، أي أن الرواية من الممكن أن تحدث في أي مكان ، ناهيك عن لغة الأبطال فبالرغم من المصطلحات الشعبية ، إلا أن لغة الأبطال متأرجحة إلى حد كبير فهم يتحدثون بالعامية حيناً وبلغة أدبية كلاسيكية حيناً آخر ، وبلغة شاعرة أحيانا ، وهذا طبقاً لما يتطلبه الموقف والحادثة ، وقد علمت أخيراً أن الرواية • حولت

الى فيلم فى السينما الايرانية ، ولاشك أنها فرصة ذهبية لمخرج الفيلم
لحشوه بمشاهد الجنس محتجا بأنه لم يتعد عن الرواية ♦

تبقى للكاتب بعد ذلك تلك المواقف الانسانية العظيمة ، وصورة
المنزل الذى يحتوى على زوجتين ، تلك الصورة التى نشاهدها فى كل
منزل فى الشرق يحتوى على هذه الآفة ، وفى تحليله لشخصية السيدة
أهو كان شديد التوفيق وقدم للأدب العالمى شخصية جديدة وخالدة ،
والكاتب أهدي الرواية الى أمه فهل يدل هذا على شىء ما ؟

وقد استطرد الكاتب فى أحيان كثيرة مما جعل روايته نبلغ هذا
الحجم ، وكان من الممكن أن يختصر الحوار وبعض مشاهد وصف
الطبيعة فلا تصل الرواية الى هذا الحجم دون أن تخسر شيئا يذكر
من أحداثها ♦

٦ - طول الليل

جمال مير صادقى

جمال مير صادقى من الكتاب الشبان المعاصرين فى ايران ، بعد مع جماعة من الشبان أمثال : بهرام صادقى وغلا محسن سامدى ومحمود دولت آبادى ونادر ابراهيمى طليعة من يكتبون القصة والرواية والنقد الأدبى فى ايران حاليا . له عدة مجموعات قصصية ، أهمها : الأميرة ذات العين الخضراء وعيناي متعبتان ، ورواية طول الليل من أهم الروايات التى ظهرت فى السنوات العشر الأخيرة « ظهرت طبعتها الأولى » سنة ١٣٤٩ هـ . ش . (١٩٧٠ م) .

ويتميز جمال مير صادقى فى قصه بنظرة نافذة ، ويعد من أهم الكتاب الذين انتبهوا الى حركة تفاعل المجتمع اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا والى تأثير ذلك فى نمو الشخصية الإيرانية ، كما يعد من أوائل من بنوا رواياتهم على مواقف حياتية لا مواقف فكرية ، انه فى رأى الشاعر الكاتب الناقد الايرانى محمود كيانوش : يود أن يقول حذار ، انكم تعينون فى هذا المجتمع المضطرب الذى مات فيه العدالة ، ان

الفساد هو نتيجه العفر ، والفقر نتاج لانعدام العدالة الاجتماعية .
وليس السر في نفس الانسان بل هو نتيجة ظروفه ، وفي مثل هذه
البيئة . اما ان تكون سيئا وبعبس ، واما ان يكون طيبا وبموت ، وعلى
اى حال فانك اذا كنت سيئا ايضا فلن يكون محدود العافية .

كانت زيارتي الأولى الى ايران بعد أن قرأت الروايات التي سبق
عرضها ، كنت ذاهبا وفي ذهني روايات هدايت وجمالزاده وحجازي
وأفغانى ، قلت في ذهني وأنا أهبط الى الأرض التي طالما عاشتها
بخيالي لأر الى أى مدى كانت نظرة الكاتب الايراني صادقة في التعبير
عن بيئته . كنت أتصور أنني لن ألتقي في ايران الا برجال يلبسون
الملابس الايرانية التقليدية يمسون بالمساج ويتحدثون بالآيات
القرآنية والأحاديث النبوية أو بأشعار سعدى وحافظ ، وكنت أظن
أننى لن ألتقي في شوارع طهران وأسواقها الا بنساء محجبات مختلفات
من قبة الرأس الى أخمص القدم ، ان أردن اغراء أزحن طرفا من
العباءة عن عين بها حور ، كنت أظن أنني لن ألتقي بايراني الا وتناقش
معى في قضايا فكرية عميقة ومجردة ، كنت أظن أنني لن ألتقي
الا بالراوى في « الورود التي تنبت في جهنم » أو محمود في « دار
المجانين » أو حسين خان في زيبا أو سيد ميران في « زوج السيدة
آهو » ، كنت أتصور الشارع الايراني كما قرأت عنه عند هدايت
وجمالزاده ، وكنت أتصور مسجد سهسالار غاصا بالطلاب
الدينين بعباءاتهم السوداء وعماماتهم ولحيهم الطويلة ونظراتهم
النفاذة ينتشرون في أروقة المسجد وهم يتهايمسون ثم لا تلبث أن تقوم
مظاهرة ، كنت أتصور البيت الايراني كتيها حزينا لا يخلو من قارئ
للروضة يقص مآسى آل البيت وقد تحلق حوله أهل المنزل ليكون
وينوحون .

ثم ذهبت الى ايران فوجدت عالمين وحياتين : العالم الذى كنت
أظنه طاغيا وجدته موجودا بالفعل ، لكن في أطراف المدن وفي أحيائها

القديسة يتوارى خجلاً أو محافظة ويفسح الطريق لعالم لا يختلف في مظهره في قليل أو كثير عن العالم الموجود في بقية العواصم الكبرى ، وتذكرت أن عواصم الشرق بلا استثناء تحتوى على هذين العالمين معا تفصل بينهما بوابة أو سوق أو حى تجارى يقسم المدينة الى قسمين، وتذكرت أول زيارة قمت بها الى « دلهى » وأنا مبهور بشوارع المدينة الجديدة ومظاهر الحياة فيها حتى اذا عبرت البوابة الى دلهى القديسة وجدت دلهى أخرى بكل ما كانت تعنيه لى وكما كنت أتصورها وهكذا كان الأمر في طهران وشيراز وأصفهان ومشهد وتبريز . نهارا تحملنا اهتماماتنا الى أسواق طهران القديمة ومساجدها وحى الامام عبد العظيم ومدينة الرى القديمة ، وفى الليل تتخفف من أعباء النهار فتحملنا العربات الى شميران ودربند ونياوران فاذا بنا أمام عالم آخر بحيث يتعجب المرء : هؤلاء الذين يشربون ويرقصون على أنغام الموسيقى الصاخبة والألحان الغريبة ويرتدون أحدث الأزياء هم أولاد نفس أولئك الذين كانوا يجلسون فى السوق فى الصباح ؟ وأولاء الفتيات اللائى يرتدين أحدث الأزياء ويملأن المنتديات على طول شميران هم بنات أولئك اللائى كن فى الصباح يتسحن فى ضريح الامام عبد العظيم ويكيبن وينتجن ؟ •

وفى زيارات تالية الى ايران أتيت لى الفرصة للتعرف الى البيت الايرانى عن كثب ، فوجدت نفس العالمين : عالم « شهباز » فى الجنوب من طهران حيث لا تجرأ طفلة فى الخامسة من عمرها على الخروج من المنزل دون حجاب رغم أننى لم أجد قارئ روضة ولا أحدا ييكى بل وجدت جهاز التلفزيون والأسرة مهتمة بمباريات الدورة الآسيوية للكرة ، وان كان رب الأسرة يجلس على بعد يداعب حبات مسبخته ويحوقل • ودخلت بيوتا فى الشمال ما ان يهل الضيف حتى تقدم له المشروبات الروحية وتنبعث الموسيقى من جهاز « كاسيت » بينما

من الممكن للشباب أن يشرب كوبا من البيرة أو يدخن في حضرة والده ، وشهدت حفل زفاف في أحد الفنادق ، كان جانب من المدعوات يلبس فساتين السهرة العارية وجانب آخر يرتدى الطراحة أو العباءة الايرانية التقليدية ، وكل جلس مع من هم في مثل زيه ، وكلهن أيضا من الشابات •

لم تلبث هذه المشاهدات أن أثارت سؤالاً آخر في نفسى : إيران التى وصفها الكتاب الذين ذكرتهم موجودة بالفعل والدليل بقاياها التى لاتزال موجودة ، لكن أين التعبير عن إيران الجديدة وعن الصراع الذى محالة قائم بين الجديد والقديم ؟ أين الكتاب الشبان فى هذا المجتمع الذى لاشك يقدم مادة حية صالحة للكتابة ؟ حاولت أن أجد اجابة على سؤالى عند بعض أساتذة الأدب الايرانيين ، فلم أجد جوابا لأن أساتذة الأدب هناك لا يزالون يرون ان الاهتمام بفن الرواية أو الشعر المعاصر مما يفض من القيمة ويقلل من الكرامة ، وكان من المستحيل أن أسأل شابا من هؤلاء : هل قرأ عملا أدبيا يصور نفسه ، فلا المكان ولا المجال مما كانا يسمحان بذلك فضلا عن روح الحذر المعروفة عند الشباب الايراني عندما يتحدثون مع أجنبى •

وأخيرا وقعت فى يدى مجلة ايرانية تحتوى على مقالة كتبها المستشرق الروسى كميروف • والايرانيون أيضا مشهورون بحساسيتهم الشديدة تجاه كل ما يكتبه الأوربيون عن أدبهم حتى ولو كان الأدب المعاصر ، ولولا ما كتب فى أوروبا عن هدايت ما عرفه أحد داخل إيران نفسها ، كان مقال كميروف يحتوى على تحليل لموضوع الصراع بين القديم والجديد فى إيران من خلال ثلاث روايات : الأولى زوج السيدة آهو التى عرضتها آفغا ، والثانية « افسانه وافسون أى خرافة وهباء » لمحمد على اسلامى ندوشن والتى كتبها باسم مستعار هو م • ديدهور والثالثة : طول الليل لجمال

مير صادقى ، وقمت الى مكتبتي وكم كانت سعادتي عظيمة حين وجدت الرواية الثالثة وقلت : لأختم بها هذا الكتاب •



مباشرة وبدون أية مقدمات يزج بنا المؤلف من الصفحة الأولى في موضوع الرواية ، ويقدم لنا عالين مختلفين في مدينة طهران ، العالم القديم وتمثله أسرة بطل الرواية « كمال » والعالم الجديد وتمثله أسرة زميله في الدراسة وصديقه « منوچهر » • وتفتتح الرواية وكمال ومنوچهر خارجان من المدرسة الثانوية والشوارع مزدحمة بالسيارات والمارة والطلبة ، بطل الرواية يبحث بعينه وسط جموع الطلبة عن رفيقه ، ان كمال متعلق برفيقه هذا لأنه يمثل كل ما يتوق اليه دون أن يستطيع أن يكونه ، أما الرفيق فقد تعلق بكمال لنموغ الأخير وللمساعدات التي يقدمها اليه في الدراسة ، نحن أمام نوع من صداقة المتناقضات وهي ميدان صالح جدا لمثل هذه الرواية التي تقوم على وصف هذه المتناقضات وتأثيرها في حياة الذين يعيشون داخلها •

وتقدم لنا الرواية مباشرة أيضا وبوضوح رؤية قل أن يصادفنا في رواية إيرانية معاصرة أول صدام بين العالمين ان كل ما يشغل كمال هو مجلس قراءة الروضة والاحتفال المزمع القيام به في منزل عمه ليلا حيث تدق الصدور ، ويضرب المحتفلون أنفسهم بالقمة (وهي سلاح أقصر من السيف) ندما على أنهم منذ أربعة عشر قرنا خذلوا الحسين عليه السلام وتركوه يقتل وحده في صحراء كربلاء ، واليوم هو يوم مقتله رضى الله عنه ويوم الذكرى ، وكمال يسير في الطريق لا هم له الا استعراض الجماعات التي تسير براياتها وشاراتهما وعلاماتها في طريقها الى أماكن الاحتفالات كان كمال لا يزال منبهرا بمثل هذه الاستعراضات يفاضل بينها ، بينما كان منوچهر خالي الذهن تماما لا يدري حتى معاني المصطلحات التي يتحدث عنها كمال ،

ولا يرى أهمية لهذا الموضوع من ألفه الى يائه ، ان كل ما يشغله هو ذلك الحفل الراقص الذى يزمع القيام به ليلا ، وان كل ما يضايقه هو أن جميع الملاهى ودور السينما مغلقة ، فاذا اعترض كمال مذعورا على حفل راقص يقام فى ليلة القتل ، هز منوچهر كنفه استهانة قائلا :
« سيبك يا بنى » ♦

وفترق الصديقان بعد أن يعطيه منوچهر كتابا ، ان كمال يأخذ منه الكتاب ، ويمضى فى طريقه يفكر فى الكتب الذى يقدمها له منوچهر كيف أنه لم يكن يقرأ الا الكتب الدينية ، وكيف أن منوچهر سخر منه ودله على نوع من الكتب لا يقل أهمية عن هذه الكتب الدينية وكيف أنه لم يستطع أن يتم الكتاب الأول ، لكنه لم يلبث أن تقدم فى قراءة هذه الكتب ، العالم الذى فتحته أمامه هذه الكتب كان يتعارض مع العالم الذى كان يحدثه عنه والده تماما ، ولأول مرة بدأ كمال يعيد النظر فى ما تلقاه عن والده ♦

ان كمال وهو ماض الى منزله لا يسرع فى السير كما كانت عاداته فى الليالى التى تقام فيها احتفالات عاشوراء ، يمضى حثيثا غارقا فى أفكاره فى هذا الحى القديم « التى هدمت معظم منازلها لأن أصحابها هجروها الى شمال المدينة » ، ويدخل كمال منزله وهو ضائق ، انه لا يود أن يذهب الى الاحتفالات التى تقام فى منزل عمه ، حتى اللذة التى كان يحسها وهو يوزع الشاي على النسوة لا يريدتها ♦ وفى الصباح نزداد علما بمنزل كمال ونظام الحياة فيه : المناقشات والمشاحنات التى لا تنتهى بين والده ووالدته وخلالها تتبادل بالطبع أقذع الألفاظ ، شك والدته فى الزيارة التى يقوم بها والده أسبوعيا الى مدينة « قم » الدينية وحيدا واصرارها على أن تذهب معه ، وكمال يتدخل لاقناع والده باصطحابها لكن والده يحدثه كما يحدث الكلب ويهدده بالضرب ، وكمال فى دهشة : لماذا يذهب والده مرتين فى

العام الى مشهد ومرة الى كربلاء ويذهب أسبوعيا الى « قم » ثم يشكو من كساد السوق ومن الخراب العاجل الذى سوف يحقق به بمجرد أنه ينفق على كمال فى المدرسة ؟ ان صورة الوالد تهتز فى نظر كمال وتهتز معها كل معتقداته ، أليس هو الوالد الذى تسيطر عليه نزعة التجارية فلا يسمح له بمواصلة تعليمه الا بعد الحاح والا بعد التزام منه بأن يقضى الأجازة كلها فى مسك حسابات دكاكبه العديدة ، حتى اذا عاد الى المنزل التزم بحمل أخيه الصغير ؟ أليس هو الوالد الذى يحاسبه حساب الملكين على الدقيقة التى يغيبها فى طريق عودته الى المنزل وكأنه فتاة يخشى عليها السقوط ؟ ان الفخر الوحيد الذى يفخر به أبوه بالنسبة اليه هو أن صوته جميل فى قراءة الروضة وأن أصدقاءه يلحون عليه فى احضاره معه الى احتفالاتهم ، وما هو مجلس الروضة هذا ؟ كل من تسيل دماؤه أكثر يكون أكثر تقوى وبطولة ؟ ومن هم أبطال هذه الجلسة ؟ أحدهم يفتح مقهاه لألعاب القمار والآخر « فتوة » يحميه ، وابن عمه الأكبر الذى يختلس النظر الى أئداء النسوة وفى مجلس الروضة ؟ وأولئك الفقراء الذين يتوافدون على منزل عمه من أجل الطعام فيطردون من على الباب طرد الكلاب لأن الطعام فقط للضيوف والمحاسيب ؟ وذلك الضرب بالقمة الذين يقومون به بالرغم من تجريمه ويرشون الشرطة لكى تغض الطرف ؟ ومنظر حوض الماء فى الصباح تطفوا عليه الخرق الملوثة بدماء القوم ؟ لقد أراد أن يدعو منوچهر لخصور الاحتفال ذات ليلة وتصور أن منوچهر سوف يقبل الدعوة شاكرا فاذا به يرد عليه بامتعاض : ماذا ؟ أتى لماذا ؟ لأرى وحشية هؤلاء الناس ؟ وكان الحفل الأخير الذى لم يطق فيه كمال الوجد الذى أمسك بتلابيه والهياج الذى أصابه ولولا أنه تسلل خارجا من الحفل لأسرع الى الحلاق يحلق له رأسه لكى يشارك فى ضرب القمة •

لقد اختلى فى حجرته تلك الليلة بكتاب من الكتب التى أعطاه

اياها منوچهر ، الا أنه قبل أن يشرع في القراءة مضى الى النافذة وأخذ ينصت الى أصوات النائحين والضارين على الصدر تأتي من بعد، سنوات طويلة وهو يحتفل معهم ، أما الآن فهو ينصت الى أصواتهم من خلف النافذة ، وأحس بحزن شديد بحيث ود لو ييكي *

في اليوم التالي كانت المرة الأولى التي يقوم فيها بصلاته قضاء ، وخرج الى المدرسة سعيدا لأن أحدا لم يفتن الى انسحابه من المجلس في الليلة الفائتة ، واذا باليوم عطلة « لوفاة أحد العظماء » ، ويجلس كمال بين زملائه كل منهم يقص : فيم قضى ليلة الأمس ؟ وكمال الذي قضى ليلته هاربا من مجلس الروضة يحاول أن يقرأ كتابا لا ينجو من سخريه زملائه ، لابد أنه ذهب لينوح ويدق الصدر، ويخرج كمال مع رفيقه ، انه ليس ضائقا من حديثه يستمع اليه ولا يحس بالحزن ، انهم يتحدثون عن أشياء لو سمعها أبوه لحكم عليهم بالكفر ولما تركه يعرفهم قط ، انهم يتحدثون عن السينما ولعب الورق ومطاردة الفتيات ، ويذهب الجميع الى منزل منوچهر حيث يشغل الجميع بلعب الورق بينما ينتحي كمال جانبا ويتأمل الحديقة « التي تصلح تماما لاقامة الاحتفالات الدينية » ويجلس بجوار الحوض يتأمل الطبيعة من حوله ، وتأتي « فرشته » أخت منوچهر ، فتاة جميلة تصغره قليلا ، سافرة الوجه عارية الساعد ، انها تتحدث الى كمال لكنه يود لو تواتيه الجرأة على تركها ، انها تحدثه بجرأة ، لكنه يرد على حديثها ردودا مقتضبة وهو مطرق الرأس قد احمر خجلا ، لماذا ينظر الى الأرض دائما هل فقد شيئا ؟ ما هذا ؟ ألا تدري أن هذا هو حسن الأدب وحسن الايمان ؟ كل من حوله يمدح هذه الخصال فما بال هذه الفتاة عارية الساعد تحتج على هذا ؟ كيف لا تخجل أو « تخاف » من جلوسها معه ؟ لماذا ينظر الى الأرض ؟ انه يود لو يستشهد بحديث نبوي لكنه لا يقوى ، كيف لا تسدح « فرشته » هذا السلوك ؟ ما هو الخطأ وما هو الصواب ؟

يكاد عقله يطير وهو يرى أن كل ما يسكن أن يجيب به الفتاة قد تضحك منه ، انها تتحدث عن مساعداته لمنوچهر في المدرسة ، وعن نبوغه في الرياضيات وهو لا يرد ، ماذا تريد ؟ وماذا تقصد ؟ ألم تطل الجلسة فوق اللازم ؟ ما لها ولباسه تنتقده ؟ لو يستطيع أن يقوم لصار بعد خطوتين أمام باب الخروج ، لكن فرشته لا تتركه يقوم حتى توضح أهدافها ، انها ضعيفة في الرياضيات تود أن يساعدها وهو يقبل ، ثم يتغلب على خجله قليلا قليلا ، وتحلته عن آخر فيلم شاهدته ... وتمر الجلسة •

أكانت الجلسة تمر دون أن تؤتى أكلها ؟ انها أول مرة يجلس مع فتاة لقد أصابت نظراتها من قلبه مقتلا ؟ أهو يحبها ؟ هل تحدث الآخرين بنفس الطريقة التي تحدثه بها ؟ بالتأكيد نعم ، اذن لماذا يفكر فيها كل هذا التفكير ؟ لماذا لا تغادر صورتها خياله أبدا ؟ كم هى جميلة ورقيقة كأنها واحدة من بطلات الروايات التي يعطيه اياها منوچهر ، لكن : هل من الممكن أن تختار كمال من بين كل الشباب الذين يحيطون بها وجميعهم أكثر منه أناقة وأبهى منظرا وأكثر لباقة ؟

ان كمال عائد الى منزله ، لكن كم يود ألا يذهب الى هذا السجن ، ما هذا المنزل وما هذه الشتائم المقذعة التي يتبادلها سكانه ؟ كم يود ألا يجلس الى مائدة الغداء ويرى هذا النجار المستمر بين والديه ، ويرتدى كمال ملابسه أنه يريد أن يمضى الى منزل فرشته « لم يقل منزل منوچهر » ، الا أنه تردد ، ماذا يقول لهم ولأى أمر جاء ؟ صرف نظره عن الذهاب واستمر يقطع الطرقات ، لا يلتفت نظره الا الثنائيات من الشباب والفتيات الذين يسرون في الشارع ، ويعود فيسلمه والده كتابا استعدادا للذهاب الى مجلس الروضة في منزل عمه ، أى روضة وأى كتاب ؟ ما له و « حلية المتقين » والحسينية

لما باقر؟ ما له وآداب لف العمامة ولبس النعل وحلاقة الرأس؟ ما له ومنزل عمه؟ نزهة ابنة عمه كانت تلعب معه منذ سنوات قليلة، أما الآن فلا تكاد تراه حتى تفر من أمامه كأنما أصابها مس من الجن، ان كمال لا يود الذهاب الى مجلس الروضة انه مريض، أجل مريض، والا فلماذا يضيق من كل ما كان يسبب له سعادة ولذة فيما مضى من زمن؟ ولم يذهب •

عندما خرج كمال من المدرسة في اليوم التالي مضى مع منوچهر الى منزله، لا يدري ماذا يحدث له كلما تفوه منوچهر باسم أخته، اضطراب يحتوى وجوده بأجمعه، انه يجلس مع منوچهر في منزله يحتويه خوف غامض ومبهم، لابد أن يمضى حالا عن هذا المنزل، لماذا اعتنى بهندامه في هذا اليوم؟ لماذا وافق على الذهاب مع منوچهر الى منزله عندما دعاه دون أدنى تردد؟ لكن منوچهر ووالدة منوچهر يحاولان بقدر الامكان أن يجعلوا كمال يحس بأنه في منزله، ويدور حوار بين الشابين، ان منوچهر يخطط للعطلة الصيفية لكن كمال لا يستطيع أن يفكر أن أمامه عطلة، انه مرتبط مع والده في الدكان، ان لم يفعل أخرجه من المدرسة، ويرد منوچهر: ليكن لماذا لا يفعل مثل «محمود» لقد انفصل عن أسرته وهو يعمل ويدرس في نفس الوقت، ويرى أن الأسرة رباط لا قيمة له ومع ذلك فهو لا يكبر كمال ومنوچهر الا بعامين فقط، ان منوچهر يعلم مستقبله أيضا عام واحد وينهى دراسته الثانوية، ثم يمضى الى أمريكا •

وتأتى فرشته، ويرتعد كمال، انه يود أن يسيطر على نفسه، أجل يسيطر على نفسه، ان الفتاة تتبادل مع أخيها حديثا كله مرح ودعابة، وكمال مشدود الى كل ما يرى، الى علاقات الأخوين معا، والى علاقتهما بأمهما والى الحلوى التى تقدم له والطريقة التى تقدم.

بها ، بهذا الصفاء الذى يسود جو المنزل كان يحس بأنه غريب ، رغم كل المحاولات التى تقوم بها أسرة صديقه لمحو هذا الشعور ، انهم يتحدثون بلغة لا يفهمها ولا يستطيع أن يتحدثها ، فلا يملك الا أن يضحك حينما يضحكون ويهز رأسه موافقا حينما يتحدثون ، ويعرض عليه منوچهر أن يذهب معا الى السينما ، لكن كمال يرفض رفضا قاطعا « كانت السينما فى نظره مكانا للفساد ، كانت تثير خوفه ، عندما كان يمر أمام احدى دور السينما كانت صور النساء العاريات والرجال المتأثقين تثير فى نفسه الكراهية ، أجل كل ذلك الى جوار ما سعه من أيه وعمه ، لا ، انه لن يستطيع » ويخرج الى الشارع وهو خائف ، انه لا يرفع عينيه عن أرداف النساء واهتزازاتها ، صدق أبوه ، ان كل من يخرج الى الطريق لابد أن يعود وقد ارتكب المعصية وفقد جزءا من دينه . ولم يستطع حين عاد الى المنزل أن يصلى بخلوص نية كما ينبغى .

ومع ذلك أخذوه معهم فى الأسبوع التالى الى السينما ، جرت فرشته من يده جرا ، ولم يملك لها دفعا ، عندما أفاق من حرجه وجد نفسه الى جوار فرشته والظلام يحيط بهما ، أحس برعب لكنه عندما اتهم الفيلم أحس بأنه كان فى حلم عميق وجميل ، لم يكن هناك نساء عاريات يغوين الرجال ، اذن كان أبوه وعمه يكذبان ، من أدراهما ؟ ينبغى أن يجرب الانسان كل شىء بنفسه ، لقد أثر فيه الفيلم كما لم يؤثر فيه أى كتاب قرأه من قبل ، ولا يملك كمال نفسه فيحدث أمه عن هذا الاكتشاف العظيم الذى اكتشفه متأخرا ، يتمنى لو أنها كانت معه وترجوه أن يخفض من صوته والا سمع والده ويرد بصوت عال : « ليسمع ، ما دام لم يذهب الى السينما ولا يدرى ما هى فلماذا يتحدث عنها بالسوء ؟ انه مخرف لا يفهم ، انه لا يفهم شيئا قط ، شيخ مخرف » ويسمع أباه يقرأ بصوت عال كتابا من تلك الكتب القديمة التى تروى معجزات الأئمة ، فلا يسلك

الا السخرية • وفي الأيام التالية كان كمال يحس بأن كتبها مسا كان يعتقد قد اهتز ، وكان فوضى غير معلومة قد اجتاحت كل وجوده ، لكنه مع ذلك كان يحس باللذة • كان الربيع أيضا قد أيقظ كل ما في الحياة •

ونلتقي بمحمود ، ذلك النموذج الذي علمنا طرفا من أخباره على لسان منوچهر قبل ذلك ، التقى به كمال ومنوچهر بينما كانا عائدين من المدرسة ، ويتفق منوچهر ومحمود على الذهاب الى احد المقاهي لشرب كأس من العرقى ، ويذعر كمال •• لا ••• لابد أن يعود أدراجه ، الا أنه يمضى معهما بعد أن يفهم أنهما يسخران ، وفي المقهى يدور الحديث ، ان كمالا مأخوذ بكل عقله بحديث محمود ، كان كمال يود لو يسأله : كيف يعيش وحده وكيف يعمل ويدرس في نفس الوقت ؟ ثم يتجرأ بعد قليل ويسأله : كيف قطعت علاقتك بأمك وأبيك؟ ويتسم محمود قائلا : لا تسمها قطع علاقة ، ان الانسان لا يستطيع أن يفعل ذلك ، لكنه يستطيع أن يعيش بعيدا عنهما • ويلقى منوچهر : ان كمال في نفس وضعك تقريبا ، ويرد محمود : كثيرون من هم مثلنا ، نحن لا نستطيع تغييرهم ولا تقبل أفكارهم فلا بد اذن من الانفصال عنهم ، من الطبيعي أنهم في البداية يحزنون لكنهم سرعان ما يعتادون ، ان لهم حقا ولنا حقا وحقوقنا مختلفة داخل عالم واحد ، ومن ثم ينبغي أن يمضى كل الى حال سبيله ، هذا وان أحس الانسان في بعض الأحيان بحنين الى حياة المنزل • ويتجرأ كمال ، انه يريد أن يفعل مثل محمود ، ومنوچهر هو الآخر يريد نفس الشيء ، لكن محمودا يسخر من منوچهر ويشجع كمالا على الحديث ، ويتحدث كمال : ان والده يحمله ما لا يطيق ، وأشد ما يضايقه منه ذلك الاحترام الذى يبيده لآمام الجامع بالرغم من أنه محتال ، انه يستشيط غضبا اذا لمح طفلة تخرج من منزلها دون حجاب ، ويحرض منوچهر كمالا على الثورة قبل أن تتفاقم الأمور أكثر من ذلك ، لكن

محمودا ينصحه بالصبر ، حتى ينتهي من دراسته الثانوية اذ لا يزال عوده طريا على هذه الحياة ، ويمضى محمود الى حان سبيله ، ويظل كمال جالسا مع منوچهر الذى ينشغل بمطاردة فتاتين يصفهما الكاتب فى صفحات طويلة ، ولا يتركهما منوچهر الا بعد أن يظفر بسوعد لهما معا .

يتردد كمال على منزل منوچهر « الذى أصبح منزل فرشته » انه يساعدها فى الرياضيات ويستع نفسه بجمالها عن قرب ، لكنه لم يكن راضيا عن حياته كل الرضا فى تلك الايام ، كانت أيامه خليطا من الحزن والسرور والأمل واليأس ، كان كلما جلس مع فرشته نسي كل شىء الا أنه بجوارها ، حتى اذا خلا الى نفسه فى منزله أخذ الضيق بتلايبه ليس لفراقها بل لتصوره لهذا الطريق المسدود الذى يسرى فيه وهو مغمض العينين ، كان بين شد وجذب بين احساساته التى تدفعه نحو فرشته دفعا وعقله الذى يخاطبه بين الحين والآخر قائلا : « لماذا لا تريد أن تفهم ؟ انك ترضى قلبك بالخيال وتخدع نفسك ، انك لن تصير مثلهم أبدا ، أبدا لن تصير » ، كانت الامتحانات على الأبواب ، كان يمضى الى منزل صديقه فيساعدهما أحيانا ، ويذاكر أحيانا أو يتأمل والدهما الذى كان يأتى من عمله فى الجنوب والذى يسميه محسود « تمثال البورجوازية » ، ويعجب من كل ما يرى حوله ، من العلاقات الحرة بين الفتيات والشبان ، لكنه كان يحس أنه لا ينتسب الى هذا العالم .

كان عالمه هناك ، والده لا يفتأ يتحدث عن الكفر والزندقة ، ويعقد الاجتماعات أسبوعيا يوما أو يومين فى منزله ويرسل العرائض الى أئمة رجال الدين فى كربلاء والنجف الأشرف ومشهد وقم عن الدين الذى هو فى سبيله الى الضياع لكن هذا كله لا يجدى فتىلا ، تعداد الذين يلبسون الملابس الأوربية يزداد ، وتعداد اللائى

يخلعن الحجاب في اطراد مستمر ، والذي يحس بالضيق ليس أيسر من أن يبيع منزله ويمضى الى شمال المدينة • أ يكون كل ما تفعله فرشته ضياعا للدين ، وهل يندفع بكل سرعته الى ضياع دينه أيضا ؟

أصبح كمال يحرص على رباط عنقه وأناقته ومظهره وثنية سرواله وحلاقة لحيته كل يوم ، كان يريد أن يكون قريباً منهم ، لكنه مع ذلك كان يحس أنه غريب عنهم • لقد بات يحس أنه أصبح شخصاً جديداً . لكنه لا يشبه منوچهر ولا يشبه أيضاً أولاد عمه ولا حتى يشبه محمود • أين الحقيقة ؟ أمى ما يقولها أبوه ان كل الناس كفرة وحطب جهنم ؟ أم ما يقوله محمود : انهم لا يتركوننا نعيش ، يقولون لنا كونوا أحياء لكن لا تعيشوا ، مع أن زماننا مختلف عن زمانهم ، كم يود أن يقضى أكبر وقت ممكن مع محمود ، أجل ان محمودا هو الوحيد الذى سيقوده فى هذا العالم ، من الممكن أن يكون مثل محمود ، ومن المستحيل أن يكون مثل منوچهر ، ومن سابع المستحيلات أن يعود كمال القديم وأن يصبح مثل أولاد عمه •

ويأتى الموعد الذى ضربه منوچهر للفتاتين ، لكن كمال لا يريد أن يذهب ، لا ينبغى أن تعلم فرشته أنه يطارد الفتيات ، لا دخل للخلج أو العيب هنا ، انه يترك منوچهر يمضى وحده ، ثم يجلس مع فرشته التى تخرج معه لشراء هدية لأحد الأصدقاء ، وبعد أن يشعر كمال بالحزن يعتصره ، يعلم لسعادته أن هذا الصديق ليس الا اياه ، ان فرشته من فرط سرورها لنجاحها فى امتحان الرياضيات لا تدرى كيف تظهر امتنانها لأستاذها ، انها تأخذه معها الى السينما وتلتصق به فيها ، لكن كل هذه السعادة التى تنصب على كمال صبا لا تضى دون منغص ، انها تلتقى بأحد معارفها على باب السينما وتنهمك فى

الحديث معه ، ويقف كمال يرمق الشاب من بعد ، انه يقارن نفسه به ، لا وجه هناك للمفارقة على الاطلاق ، هذا الشاب من يئتها ومن « ثوبها » انه لا يخجل ولا يغض من بصره عندما يتحدث اليها ، انه يحتويها ويشعرها برجولته ، لعل بينها وبينه علاقة ما لا يدري بها ولعلها تجزل له العطاء ينسا لا يظفر منها الا بأنها تتركه مشتتلا على الدوام ، انها لا ثقة به وهو لائق بها ، أما هو فنبت غريب من الخير له أن يمضى متسللا الى الخارج دون أن تلحظه ، ينبغي أن يفعل ذلك قبل أن يفقد البقية الباقية من كرامته ، لكنه ما ان يتحرك حتى تلحظه فرشته فتتاديه ، انه بهرام قريبها وأحيانا يأتي الى المنزل لكنها لا تطيقه ، انه يحرك عنقه وحاجبيه في الحديث تقليدا للممثل جريجورى بيك ، لم يكن هذا فقط هو السم الذي صادفه كمال في الدسم ، فبينما هما خارجان لمحهما ابن عمه يتأبطها وسط الزحام ، كان يعلم أن هذا الأمر لن يمر على خير ، بالرغم مما يعلمه من سلوك لا يسر ولا يشرف يدور من ابن عمه ، وسط النساء في مجالس الروضة .



يصل كمال الى منزله وهو يدندن بشعر لا يردد فيه الا اسم « فرشته » ذلك أنه اكتشف أن كل الشعر الذي يحفظه شعر ديني ولا يليق بالمناسبة ، في اليوم التالي يحدث ما توقع تماما ، أرسل عمه في طلبه ولم يملك الا أن يذهب ، الا أنه يفكر في الطريق ، هذا هو عمه عميد الأسرة يرسل في طلبه ، ومنذ أيام وأبوه لا يتحدث معه ، فلما لم يعبأ به أخذ يسمعه تهديداته الأذلية بأنه سوف يخرج من المدرسة التي أفسدته وسوف يسلمه « مقشدة » ويكلفه بالكس أمام جميع دكاكينه ، فهذا هو العمل الوحيد الذي يليق به ، لكن أمر عمه هين ، انه أكبر من أبيه ، لكن التفاهم معه سهل ، ليس متحجرا مثل أبيه ولا سريع الغضب بذىء اللسان مثله ، في الطريق يسمع كمال عن حادث قتل وقع في مكان ما بهدف السرقة ، لا يستوقفه في الخبر

الا أسماء الجانيين ، أجل بطلا الضرب بالقمة واحتفالات الروضة
وشج الرأس في احتفالات عاشوراء •

ويصل كمال الى منزل عمه والعم يحاوره ويداوره ، انه يتسنى
أن يكون ما سمعه خطأ ، ان كمال ليس من هؤلاء الشبان ، ترى هل
حقيقة ما قيل عن كمال من أنه شوهده يتأبط احدى النسوة الفاسدات
السافرات في الشارع ، الا أن كمال يحدثه بكل بساطة انها ليست من
النسوة الفاسدات ، لكنها أخت زميله وتخرج معه بعلم أهلها ، اذن
لا بد أنه شرك ينصب لكمال ، لا أيها العم ان والدها موظف كبير من
موظفي الدولة ، اذن فهو من هؤلاء اللصوص الذين لا دين لهم
والذين يسرقون الشعب ، واذا بكمال يصيح في عمه : لماذا وأتتم
المتدينون لا تفعلون شيئا الا أن تجلسوا وتغتابوا الناس الذين
لا تعرفونهم ، لكن العم ينكر على كمال أن يدرس لها ، انه ليس
معلم بيوت ، وأهلها ليسوا فقراء ليحضروا لها معلما ينبغي أن ينتبه
الى نفسه ويرى من يعاشر ويبحث عن أناس من « ثوبه » وينصرف
كمال ، وعلى الباب يلتقى بأحد أولاد عمه ، انه يسخر من الحادثة
الأخيرة ومن الجانيين بطل احتفالات عاشوراء ، ويسأل ابن عمه :
ترى هل أخذنا أعلامهما معهما الى السجن ؟ اذهب وسل أباك : هل
اذا سار شاب مع فتاة في الشارع ترتفع بطنها ؟

ويسقط كمال في منزله هاذيا متخيلا في هذيانه أنه صار قارئاً
للروضة وأنه اعتم بعمامة كبيرة وصعد الى المنبر وأخذ يعظ جمعا
كان بينهم منوچهر ورفاقه ، وكانوا يسخرون منه ، انه لا يصلح لهذا
الدور السخيف ويصيح به محمود الذي كان بين الجمع : انزل ،
البورجوازيون قادمون ، انه يقوم من النوم ضائقا ، يقضى حياته ضائقا
ولا يستطيع أحد من أهل منزله أن يقترب منه ، لقد صار في نظر
أخواته كالكلب يريد أن يعقر كل من يقترب منه ، انه فعلا يريد أن

يضربهم جميعا ، ما لهم به ؟ ليبحث والده عن كاتب حسابات جديد ، ولتبحث أمه عن مرب جديد لولدها الصغير ، لم يكن يدري ماذا يفعل في المنزل ، فاذا خرج الى الشارع هام على وجهه فترة من الوقت ثم عاد ، كان يحس بالضيق والحزن ويعانى أزمة تهز أعماقه ، ولا يجد من يتحدث اليه ، ولم يجد مبررا للذهاب الى منزل منوچهر بعد الامتحانات ، كان يخشى ألا يقابل بعد الامتحانات مثلما كان يقابل قبلها ، كان يود لو يظل سادرا في وهمه من أن فرشته تسيل اليه وأنه ليس مجرد معلم بيوت كما أخبره عمه ، ومع ذلك فقد قاوم وذهب مرة أو مرتين ، لكن صديقه وأسرته كانوا ينتقلون بين المصايف ، كان بعد عودته من الدكان يقبع في حجرته يقرأ أو يفكر في حياة منوچهر ، انها حقا حياة جميلة لكنها لا تصلح له أو قل انه لا يصلح لها •

ثم بلغ به شوقه مداه فذهب ، كانا هناك ، فرشته ومنوچهر وكان محمود أيضا هناك ، ويسأله محمود عن أحواله فيخبره أنها على أسوأ ما يكون ، ان محمودا في الرواية هو لسان الكاتب وهو الذى يفلسف العصر ، لقد نجح في أن يلقي بهذا المجتمع وراء ظهره وانتهى ، وينتهى الأمر بأن يحدث الشايب قائلا : « التقاليد القديمة بليت واندثرت وحلت محلها تقاليد جديدة ، مجتمعنا في مرحلة التحول ، انه يغير جلده ، لكن آباءنا تشبثوا بكلتا اليدين بالماضى ، وهم يتحسرون الآن عليه ويخافون من التقاليد الجديدة وكأنها حية أو أفعى » لكن منوچهر بلا مشكلة ، انه ليس من الطبقة المتوسطة التى لا تستسلم بسهولة ، ويسأل كمال : « لأنها أشد تمسكا بالدين؟ » ويجب محمود : ليس الأمر متعلقا بالدين ، الموضوع مرتبط بالاقتصاد ، ان الدين — هكذا يقول محمود — ليس الا وسيلة ، ان والدى يمتلك مصنعا صغيرا لصناعة الجوارب ، انه لا يستخدم الا الأطفال أو النساء المحتاجات ، لأنه يعطيهم أجرا أقل ويسمى

هذا الأمر مساعدة الضعفاء ، فمن الذى يريد أن يستخدم هؤلاء ؟
 فى حين أنهم ان لم يعملوا عنده ماتوا جوعا ، وفى كل سنة يقيم احتفالا
 أو احتفالين لدق الصدور والنواح ويذبح خروفا يحشو به بطون
 هؤلاء قائلا : دعهم يشبعون مرة فى العام ويتذكرونا بالدعاء • أجل ،
 ان كمالا يرى أن والد محمود لا يختلف عن أبيه وعمه فى شيء ،
 ان أباه وعمه يمتلكان كل دكاكين سوق بيع الجلود ، والعمال
 وعائلاتهم يأتون الى الاحتفالات الدينية ، وعلى المنبر يتحدث الشيوخ
 عن كرم هذين الأخوين التقيين السخيين ويزداد احترام عمه وأبيه
 أضعافا وتربو ثروتهما أضعافا ، لا شيء مجانا اذن ، لقد جعلوا الدين
 وسيلة للثراء ، انه يتذكر جموع الفقراء الحقيقيين تطرد من أمام
 منزل عمه أيام الاحتفالات بدعوى أنه لم يحسب حسابهم ، أجل :
 كل شيء بحساب انه لا يستطيع أن يمكث فى هذا المكان ، انه يسلم
 معتقداته خطا خطا ، قريبا سينتهى وجوده كلية من هذا المكان ،
 وينصرف ، لكنه لا ينسى أنه دعى للعودة فى اليوم التالى ، انه عيد
 ميلاد فرشته •

جمع كل ما ادخر وطاف بحوانيت الباعة ، حتى بعد أن اشترى
 الهدية كان مترددا ، اشتراها بكل مدخراته بعد أن أعبته السبل
 أمام سيل البضائع المستوردة « يشير الكاتب من طرف خفى الى
 الجنون الاستهلاكي الموجود فى ايران وهو أمر ملحوظ للعيان » ،
 ماذا تكون هديته هذه بين الهدايا التى سوف تقدم لها ؟ لا جدال
 فى أنه سوف يصير سخريه من فى الحفل ، ما هذا الهدام ؟ وعندما
 وصل الى المنزل كان فى قمة اضطرابه وعذابه ، أراد أن يعود أدراجه
 لولا أن فرشته لمحتة على الباب فرجته أن يصحبها فى جولة لشراء
 ما يلزم الحفل ، لقد سقط منوچهر من السلم وشرخ ساقه وها هو
 كمال يتبعها ، يحس بسخونة جسدها يلتصق به فى العربة فينسى كل
 شيء ، دخلت محلا لبيع الخمور فدخل خلفها ، حملته الزجاجات

فحملها ، كيف حدث ، انه يتمتم بينه وبين نفسه رغم عطر فرشته
الذى يملأ خياشيمه « من أنا ؟ » لم يعد هو نفسه لقد ضاعت نفسه
منه ، كان سعيدا بها لكنه كان يهرب بنظراته •

انه وحيد وسط الحفل ، الزينات والبالونات وزجاجات الخمر
وعلب السجائر التى تملأ المكان تكاد تخنقه ، سوسن ابنة خالة فرشته
مشغولة مع بهرام « فتى السينما » تدخن سيجارة وقد كشفت عن
نصف جسدها على الأقل ، انها تقترب من كمال ، تحدثه بلهجة
أمره أن يأتى الى منزلها لمساعدتها فى دروسها ، وسوف تعطيه
ما يريد ، ان كمال يرد عليها بقسوة ويبتعد عنها والألم يكاد يقتله ،
هكذا ؟ كل قيمته فى هذا المنزل أنه معلم ، أما كان ينبغى أن يفهم ؟
أكان لابد من هذه الفتاة الغبية لتصفعه هذه الصفعة ؟ أراد أن
ينسحب الى منزله لكنه كان يخاف أن يصير وحيدا مع أفكاره وعذابه ،
كانت فرشته تعطى جسدها لمن يريد أن يراقصه لكنها كانت تبسم
له كلما التقت أنظارهما ، لقد كانت تلتصق ببهرام تحت أنظاره ،
وينصرف كمال ، ويجلس على حافة حوض الماء ، انه نفس المكان
الذى جلس فيه مع فرشته لأول مرة ، أخذ ينظر الى السماء المرصعة
بالنجوم ، أراد أن يسلم نفسه الى السماء ، لكن تلك النفس التى كان
يسلمها للسماء لم يعد لها وجود ••

صعد الى منوچهر فى حجرته وجلس معه يسمع الى حكاية كسر
ساقه من فم مبتسم ، ولم لا ؟ والسبب خطاب غرامى غفل من الامضاء
ظل يقرؤه حتى سقط من أعلى السلم دون أن يدري ، ولم تلبث
الضجة أن ارتفعت من الطابق السفلى ، ان فرشته تفك لفافات الهدايا ،
كلما كانت الضجة ترتفع كان قلب كمال يغوص على ضلوعه ، ماذا
تكون هديته الحقيرة ، ثم انفتح الباب ودخلت فرشته وطفقت تتقبل
كمالا ، ماذا حدث ؟ انها تمدح ذوقه لقد أحضر لها ما كانت تريد

تماما ، أخذت تنظر اليه بوله وحب ، وسحبته الى الحديقة ، كانت
تشكره وتمدحه وتنحسسه ، ثم وضعت شفيتها فوق شفته ، كان
كمال كالمذهول ، انها تجره للرقص ، لا يهم أنه لا يعرف ، انها سوف
تعلمه ، وينسى كمال كل عذابه وصراعه مع نفسه وهو بين أحضان
فرشته ، كان السؤال الذى يسأله لنفسه : « من أنت ؟ » خافتا
بالرغم من أنه كان يتردد فى نفسه أثناء الرقص ، ثم وهو يعب فى
الخمير ، لكنه لم يسأله لنفسه قط وهو يغنى ، أجل : غنى أغنية
لا صلة لها بالأعاني الدينية كان فى قمة سعادته ، لكنه عندما رأى
فرشته تراقص بهرام فى ركن مظلم ، كره نفسه حتى الجنون ،
وانصرف .

اذن قبل كمال فتاته ورقص معها وشرب الخمر وغنى أغاني
غير دينية فى ليلة واحدة ، فهل انتهى صراعه وعبر الصراط ؟ أبدا ،
انه يتقلب فى فراشه يلعن نفسه قائلا : « مت ، مت » ، فاذا هذه
التعب ، وأغمض عينيه لاحقته الأحلام السوداء ، ويحلم فى اليوم
التالى فلا يقوم من فراشه ، لقد رأى أنه بالغ فى الاقبال على العالم
الجديد ، وعندما قام عصرا أراد أن يتوسل بعالمه القديم ويذهب
مع خاله وابنه الصغير لزيارة ضريح الامام عبد العظيم ، لكن : ماله
يحبس بالانفصام والغربة ؟ أين الأحاسيس والمشاعر القديمة التى
كانت تنهال عليه كنهز فياض فى هذا المكان ؟ انه يحس وكأنما
ألقي به وحيدا فى مكان غريب ، لقد طاف بالحرم عدة مرات ، لكنه
كان يحس أنه يطوف حول نفسه وأن هذه النفس لم تغادره أبدا ،
انه لا يفتأ يذكر وهو فى الحرم : لماذا جئت الى هنا ؟ وما لهؤلاء
الناس ليكون وينوحون ويضجون بالشكوى ؟ لماذا لم يعد يستطيع
الشكوى والصراخ مثلهم عله ينجو من هذه الأفكار السوداء التى
أمسكت بتلابيبه ؟ لماذا لا يستطيع أن يبعد فرشته عن فكره
تساما ؟ ثلاثة أيام لم يخرج من منزله لكنها لا تغادر فكره أبدا ، ان

أمه قلقة أهو مريض ؟ أم أن شيئاً أصابه ؟ لا شك أن ابنها المؤدب الحيى قد أصابته عين السوء ، وأبوه هو الآخر يضج بالشكوى ما دام قد انتهى من الامتحان فلماذا لا يأتى الى الدكان ؟ وفى النهاية خرج من عزلته ، قادته قدماء الى حيث كان لا يريد ، لكنه وعلى الباب سب نفسه وعاد ، الى هذيانه وأحلامه السوداء .

ان والده يحاول أن ينقرب اليه ، يأخذه معه الى أضرحة الأئمة والى قم ، ولا يزال يردد على مسامعه طوال الطريق محفوظاته من النصائح التى كان كمال يضيق بها ويعطيها أذنا بها وقر ، كان الشوق الى فرشته هو الذى يفري داخله ، لكنه أكثر من مرة ذهب وعاد دون أن يدق الباب ، يلتقى بمحمود صدفة فيأخذه معه الى حجرته فى ذلك المنزل الحقير الذى لا يتميز بشئ الا أن محمودا جمع ذخيرة من ألفاظ السباب التى سوف تعينه فى وضع « قاموس الشتائم العامة » الذى لا محالة واضعه كتذكّار لهذه الأيام ، ان محمودا سعيد بالمتاعب التى يعانها وان فكر والده فى أن يقدم له المساعدة فلن يقبلها ، ان هذه العلاقة بين الآباء والأبناء ليست الا من قبيل العلاقات التجارية ، عملية استثمار لا أكثر ولا أقل وهو لن يقبل أبدا أن يكون مجالا لاستثمار أحد ، ان كل ما كتب عن العلاقة بين الآباء والأبناء فى الأدب القديم لا يساوى شروى فقير ، ثم تأتى أم محمود لزيارته فلا يملك كمال الا الانصراف .

فى النهاية ذهب كمال الى منزل منوچهر ، فعلم أن فرشته خارج المنزل مع بهرام فأحس أن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهله ، لكنه ما لبث أن ضاق من أحاديث منوچهر عن محاولاته فى اكتشاف صاحبة الخطاب الذى كان السبب فى كسر ساقه فانصرف ، ان منوچهر أخبره عن جاذبيته التى انتشرت فى أوساط البنات والدعوات التى تنهال عليه منذ تلك الليلة التى غنى فيها ، لكن كمال يضيق

من ذلك ، هذه صفة جديدة ، صفة المعلم كانت بالفعل أفضل من صفة المغنى ، لكن لا يهم ، وبعد أيام قليلة يعود كمال ، لم يعد يستطيع ، كانت فرشته وحدها في المنزل ، لقيته في غرفة نومها ، لكنها أخذت تسكو له من عذابها في حب « بهرام » والعذاب الذي لقيته في تلك الأيام التي غابها في شيراز ، تطلب منه أن يأتي إليها في الصباح الباكر للقاءه في المطار ، انه الوحيد من بين كل معارفها الجدير بالثقة .

يمضى كمال ، برح الخفاء ، أمضى صباحا وظهرا كئيبين في سبيل. ليل أشد طولا وكآبة وحزنا ، رأى في نفسه نوعا من الاستسلام ، لكنه كان لا يزال حزينا ، ورغم ذلك ذهب إليها في الفجر فلم أن. بهرام عاد ليلا وانصرف على أن يعود عصرا .



اتهمى عذاب كمال وغرامه اذن الى لا شيء ، كان كل ما يجعله يتقبل المجتمع الجديد بكل ما لم يكن يرضيه فيه هو فرشته وجبه لها ، كانت هذه الصدمة بعد أن عرفنا ما عرفناه من سمات شخصية كمال كفيلة بأن تلقى به خارج هذا المجتمع تماما ، أحداث أقل من ذلك كثيرا كانت تثير في نفس كمال صراعا مرا ، اما في هذه المرة فقد انعدم الصراع أو كاد ، أتكون الأسباب قد تقطعت بينه وبين مجتمعه القديم تماما بحيث لم يعد يطيقه وأن كراهيته لهذا المجتمع الجديد كانت كراهية قشرية ؟ الواقع أن سلوك كمال في الجزء التالي من الرواية لا يقبل التفسير ، آكان قد يئس من نفسه تماما فأراد تدميرها ؟ لتتابع اذن أحداث هذا الجزء من الرواية لعله يلقي بعض الضوء على اجابة هذه الأسئلة .

لقد ذهب كمال الى منزل منوچهر في ذلك اليوم ، لم يعلم لماذا دعت فرشته ، الا أنه علم فيما بعد أن السبب في الدعوة

آلا تظل احدى المدعوات وحيدة وان كان قد ظن في البداية أنه دعى لاقناعه بالتدريس لسوسن ، ثم يتردد كمال على منزل منوچهر « لم يعد منزل فرشته » وكأن شيئا لم يحدث ، فلا صراع ولا تساؤل وتقرّب اليه الفتاة « سوسن » لكنه ضائق بها « انها تشبه بهرام وكأنهما أخوان » طريقتها في مط الحروف والأصوات عند الحديث تثيره ، زينتها متكلفة ولكنها ليست ممجوجة ، انها ليست مثل فرشته تتسلل بخفة ونعومة لكنها تقتحمه اقتحاما ، وكان كمال ضائعا أو لعله كان يريد الانتقام من بهرام « ألم يكن الانطباع الأول أنها تشبه بهرام ؟ » وبلغ كمال قمة ضياعه عندما لمح بهرام يقبل فرشته وراء الأشجار ، وكانت سوسن ملتصقة به فقبلها ، ولكي يدارى ضعفه واضطرابه غنى لها ، غنى لها كما لم يغن لفرشته يوم ميلادها ، وبعدها كان في منزلها •

وأسرة سوسن تقدم في الرواية ما يمكن أن ينتهي اليه العالم الجديد من انحطاط ناشئ عن فهم خاطيء للتقدم ، أم شابة وزوج كثير الغياب وعشيق للام يتردد على المنزل في حضور الفتاة المراهقة التي تكرهه وتكره نفسها وتكره كل من يحاول التقرب منها وتنتقم منه عن طريق اذلاله جنسيا ، أترى ، هل شد كمال الى هذا المجتمع الجديد أنه يضاعف كراهيته له ؟ ان سوسن هي فرشته كما كان يتمناها كمال ، انها تعترف له أنها أعجبت به منذ أول مرة رآته ، لتكن صادقة أو كاذبة ، فهذا شيء لا يهمه ، انه يعرف ماذا تريد منه ويعرف هو أيضا ماذا يريد منها ، لا عقد هناك اذن ولا صراع ، فقط ليتها تتحدث معه كثيرا عن الدروس ولا تتحدث عن الغناء الذي تهواه لكنها تدفعه ، تثير في نفسه ما لم تكن فرشته تثيره قط ، وكما مع كل ذلك يحاول أن يقاوم ، يقوم من مكانه فجأة قائلا : لست معلم بيوت ولست مغنيا لا أدري لماذا جئت الى هنا ... وداعا ، لكن سوسن كانت تعرف كيف تسكته فأسكته •

في اليوم التالي بينما كان يرتدى ملابسه ليذهب الى الدكان ارتفع اللفظ في الفناء ، ماذا جاء بعمه في هذه الساعة ؟ ليكن ما جاء به ما جاء به ، لم يعد يهمه أحد ، لكن الأمر هذه المرة لم يكن خاصا بكمال ، كان خاصا بجماعة المؤمنين ، ان بعض الدكاكين قد انتزعت ملكيتها لبناء دار سينما مكانها ، ان والده تاجر ، كيف يكون هذا ؟ وبجوار مسجد ، وفي هذا الحي الذي يسكنه المؤمنون ؟ « لا تزال الجماعات الدينية المتطرفة في إيران تعتبر السينما حراما ، ولا توجد دار سينما واحدة في المدينة الدينية قم » ، ان عمه يوصي والده بأن يهدأ ، فان الأمر سوف يتم أراد أو لم يرد ، واذا أصر على المقاومة فسوف يسجن ، ويفكر كمال : ترى لو لم تنتزع ملكية بعض الدكاكين ، أكان والده يثور هذه الثورة ان الأمر لا يتعلق بالدين كما يقول محمود ، انه الاقتصاد . ويخرج كمال : الحي بأجمعه تاجر ، غدا تهدم المساجد لبناء دور الدعارة ، ويسمع في الأتوبيس همسا ، بالأمس وزعت منشورات سرية في الحي، منشورات سرية ؟ منذ كم من السنوات لم يسمع الناس هذه النعمة ؟ ويضع رجل ما في يده ورقة مطوية ثم ينزل من الأتوبيس ، لكنه ما ان يفتح الورقة حتى حل محل خوفه رغبة ملحّة في الضحك ، أهذا الذي يسمونه منشورا سريا ؟ طهران غارقة في الكفر والضلال وسوف ينزل عليها بلاء من السماء يحرق الأخضر واليابس وينبغي ان تحذر أمة محمد من هذا الضلال ، ثم اكتب هذا المنشور مائة مرة ووزعه والا نزل بك أو بأسرتك بلاء ، ما هذا ؟ مائة مرة ؟ لا عشرة ولا عشرين ، ينبغي على الانسان اذن أن يكون عاطلا وبلا عمل .

في المساء كان في منزل سوسن ، ان الموضوع الذي يدور حوله الجدل هو أن والد سوسن حدث مدير النادي « وهو بالمناسبة عشيق الهانم » بأن يقدم كمال كصوت جديد في حفل النادي ،

هذا ذنب كمال ، لو أنه احتج منذ البداية على اعتباره مطربا لما تبادوا في الأمر الى هذا الحد ، ان كمال يرفض أولا بلين ثم بغلظة ولا مجيب ، كانت سوسن واثقة في النهاية بأنه سوف يستجيب ، انها تستمع الى احتجاجاته وهي تبسم ، تعده وتمنيه الأمانى ، تجعله أشد ما يكون قربا من النبع ثم ترده ظمآن دون أن تئسه ، وكمال يتذكر المآسى التي قصها عليه ذلك الرجل الذى علمه الطرب ، لا ، لن يحترف الغناء ، لن يكون البديل عن الحياة التى يحياها هو احتراف الغناء ، فى تلك الأيام بلغ ضيقه من منزل سوسن منتهاه ، انها تتلاعب به ، كيف وصل الى هذه الدرجة معها ؟ انها أحيانا تطلب منه أن يغنى وسط مجموعة فاذا بدأ الغناء صاحت به أن يصمت ، فيصمت ، وكم أعطته مواعيد فى الظهيرة ، كان يتعلل بعلل واهية ويتسرب من الدكان ثم يذهب ويظل منتظرا فى حمارة القيقظ ساعات ولا تأتى ، كانت تمنحه بمقدار وتطعمه فى الكثير ليظل أسير هواها ، كانت تفتح أمامه أبواب حياة مفعمة باللذة والمتعة لكنها ممتزجة بالاحتقار والذلة ، لكنه وفى الليلة المتفق عليها يذهب وقد أسر فى نفسه أمرا •

انه يدخل المنزل لاعنا نفسه ، لينته اذن كل شئ ، ليقبل لهم انه ليس الشخص الذى تصوره ثم يذهب الى حال سبيله ، انه يمر على حجرة أمها فيجدها متلبسة مع عشيقها بالجرم الفاضح ، ثم يدخل على سوسن حجرتها ، انها شبه عارية ، تتصنع الخوف وتأمره أن يخرج من الحجرة ، ويخبرها أنه لن يأتى الى الحفل فتبتسم ، لكنه يغلظ فى القول وترى أن الأمر جد لا مزاح فيه هذه المرة فتغلظ هى الأخرى : أتظن أنك مطرب ، اذا لم تكن مطربا فلماذا تغنى هنا وهناك ، ولماذا أسمع لك بالمجىء هنا يا بن بائع الجلود ، لا تريد أن تكون مطربا ؟ ماذا اذن تريد أن تكون قارئ روضة بخمسة تومانات ؟ اذهب ، اذهب ، من الأفضل أن تشتغل

كاتباً في دكان آبيك وتبيع الجلود ويصنعها كمال فتتحداه ، ويضربها ،
ويشتبكان معا ، لكن رغبة أخرى نشور في نفس كمال ، رغبة أراد
أن يرد بها على كل الذل الذي أصابه في هذا المجتمع ، بدأ مغتصبا ،
لكنها بعد قليل شدته اليها ، وكان له برضاها ما أراد •

في الأيام التالية قبع في منزله خائفاً ، تكسرت كل سفنه وهو
في عرض البحر ، لا هو قريب من هذا الشاطئ ولا ذاك ، عما
قليل سيعلم أبوه ويربطه الى شجرة ويجلده ، لكن والده مع ذلك
يحسن معاملته ويستميله ، لا بد أنه يدبر له أمراً ، كان يحاول
مداراة خوفه بالقراءة ، وكان يذهب الى الدكان كعادته ، وبدأ يفتح
عينيه على أشياء كثيرة ، منذ سنوات حينما كانت المظاهرات تملأ
شوارع طهران كان والده يقول انها ألعيب الانجليز ، أما محاولة
الاغتيال التي حدثت في السنة الماضية وما تبعها من اعتقالات فقد
فتحت عينيه على أشياء كثيرة « لم أدر أى محاولة يقصد من
المحاولات الاغتيال العديدة التي حدثت في ايران في الثلاثين سنة
الأخيرة » كان يسمع التلاميذ يتحدثون في السياسة وقانون
المطبوعات والمادة السادسة من لائحة الانتخابات ومباحثات أزمة
النفط كأشياء لا معانى لها ، لكنه لم يكن يفهم مصطلحاتها فتركها
« لعل الكاتب رمى كمال المسكين بعدم الفهم حتى لا يتورط هو
نفسه أكثر من ذلك ، وقد كتب في هذا الموضوع ستة أسطر فقط
بينما وصف لقاء كمال الجنسى مع سوسن في ست صفحات ، وعلى
كل حال فهو يشكر لأننا علمنا أن أحداث الرواية تدور في أوائل
الخمسينيات حين كانت الأزمة المعروفة بأزمة مصدق في قمتها » •

نعود الى كمال الذي أراد أن يقطع كل صلة بينه وبين العالم
الجديد ، لكن العالم الجديد لم يتركه في حاله ، انه يفاجأ ذات يوم

بمنوچهر يدخل عليه حجرته ، يحدثه عن رحلته الأخيرة الى القرية ، ويطلب منه الذهاب معه الى منزله ، فاذا رفض كمال أخبره أن فرشته غاضبة منه ، ماذا قال عنها لسوسن ، فاذا أبدى كمال عدم اهتمام لكل هذه الموضوعات وسخر من منوچهر قائلاً : لماذا آتى ألم ينه السيد المعلم مهمته أخبره منوچهر أنهما فى العام التالى لن يكونا زميلين ، لقد اشترى والده منزلاً فى شميران وبعد أسبوع أو أقل سيرحلون من المنزل القديم ، ألم يعد يريد المجيء بعد هذا كله ؟

ويعود كمال الى المنزل لكنه يحس بنفور عجيب ، لماذا جاء ؟ هل جاء ليحس بالغربة ويتحمل ما يكره ؟ لا ، ليسمها زيارة توديع الذكريات لقد فهم فى الطريق أن منوچهر لم يعلم شيئاً عما حدث بينه وبين سوسن ، آكان من الممكن أن يمر مثل ما فعل دون مساءلة ؟ يا له من عالم عجيب ، ها هو يسير مع فرشته فى الحديقة وكأن شيئاً لم يكن ، هجرها بهرام الى سوسن ، خطوة واحدة ويتم التبادل ، أتراها تريد منه أن يختار لها معشوقاً ؟ ألم يثبت حسن اختياره فى هدية عيد ميلادها ؟ أم تراها تريد أن تطلعه على قصة حبها الجديد ، يا له من عالم ، فقد انبهاره تماماً منذ تلك الليلة التى اقتحمه فيها عن طريق سوسن ، ما هذه الخزعبلات التى تقصها فرشته والتى نقلتها لها سوسن ؟ أحقيقة تحدث بكل هذا السوء عن فرشته ؟ ربما ، لكن الجبل الذى انقسم بين كمال وفرشته يوشك أن يتصل ، انها تلتصق به وتهمس فى أذنه : كم تغيرت يا كمال ، اننى أحس أنك كمال جديد ، ثم رجته أن يغنى فغنى ، ورجته أن يعود فى الصباح ليقضى معهم أسبوعاً فى القرية فخرج بعد أن وعد بالمجيء •

ما لمنزله يضغط عليه هكذا ؟ ألم يكن قد حاول استرجاع الود

المفقود بينه وبين هذا المنزل ؟ حنى أمه لم تعد تفهمه ، باتت تظن أنه قد أصبح متعاليا عليها وقد تشاجرا بلا سبب ، ماذا يستطيع أن يفعل ؟ انه يقبع في حجرته لكنه يسع من حديث بين والديه ما يدبر له ، اتفق والده مع « حاج أصغر الدباغ » أن يقوم له كمال بأعمال الحسابات ، ومن الغد عليه أن يذهب اليه ، لا ، ليس هذا كل شيء تضيف والدته أن الحاج أصغر يريد كمال من أجل شيء آخر ، ألم يرسل اليه قطعة من القماش هدية بعد عودته من مكة قائلا انها « لعريسا » ؟ لكن لو يصبر عليه أبوه حتى ينهى دراسته الثانوية ، هكذا ترجو الوالدة ، لكن الأب مصمم ، ما فائدة الدراسة وما فائدة هذه العلوم التي تبعد عن الدين ، وحتى اذا انتهى من دراسته الثانوية هل يمكن أن تواتيه هذه الفرصة التي تواتيه الآن ؟ ثم انه لن يفلح في دروسه ، لقد رآه بنفسه يركب عربة مع جماعة من الشبان الفاسدين والفتيات السافرات ، وأخبره أخوه أنه يدرس لبنات الأعيان والأشراف في بيوتهم ، من كان يظن أن كمال في النهاية سوف يتكشف عن هذا الصائع الضائع ؟ وبالأمر ذهب الى حجرته ووجدها ممتلئة بكتب العشق والغرام من أين عرف والده كل هذا ؟ لابد أن أخواته تصتن عليه يوم أن كان منوحيه في زيارته ، ان كمال يحس بياس مطبق ، يريد أن يخرج من المدرسة ليعمل عند الحاج الدباغ ويستفيد هو من ذلك ، يتحدث عنه كما يتحدث عن أحد حمرة ، صبر كثيرا كان يقول انه عام ويمر ، عمل له طوال الصيف في حساباته ، كل ذلك في سبيل أن يتركه يقضى العام الباقي في المدرسة ، والآن يريد ذلك ، الى متى « واخفض لهما جناح الذل » ؟ لن يخفض لهما جناح الذل بعد الآن ، لقد تعب ومل وضاق وقر ، ينبغي أن يذهب من هذا المكان بأسرع ما يمكنه .

ليلة طويلة قضاها كمال ، ليلة راجع فيها كل حساباته الشخصية ، كل ما حوله ومن حوله لم يعد يساوى شيئا ، من يكون أبوه حتى

يتحدث عنه بهذا الأسلوب وحتى يحترمه الناس كل هذا الاحترام ،
ليس أكثر من متهوس مذهبي لا قيمة له • والمدرسة ؟ لا يفهم لماذا
يدرس ، أمه وخاله يريدانه مهندسا أو طبيا وعمه يريداه عالما
دينيا أو واعظا ، وأبوه يريداه أن ينتهى بأسرع ما يمكن ثم لا يكلفه
بعدها مليما ، الحياة بالنسبة لوالده كفتا ميزان : واحدة فيها المال
والأخرى فيها الدين ، ليلة طويلة مثل كل حياته ، لا يدري أى صباح
سوف يتلوها ، تترى عليه الأحلام السوداء ، ويفيق قرب الفجر على
والده يملأ الجو ضجيجا وعجيجا استعدادا لصلاة الفجر •

ارتدى ملابسه ، وعقد رباط عنقه ، نظر الى نفسه فى المرآة
أكثر من مرة وتذكر كلمات فرشته الأخيرة ، تغيرت تماما يا كمال ،
وتردد قليلا ، وكان لا يزال فى تردده وتفكيره عندما صفعه صوت
والده : الى أين يذهب جناب السيد بهذا المنظر ؟ كان قد أخبر والدته،
وها هى تخبر والده بصوت مرتعش ، حسنا ان كان يريد أن يذهب
فليأخذ أخاه الأصغر معه ، ماذا ؟ ! عبد الله المصاب بأسهال دائم ؟
لا هذه مجرد حجة ، لو قلت سوف آخذته ستتعلل بشيء آخر ، اذن
اذهب الى الدكان ، لكن ألم يقض الصيف فى الدكان ؟ لا يا عزيزى
الى الدكان الجديد ، ويرد كمال بسخرية : « أجل أصبح كاتباً عند
الحاج الدباغ ثم اتزوج ابنته القبيحة وبعدها أصبح كبير الدباغين ، ثم
أمضى معها تحت اللحاف وأنتج المزيد من القائلين لا اله الا الله ،
تباعا ، ثم أجلس القرفصاء وآكل حساء الشعيرة والزبادى بالخيار
وأتجشأ ، أضغ على كتفى عباءة من وبر الجمل وأقرأ حلية المتقين
وحديقة المسلسين ، وأصرخ : يا حمير مهما أقول قولوا على عيني ،
افعلوا هذا ولا تفعلوا ذاك ، هذا حلال وهذا حرام ، فى هذا
ثواب وفى هذا معصية ، أمسك المسبحة وأصبح وأصبح وأصبح ..
انى متى لا أملك الحق دعونى ... لست عبدا اشترىتموه ، كل
الحياة معكم ذلة واختناق ولعنات ومصائب ، اتركونى ، سترون كيف

أمضى ولن تملكوا شيئاً لى « رأى والده يقترب منه كما يقترب جاره من كلبه بالسوط ، رأى يد والده ترتفع وتنخفض ، كانت عيناه مغمضتين تحت الضربات ، كان يسمع صوت الضرب فى أعماق رأسه ، وأحس بوخز مؤلم فى كل وجهه ، كأن الرجل العجوز يضرب كلبه . وأحس بحرارة الدمع فوق وجنتيه ♦

نظر الى السماء ، كان الجو مظلماً ، عندما أغلق الباب خلفه لم يعد يملك شيئاً ، صارت كل الأحلام والرؤى مثل دخان بعيد ، كعائد من جنازة أعز الأحياء ، عندما كان يغمض عينيه كان يحس أن كل هذه الأحداث غامضة ومبهمة ، عندما أنهضوه وجذبوه من فوق جسد والده الممدد تحته ، كانت هناك أصوات ترجوه وتلمس منه وكانت صرخات مفزعة ووجوه عابسة فزعة مندهشة ، وأصوات لاعنة ، وعندما وقف كانت الأشباح لاتزال تحيط به ، كانت تحديق كأنها تنظر من خلال ضباب غليظ ، كان أبوه ينظر اليه ، بعينين مستلتتين بالسب واللعن ♦

كان الليل الطويل لايزال ينوء بكلكله على الكون ، سار طويلاً فى الشوارع الخالية ، وجلس مشعث الشعر ممزق الملابس ، أغمض عينيه ورأى كمال الصغير يترنم بمرثية من مراثى آل البيت ويتلاعب بحقييته السوداء الكبيرة ، ثم رأى كمال جالساً فى حجرة مع جمع من الأطفال وقد وقف طفل على كرسى وأخذ يعظ ، كانت هناك جماعة من الأطفال الصغار ، وعلى باب المنزل يبرق صغير كتب عليه « هيئة فدائى » ♦♦♦ أين ذلك البيرق ؟ أين يجب البحث عنه ؟ أين ذلك البيرق الصغير الأسود الذى هبت الريح وأخذته معها وأسرعوا خلفه حتى وجدوه ؟ أين ذلك البيرق ؟ أين ينبغى أن يبحث عنه ؟ أين ذهب الفدائيون ؟ هبت الرياح وحملت معها البيرق والفدائيين ، هبت الرياح وحملت معها كمالاً الصغير ♦

آكان كمال لا يدري حقا أين يبحث عن البيرق ؟ ترى الى أين
يمضى كل ضحاجا صراع الطبقات ، ألم يعد يفهم بعد أولئك الذين
ينسون أن الانسان له طاقة يقف عندها أن من تغلق في وجهه أبواب
طبقتة ولا يسلك طبقة أخرى يعلم مباشرة الى أين يتجه ؟ ألم يأن الأوان
أن يعلم أولئك الذين يحاربون البيرق الأسود في دول العالم الثالث
أنهم أول من يمهد له الأرض وأنهم بهذا التناسى المضحك المبكى
للانسان يلقون به في أحضان البيرق الأحمر وهم لا يدرون ؟

مضى كمال في طريقه ، كان الفجر في سبيله الى الظهور ، وجد
من نافذة محمود نورا خافتا يطل - لم يكن أمامه من نور سواء -
وتنفس نسيم الفجر بعمق ، ونظر الى ظله الممتد بعرض الحارة ، ودق
على النافذة بقلب خافق ، وفتحت النافذة ، وأطل منها رأس ، وأخذت
عين وسنانة تبحث في ضوء الفجر الخافت •

وقال : أخى ، أنا كمال ، جئت اليك •

وارتفع صوت محمود :

مرحبا يا أخى :

لا أظن أن الرواية في حاجة الى تعليق ، فهي في غاية الوضوح ،
يكاد كل سطر فيها ينطق بما يريد الكاتب ولا أظن أن ما يريد به بعيد •

٧ - نون والقلم

لجلال آل أحمد

جلال آل أحمد كاتب إيراني معاصر ، ولد في عشرينات هذا القرن في بيت دين ، وانضم في شبابه الى حزب توده ، لكنه انصرف عنه في اوائل الخمسينات بعد افنضاحه في أزمة مصدق ، وانسغل فترة من الوقت في جمع التراث الشعبي الايراني ، وبعدها أدرك أن الدين هو البنية التحتية للشعب الايراني ، وحج الى بيت الله الحرام ، ثم أصدر كتابه « خسي در مبعقات : قصة في الميقات » ، ووقف امام نيار التغريب الذي كان سائدا في ايران في كتابه الذي صدر في اوائل الستينات وصودر مرات من قبل السلطة الملكية « غرب زدكي : معاناة التغريب » . ومن أهم أعماله القصصية مجموعات : « من الآلام التي نفاسي : از رنج كه ميبريم » و « امرأة فوق العدد : زن زبادي » و « سيرة خلایا النحل : سر كدشب كندوها » . ومن أهم رواياته « ناظر المدرسة : مدير مدرسة » و « نون والقلم » . توفي آل أحمد وفاه مشكوكا في امرها وفجائيه في كوخ له على بحر الخزر سنة ١٩٦٧ .

كان في نيتي أن أختتم هذا العرض لتطور الرواية الفارسية

المعاصرة بالرواية التي عرضتها آنفا رواية « طول الليل » على أنها مواجهة بين القديم والجديد ، وبالفعل ختمت الكتاب وقدمته للنشر ، لولا أن عوامل معينة حالت دون نشره ، وبينما هو قابع في طابور الانتظار ينتظر فرصته اذا بالأحداث تنفجر في ايران ، فتصير أنباء ايران على كل لسان ، ويقدم الشعب الايراني ملحمة سوف تثير الكثير من التساؤلات لعدة أجيال قادمة . وكان من حسنات هذه الصحوة الشعبية اعادة نشر كثير من الكتب والأعمال الأدبية المصادرة ، وضمن احدى رسائل الكتب التي وصلت الى من ايران عام الثورة ، لفت نظري عنوان هذه الرواية « نون والقلم » أما الكاتب فكنت قرأت له قبلا روايته الشهيرة « ناظر المدرسة » كما قرأت كتابه الذي جر عليه الوبال وربما الاغتيال « معاناة التغرب » ... قلت بينى وبين نفسى : لاشك أن كتابا يحمل هذا العنوان يخفى بين دفتيه عملا دينيا أو رواية دينية ، فضلا عن أن الأعمال المصادرة والتي يفرج عنها بعد طول سجن تشد اليها الانتباه ، ان لم يكن لقيمتها الفنية ، فعلى الأقل لاكتشاف السبب الذى من أجله حكم عليها بالسجن والمصادرة ، ومن هنا انصرفت الى قراءة الرواية ، ومن الصفحات الأولى لها شدتنى فلم أجد منها فكاكا ، وبعد الانتهاء من قراءتها قلت بينى وبين نفسى : هذه التجربة الفنية العظيمة بموضوعها الغريب جدرة حقا بأن تقدم كاملة للقارئ العربى ، أما الوقت لا يسمح ، وقد لا يسمح أيضا جو النشر ، فلاقدمها في هذا الكتاب .

من الصفحات الأولى للكتاب يحس القارئ أنه بازاء عمل غريب بالفعل ، غريب في ميدانه وغريب في فنيته ، أما الميدان فقد كان جديرا حقا بالمصادرة في عهد الشاه ، فهو يتناول ثورة دينية من الثورات التى يحفل بها تاريخ ايران على مر العصور ، وفيها يمتزج الدين بالنية الاجتماعية بكل جوانبها السياسية والاقتصادية ، بحيث أننا كلسا

تقدمنا بضع صفحات في الرواية اكتشفنا أن الثورة الدينية ما هي الا غطاء لجوانب الثورة الحقيقية ، وما هي الا اطار يقدم الكاتب من خلاله عوامل التفاعل في مجتمع تعد الصبغة الدينية هي البنية التحتية له ، وبالرغم من أن الرواية تقدم ثورة دينية في حقبة من تاريخ ايران « القرن الحادى عشر الهجرى والسابع عشر الميلادى » وان لم يصرح الكاتب بالخلفية الزمنية لروايته ، الا أن النماذج البشرية التى يقدمها تتجاوز الزمان والمكان ، فكأن جلال آل أحمد أراد أن يقدم نظرة استشرافية لثورة شعبية ذات اطار دينى وذلك قبل أن تنفجر الثورة الأخيرة بسبع عشرة سنة بل قبل أن تقوم ثورة قم الأولى « سنة ١٩٦٣ » ، فالطبعة الأولى للرواية صدرت سنة ١٩٦١ •

أى فى الارهاصات الأولى للحركة الخمينية ، ومن هنا كانت خطورة الرواية ومن هنا صودرت ، وأغلب الظن أن الرواية لن تجد الترحيب فى ظل العهد الجديد ، فالثورة الدينية التى تصورها تنتهى الى الفشل، وتنتهى بهرب الشوار بليل ، وكلها اسقاطات لا أعلن أن العهد الجديد فى ايران سوف يتقبلها •

قلت ان الرواية تاريخية ، لكنها أيضا رواية تاريخية مستقبلية تأخذ من التاريخ سنداً لكى تستشرّف المستقبل استشرافاً نفاذاً ، وهى سمة غالبية فى الروايات التاريخية ، ومع ذلك لا أميل الى اطلاق الحكم على الرواية كرواية تاريخية ، فالأحداث التاريخية هنا مجرد خلفية وأداة لبيان أفكار شديدة المعاصرة ، ولتجلية مجتمع فى حالة غليان دائم ، فالرواية ايرانية حتى النخاع ، تقدم بنية المجتمع الايرانى لا فى فترة تاريخية معينة كما قد يتبادر الى الذهن ، بل فى صورة كلية شاملة لا تتقيد بالزمان أو التاريخ ، وقد تقدم تفسيرات كثيرة لأسئلة لاتزال تثير كثيراً من ظلال الغموض حول الثورة الايرانية الأخيرة •

والى جوار كل هذا قدم الكاتب روايته فى شكل ايرانى وصياغة

ايرانية ، فهي تتكون من مقدمة لا علاقة لها في الواقع بموضوع الرواية بل تنبع من الأدب الشعبي الفارسي ، ثم يدخل في موضوع الرواية الرئيسي فيقدمه في سبعة فصول يسمى كل فصل منها مجلسا وهي تسمية ايرانية للفصل مأخوذة من كتب الروايات والسير التي تكتب حول آل البيت ، ويختم الرواية بخاتمة يربطها بالمقدمة الأولى وبموضوع الرواية ، وعلى طول الرواية لا تغيب شخصية الراوى عنا ، بل ينتقل من حادثة الى حادثة ومن موضوع الى موضوع ويربط بين الأحداث وبعلق عليها ، كل ذلك في لغة فارسية خالصة حافلة بالكنايات والاستعارات والايماءات تتقدم كثيرا على لغة « هدايت » في هذا المجال ، فكان الكاتب أراد أن تكون روايته « ايرانية » شكلا وموضوعا ولغة ، وهذا هو ما توصل اليه بالفعل .



في اطار شعبي يقدم جلال آل أحمد روايته بالأسطورة الشهيرة في كل الآداب الشرقية والتي تقدم نظرة سياسية نفاذة فحواها أن السلطة السياسية في الشرق أمر يجرى مجرى الصدف والاتفاقات وخبط عشواء ، وقد يكون من يظفر بهذه السلطة هو آخر من يصلح لها بالفعل ، وأنه هو نفسه قد يكون ضائقا بها زاهدا فيها .. فنحن أمام راع أقرع ، حياته محصورة بين قطيعه والجبال والمراعي التي يرعى فيها هذا القطيع ، وذات يوم يسمع ضجة قادمة من ناحية أسوار المدينة ، ويهرع ليستطلع الخبر فاذا بصقر يطير ويحط على رأسه ، واذا بالناس يحملونه على الفور الى كرسى الوزارة وذلك بالطبع بعد استبدال ملابس الوزارة بالأسمال التي كان يرتديها . فماذا فعل ؟

خبأ ملابسه القديمة في مكان ما وأخذ يعودها كل يوم متحسرا على أيامه الخوالي ، وكان هذا بالطبع سببا في طرده من الوزارة وعودته مسرعا الى قطيعه في الجبل وحياته الأوئى .

هذه المقدمة الساخرة الحادة لا تلبث أن تسلمنا الى الفصل الأول من الرواية ، فاذا بنا في احدى المدن التي لا تتميز بشيء عن غيرها من المدن « فهي تحتوى على وزير وملا ومنجم وشرطة وعسس وشاعر وجلاد » ، ومن بين هذا الجمع يقدم لنا الكاتب بطل الرواية ، اثنين من كتاب العرائض المحترفين الذين يكتبون العرائض والشكاوى للأميين من أهل هذه المدينة وما كان أكثرهم ، أما الكاتب الأول فيسمى ميرزا أسد الله ، والثاني ميرزا عبد الزكى ، وقد نشأ معا وتربيا معا وكان وضع كل منهما لا يسمح له بأن يتنافسا معا ، فميرزا أسد الله سعيد في حياته العائلية رزقه الله بطفلين هما قره عينيه ، وميرزا عبد الزكى على صلة بالجهات العليا ولا يجلس الى منضدة على باب الجامع الكبير كما يفعل ميرزا أسد الله بل يتمتع بمكتب يزاول فيه مهنته ، الا أن أهم ما ينغص عليه حياته هو حرمانه من الذرية مما يسبب له « نكدا » مستمرا من زوجته ، وفيما عدا ذلك فهما يشتركان معا في كتابة صكوك المعاملات والصفقات لتجار السوق والخطابات المرسلة من الأميين الى ذويهم والواجبات المدرسية لأولاد الأعيان ، والتعدى أحيانا على مهام رجال الدين وكتابة وصايا كبار التجار أو عقود البيع لهم ، لكن هذه الأمور لم تعد ميسرة لهما وذلك لأن عيني « ميزان الشريعة » مفتى المدينة مفتوحان تماما ، ولا ينسى ميرزا أسد الله ما حدث له عندما تجرأ وكتب وصية أحد التجار ، وضيع على ديوان الشرع نصيبه المفروض في هذه الأحوال .. وبالطبع كان أغلب معاش هذين الكاتبين من كتابة عرائض الشكاوى لمن يقع عليهم الظلم في هذه المدينة ، ومن هنا كانا يعرفان الوجهة التي يجب أن توجه اليها كل شكوى لتصيب هدفها ، ومن هنا أيضا كانا على صلة بطرفي النقيض في المدينة : القمة الحاكمة والأغلبية المحكومة المقهورة ، وكان أحدهما وهو ميرزا عبد الزكى متزوجا من امرأة ذات حسب تمت بصلة قرابة الى « خانلر خان » الذي كان مرشحا

لمنصب « ملك الشعراء » أى شاعر البلاط ، وكانت هذه المصاهرة تدفع ميزان الشريعة الى اشراكه ككاتب لعقود الزواج في بيوت عليّة القوم ، وأهم من كل ذلك أن ميرزا عبد الزكى كان يحمل اللقب السحري في ايران أى لقب « سيد » الذى يدل على أنه من نسل آل البيت ، ومن ثم كان معروفا بأنه رجل مبارك مقبول الدعاء ، ومن هنا وسع دائرة أعماله لتشمل كتابة الأدعية والأحجية وبالطبع لم يكن ليرد احدى نساء الأشراف ان طلبت منه عملا من أعمال السحر والشعوذة ، وللشباب المتأدين كان ميرزا عبد الزكى يجمع الأشعار التى تصلح للالقاء في الأفراح والمآتم والمآدب أو عند عودة الحجاج ، وكان بارعا حقا في العثور على آيات من الشعر « تقتل الأئمة كلهم في بيتين أو تمدحهم في بيتين » ... وهكذا احتفظ جلال آل أحمد بسمة تقليدية من سمات الرواية الفارسية وهى تقديم الأشخاص في بدايتها ، الا أن اختياره لشخصيتين ذواتى صلة بالمجتمع قمته وقاعدته سببا في القاء الضوء على المجتمع بشكل عام ، وبالرغم من أن التركيز في هذا الفصل كان على الشخصيتين الرئيسيتين الا أن القارئ استطاع أن يظفر بفكرة عامة عن المجتمع وعن بعض الشخصيات الأخرى المؤثرة في هذا المجتمع وعن بعض القيم التى تحكم هذا المجتمع ، وبالرغم من أن الشخصيتين الرئيسيتين متشابهتان بشكل عام ، الا أننا سوف نكتشف فيما بعد حين نمضى في قراءة الرواية أن التشابه ليس هو السمة التى تجمع بين هاتين الشخصيتين ، بل هو تشابه ظاهرى يخفى وراءه تناقضا فكريا شديدا لالقاء معه .



في المجلس الثانى نزداد معرفة بشخصية ميرزا أسد الله عن طريق مناقشة بينه وبين طفله ، هذه المناقشة تبين كثيرا من آراء ميرزا أسد الله حول الفقر والغنى والطبقية فهو يحاول بشتى الطرق أن يفهم الطفل الذى يتعجب من الفرق بين مستواه في « الكتاب » ومستوى الآخرين

أن الأمر كله يتعلق بالوراثة وأن الفقير فقير لأنه يولد من آباء فقراء والغنى غنى لأنه يولد من آباء أغنياء فكل شخص يرث مهنة أبيه ومن ثم يرث مستواه ، وحينما يسأل الطفل : وأى ميراث سوف يتركه له يجيب : ان الميراث الذى تركه له والده الذى ستركه بدوره له هو هذه الحروف الصماء والتي تحتوى على كل « الكلام » ، سواء ذلك الذى نزل على الأنبياء أو كتبه الفلاسفة أو نظمته الشعراء ، وحتى اسم الله الأعظم الذى يدعى الدراويش أنهم توصلوا اليه مكون من هذه الحروف ، وهذا الكلام من الممكن أن يكون أداة للشيطان، لكن ليس على الانسان أن يجعل منه أداة للشيطان ، فاذا انصرف الطفل الى حال سبيله ، انصرف ميرزا أسد الله الى محل رفيقه ميرزا عبد الزكى ، ودار بينهما حديث تلتقى خلاله لأول مرة بالخلفية التى تدور فيها الرواية وهى ثورة الدراويش التى استقطبت الناس الذين يبحثون عن المعجزات ، ثم يدور الحديث عن حادثة أخرى سنعلم فيما بعد أنها غير منفصلة عن الحادثة الرئيسية أى ثورة الدراويش وهى وفاة الحاج « ممرضا » (نطق ايرانى لمحمد رضا) فجأة ثم اتفاق الورثة على وقف ثلث التركة ، وأن ميرزا عبد الزكى هو المدعو الى الذهاب لحصر الأملاك واعداد المستندات وما الى ذلك ، وبينما كانا يناقشان هذا الأمر ، يحضر قروى لكتابة شكوى ، فقد جاء الى المدينة لبيع « جنبه » فصولد بغله فى السخرة ، ومن خلال حديثه نلم بعض أطراف جو الفوضى الذى تعيشه المدينة والرشوة والفساد المتفشين فيها ، فاذا انصرف القروى بعد أن تعلم درسا عما ينبغى أن يقوم به فى المدينة لكى تقضى مصالحه ، عاد بطلانا الى الموضوع الرئيسى وهو موضوع وقف ثلث تركة الحاج « ممرضا » ، وأن ميزان الشريعة نفسة هو ناظر الوقف ، ثم ينتقل ميرزا عبد الزكى الى أوضاعه العائلية؛ ان زوجته مصممة على الطلاق ، وتفسد له معدته بما تضعه فى طعامه من أعمال السعوضة حتى صار طعامه كله من السوق وبالأمس أنذرته انه

ان لم نذهب الى طبيب البلاط ويجد علاجاً لعقسه فسوف تترك له المنزل. ويقترح عليه ميرزا أسد الله بأن يعرض نفسه على طبيب آخر هو خال ميرزا أسد الله نفسه ، وأن يشغل زوجته بشيء ، كأن تشترك مع زوجة ميرزا أسد الله في نسج السجاجيد في منزل ميرزا عبد الزكى .

فاذا بدأ المجلس الثالث انتقل بنا المؤلف الى منزل كل من أسد الله وعبد الزكى حيث تقنع زوجة الأول وزوجة الثاني بأن يبدأ فعلاً في مشروع نسج السجاد ، وكان الصديقان في منزل ميرزا أسد الله حيث يحضر خاله الطبيب لفحص ميرزا عبد الزكى ، وبعد أن يسخر من أعمال السحر والشعوذة التي يقوم بها يقوم بفحصه ثم يسر الى ميرزا أسد الله بأنه لا فائدة ترجى من شفاء صديقه وأنه لا يعرف سبباً لما يعاينه ومن ثم لا يعرف علاجاً ، ويدرى ميرزا عبد الزكى بحاله فينهار ، ولكي يحول ميرزا أسد الله دفة الحديث ينتقل الى حادثة حاج ممرضا ووفاته ، ويلقى الطبيب الشيخ الذى يدخل كل البيوت الضوء على هذه الحادثة التي تثير الشكوك والريب ، ان الرجل فيما يعلم لم يمت بالأجل الالهى بل مات بالأجل المعلق ، لقد مات مسموماً ، وهو نفسه (كطبيب) يعلم نوع السم الذى دس له ، وأن من دس له السم ليسوا أولاده كما يشاع ... ولا يزيد ، وينصرف الرجلان : ينصرف ميرزا عبد الزكى الى محله ، لكن ميرزا أسد الله الذى يهتم كثيراً بالأحداث العارضة وبماذا يمكن أن يكون وراءها يمضى الى منزل حاجى ممرضا يتشمم الأخبار ، ويفاجأ بأن البيت مغلق وعليه حارسان يسخران منه ثم يهددانه فينصرف ويعرج على دكان فحام من أصدقائه ، وببراعة ينتقل من الحديث حول أسعار الفحم الى الحديث عن القضية التي تشغله أى قضية حاجى ممرضا ، واذا بالفحام يلقي ضوءاً آخر على الحادثة ، لقد كان الرجل بالفعل على علاقة بالدرأيش وكان يتردد على تكيتهم ويتعامل معهم ، ويمضى الى عيادة

خاله لينقل اليه هذه الأنباء فيضيف خاله بأن حاجي ممرضا ليس هو الوحيد الذى قتل بهذه الطريقة بل هناك تجار آخرون فى المدينة قتلوا بنفس الطريقة ، وأن المدينة تنتظر أحداثا جساما ، ومن الخير له أن يغادر المدينة لمدة أسبوعين ، ولا ضرر فى أن يذهب مع ميرزا عبد الزكى لحصر أملاك ممرضا وتنفيذ الوصية ♦



بعد أن تشابكت أماننا الأحداث وازدادت غموضا ، يشفق علينا المؤلف ويعود بنا فى المجلس الرابع الى الخلفية التاريخية للرواية ، ويقدم اعتذارا لاضطراره الى الحديث عن هذه الموضوعات لأنها كانت تجرى فى الوقت الذى كان يعيش فيه بطلانا ، وكأنه يريد بهذا أن يوهمنا بأنه يقدم حياة البطلين من خلال الأحداث وليس العكس كما هو واضح بالفعل ... قبل أربعين سنة من الوقت الذى تجرى فيه أحداث الرواية ظهر عدد من الدراويش بمذهب جديد يدور حول أن النقطة « التى توضع على الحرف » هى محور الكون ، ثم خطوا التكليف عن الناس ، وذهبوا الى أن التقرب الى الله يكون عن طريق التقرب الى خلق الله ، وأن حل مشاكل الانسان لب العبادة ، وبدلا من الاستفتاح « باسم الله » كانوا يقولون « أستعين بنفسى » وبدلا من « لا اله الا الله » كانوا يقولون « لا اله الا المركب المبين » ، وكان شعارهم الطبرزين « الفأس ذات الحدين » يرسمونها وشما على ظهور أكفهم ، وعند ظهور المذهب كانت الحرب محتدمة بين الشيعة والسنة « الصفويين والعثمانيين » ، وكانت ايران التى تشيعت حديثا تعمل المذابح فى أهل السنة من أبناءها ، كما امتلأت الطرق بضحايا الحروب ومشوھيها يتكففون الناس ، وانتشرت المجاعات وساد القحط ، وفى مثل هذه الظروف كان لابد وأن ينجح الدراويش ، وسرعان ما نسجوا أساطيرهم بعد وفاة امامهم « ميرزا كوثشك جفردان » ، فقالوا انه لم يمت بل غاب وسوف يعود فيملا

الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وزاد من نفوذهم أن اعتبرت تكاياهم حرما آمنا يلاد به كل هارب من الجندية ثم كونوا بمدار الزمن أنصارا من بعض أعيان المدينة الذين دانوا لهم بالطاعة التامة ... وعندما كانت أحداث هذه الرواية تدور ، كان رئيس الدراويش هو « تراب تركش دوز » الذى استطاع بكراماته كما يروج العامة أن يظفر برأس قائد أهل السنة ، والذى أصبحت تكاياهم ملجأ لكل صاحب مشكلة أو فار من العدالة ، وعندما كثر أتباعه جعل كل تكية من تكاياهم مركزا لحرفة من الحرف ، وبالرغم من أنه كان فى الأصل نساجا لكنافات السهام كما يدل اسمه الا أنه كان دائم الإقامة فى تكية خراطى السلاح ... الى هذا الحد ولم يكن هناك خطر على الحكومة القائمة ، فبين الآن والآخر كان اذا جاوز أحد الحدس له السم أو سملت عيناه أو طلى جسده بالشمع وأضرمت فيه النار ، لكن القضية بدأت تتجه اتجاهها آخر حينما أشيع أن تراب تركش دوز يجد جدا شديدا فى صنع المدافع ، وتحققت الاشاعة عندما اندس « خانلر خان » فى تكية الدراويش وتحقق بالفعل من أن تراب صنع ثلاثة مدافع ... يا للمصيبة ، ان هذا السلاح لم يصل ايران بعد ، ومعظم الهزائم التى تمنى بها ايران من أهل السنة تعود الى أن واحدا من كل عشرة من الجنود الايرانيين يحمل بندقية ناهيك عن المدفع ... اذن : لم يعد هناك بد من اخبار السلطان .

فى مشهد من أهم مشاهد الرواية يصور المؤلف بسخرية شديدة المجلس السلطانى ، وكيف تم اخبار السلطان بالخطر المحدق بعرشه ، وكيف اجتمع الوزراء ورجال البلاط للتباحث بشأن كيفية اعلام « الباب العالى » ، وكيف أن كل المحاولات باءت بالفشل ، فالتقصيدة التى نظمها خانلر خان وأوما فيها الى الأمر لم يفهم منها السلطان شيئا ، وتوسلوا بجاريته المفضلة ، لكنها رفضت أن تفسد « ليلتها » التى ستأتى بعد انتظار ثلاث وثلاثين ليلة بمثل هذه الأنباء ...

وفي الصباح يكون « فبلة العالم » نائما ولا يمكن للأسد نفسه أن يوقظه ... ومر شهر استطاع تراب تركش دوز خلاله أن يصنع ثلاثة مدافع أخرى ، واجتمع رجال البلاط : صاحب الديوان ومقرب الديوان خانلر خان ورئيس المنجمين الذي كان قد خلف والده حديثا ويريد فرصة لاثبات اخلاصه ، وبدأ التحرك المضاد نسجلت أسماء سبعة من تجار السوق بينهم حاجي مرضا ، ودس لهم السم جميعا ، وأمر « ميزان الشريعة » بمصادرة أموالهم ، كما أمر رئيس الشرطة بمصادرة بعض البغال والخيول لصالح الحكومة ، كما أرسلوا الى التكايا من يشيع أن عودة ميرزا كوتشك جفردان قد باتت وشيكة ، وعندما تمت هذه الأمور ، وفي نفس الوقت الذي تحرك فيه بطلانا الى أملاك حاجي مرضا ، عقد المجلس السلطاني بحضور الأشراف ورجال الدولة •

تقدم خانلر خان وألقى قصيدته وأشار فيها الى تعدى الدراويش ، ووضع فيها كلمة « المدفع » أكثر من مرة ، وانطلقت صيحات الاستحسان ، لكن « ملك الملوك » لم يحرك ساكنا ، ثم تقدم المنجم بأسلوبه المعقد الملان بالمحسنات فحذر « الملك » من النحس المحدق بالملكة ، وهنا أحس السلطان أن في الأمر شيئا ، وهنا تقدم الوزير الأعظم وبعد المقدمات التقليدية حذر السلطان من الأيام القادمة وطلب منه أن يقدم موعد « مشتاه » حتى اذا حدث هجوم كانت الضحية غيره ، وثار الملك ، انه لم يفهم الا أنهم يريدون الخلاص منه ، ووسط الفحش « الهمايوني » وبذاءة اللسان السلطانية يستدعى السياف فلا يجد الوزير الأعظم بدا من اخباره الأمر برمته ، ويقدم الحل : ان المشتى قريب من الحدود ، ومن هناك يمكن انفاذ الرسل الى « الأعداء » للتباحث معهم في أمر الصلح ، وفي أثناء ذلك تكون الحاشية قد تمكنت من سجن بعضهم وقتل

بعضهم ونفى بعضهم وتموت الفتنة ، ووافق السلطان معبرا عن موافقته بسيل من الشتائم المقدعة ينهال بها على وزيره الاعظم .



في المجلس الخامس يعود بنا المؤلف الى الكاتبين في رحلتهم الى أملاك حاجي مرضا في صحبة نائب الشرطة مع عدد من الحرس ، وخلال الرحلة نطالع الخراب العام في قرى البلاد ، كأن قحطاً قضى على الناس أو كأنهم فروا من وباء ، وكأن المحاصيل المكومة في الحقول كومات صغيرة من التراب تخلفت عن لعب أطفال .. ويدخل الموكب قرية ممرضا فلا يجد أحداً في الانتظار ، حتى القرويون الذين كانوا يعلسون في مشارف القرية تركوا أعمالهم وهرعوا الى القرية يختبئون خلف جدران منازلهم ، وبينما نائب الشرطة يلقي بكل ما يعلمه من فحش على الفلاحين الجهلة الأشرار ، وعندما وصلت القافلة الى ميدان القرية كان الابن الأكبر للحاج في انتظارهم بصحبة العمدة، أراد ميرزا أسد الله أن يتحدث مع ابن الحاج الذي كان زميله في الكتاب لكنه يتحاشاه ، وفي خفية من الباقيين يدس في يده ورقة فحواها « ان عمل رفيقك معلوم فما شأنك أنت ؟ » وفي خلوة يلتقي الرفيقان القديمان ، ويقص ميرزا أسد الله عليه كل ما سمعه عن وفاة أبيه ، انه لم يأت الى القرية الا لعقد محاولة الصلح بين الاخوة المتشاحنين كيلا يصيد « ميزان الشريعة » في الماء العكر ، لكن حسن آقا ابن الحاج يبين أن القضية معكوسة تماما ، لقد قتل الوالد ، وهدد الورثة جميعا : ان لم يتنازلوا طواعية عن كل أملاكهم فسوف يتركون في السجن حتى يتعفوا ، سوف تقسم التركة : ثلث لميزان الشريعة وثلث للصدر الأعظم والثلث الباقي مناصفة بين نائب الشرطة والكاتبين ، ان ميرزا أسد الله لم يكن يفهم كل هذه الأبعاد، انه لم يغادر المدينة الا لأن جو الفتنة فيها يبيض ويفرخ ، ويعترف

حسن أن والده والتجار الستة الآخرين المسمومين كانوا مستودع أسرار « الشخص الواحد » أى رئيس الدراويش ، ويطلب ميرزا أسد الله من « حسن » أن يقاتل دون ماله فان مات مات شهيدا ، الا أن حسن لا يعترف بهذا الحديث ، ان من يموت دون ايمانه هو الذى يموت شهيدا ، ان ضاع المال فان « الشخص الواحد تراب محللة الحق » باق ، لقد امتنع الوالد من دفع الخمس لميزان الشريعة فكان ما كان ، ويعد ميرزا أسد الله حسنا بأنه سوف يتصرف بوحى من ايمانه القديم ، ان استطاع أن يقنع رفيقه فيها ونعمت ، وان لم يستطع فسوف يتصرف وحده ، وليس معنى ذلك أنه يعتقد اعتقاد صديقه القديم أو والده ، ويحذره حسن ، انه ان تصرف تصرفا يغضب ميزان الشريعة فسوف يزج بنفسه فى المشاكل وهو رب عائلة ، ولكن أسد الله الذى سوف يتكشف رويدا رويدا عن ثأر من طراز خاص يجب : لايمكن أن تكون الزوجة ويكون الأبناء عذرا للانسان عن كل ذنوبه ، وبناء على هذا المنطق فان الجلادين لو بشوا همومهم فسوف يخيل اليك أنهم انما يزاولون الحج الأكبر من أجل زوجاتهم وأبنائهم ، غافلين عن أنهم ان كانوا يعولون أولادهم بهذا العمل فكأنما يربون من كل ولد من أولادهم قاتلا مجرما لأنه يسقى جرعة من دم الناس مع كل لقمة يطعمها ... هذه هى اللقمة الحرام حقيقة .

ويخلو ميرزا أسد الله بعدها الى زميله ، فيسر اليه بأصل المهمة التى جاء من أجلها ، لقد جاء لسرقة أموال الناس ، لكن ميرزا عبد الزكى يحتد عليه ويبدى ضيقه به وبمثالياته ، ثم يخبره بأنه لم يكن يعلم أن له نصيبا فى التركة ، لكن ميرزا أسد الله يحرجه: اذا عرض عليه عقد بما أخبره به هل يوقع أم لا ؟ ان علم أن ميزان الشريعة قد خدعه وأنه اتفق معه على شئ واتفق مع نائب الشرطة على شئ آخر هل يوقع أم لا ؟ لكن ميرزا عبد الزكى متردد : ان

لم يوقع فسوف يقع في عداء مع ميزان الشريعة لا يعرف أحد مداه ولا يطيقه ، تم ما الفرق بالنسبة لهؤلاء القرويين أن يكون المالك ورثة الحاج أم غيرهم ؟ لا فرق ... لكن ميرزا أسد الله يصر أن في الأمر ظلما ومن واجبهما ألا يشتركا في هذا الظلم ، ثم ان منطق ميرزا عبد الزكي قد يكون مبررا لكل أنواع الظلم ، اذا كان كل انسان سوف يقول : ان لم أقم بهذا العمل فسوف يقوم به آخرون فلماذا أمتنع أنا ماذا يكون الحال ؟ ان هذا المنطق يرضى الحرص لكنه لا يرضى العقل والضمير .. وتنتهى المناقشة بين الكاتبين .

أرأيت كيف قام المؤلف بهذا الحوار الممتع ببيان التناقض الذى سوف يزداد بين الشخصيتين الرئيسيتين وكنا نظن أننا متشابهان فى كل شيء ؟ وسوف نعلم مع تطور أحداث الرواية أنهما طرفا نقيض دون أن نرى فى هذا التناقض نبوا أو افتعالا .. ان الكاتب يقدم نموذجين موجودين فى كل زمان وكل مكان وتحت ظل كل دولة وفى اطار كل سياسة : ذلك الذى يكون نائرا عن ايمان ومنطق لكنه يعيش الثورة دون أن يجعل منها خبزا يؤكل وخطبا تلقى ، وذلك الذى تجرفه الثورة فيبدو من أشد الناس ثورية وهو لا يزيد عن كونه نهاز فرص ، وهكذا فعندما ينعقد المجلس ، يكون ميرزا عبد الزكي أكثر حماسا فى الدفاع عن حقوق ورثة الحاج ، ويحطم ميرزا أسد الله خاتمه ، وينتهى المجلس بالقبض على الكاتبين وترجيلهما الى خارج القرية ، وقبل الخروج من القرية يهاجم القرويون الشرطة ويطلقون سراحيهما ... وينتهى هذا الفصل بأن يتنازل حسن آقا عن كل أملاكه للزراع .

فى المجلس السادس ينتقل بنا المؤلف الى المدينة ، السلطان غادر قصره بليل مع كل وزرائه وخدمه وحشمه والمحظيات من حريمه ، والاشاعات تملأ المدينة بأن الدراويش سوف يدخلونها ويحدثون

مذبحة ، والجو العام ينبىء بذلك ، فالقصر الملكي مغلق ، والطرق تخلو من الشرطة ، أما الحركة ففي تكايا الدراويش . ولم تكد الشمس ترتفع حتى خرج الدراويش من تكاياهم ومن خلفهم الناس يستولون على المخافر التي كانت خالية تقريبا من الحرس ، ثم مخازن السلاح ومن بعدها بوابات المدينة ، وأشعلت النار في سوق المدينة ، وسرعان ما شاع الخبر بأن جواسيس الحكومة هم الذين أشعلوا النار لاحداث مجاعة ، وكان الرد هو نهب مخازن مؤن الحكومة ، وحرك الخوف من القحط الناس فانطلقوا خارج منازلهم وفتحوا سجن الحكومة وأطلقوا من فيه ، وقبيل الظهر انطلق المنادون في المدينة معلنين أن « تراب تركش دوز » يسيطر على المدينة وأن حرية العقيدة مكفولة للجميع ، لكن على كل من يمتلك بندقية أو هاون نحاسي أن يحولهما الى تكية خراطى السلاح والا فسوف يكون للدراويش الحق في الهجوم على البيوت ومصادرة هذين النوعين ... ثم هدأت الأمور كما ثارت فجأة .

وفي تكية خراطى السلاح حيث يقيم « تراب تركش دوز » ، كان هناك لقاء مع رسول من قبل ميزان الشريعة وخانلر خان ، انهما يريدان الاجتماع بتراب لكنهما في البداية يريدان أمانا مكتوبا ، ويجيب تراب بأن لهما الأمان بشرط أن يكف ميزان الشريعة عن لعبة التكفير التي بدأ يقوم بها ، ويرد خانلر خان خمسة آلاف دينار ذهبي كان قد أخذها هبات عن شعره الى الخزانة ، وأن يسلم القصر الملكي ، فتراب يعلم ما هو موجود في القصر ، ونفاجأ بأن جلاد البلاط كان من أتباعه وكان ينقل اليه كل ما كان يحدث في القصر ، والقصر لا يعنى عند تراب الا مخزن البارود الموجود فيه ، أما ميزان الشريعة وخانلر خان فقد بقيا لاشعال الفتن وعرقلة الأمور حتى ينجح الملك في مفاوضة الأعداء ويتنازل لهم عن عدد من مدن الحدود في مقابل عدد من المدافع يقيم بها حركة الدراويش ، أما خطة الدراويش

المضادة فبنيّة على أن المباحثات بين السلطان والأعداء سوف تستغرق على الأقل مدة شهر ، فإذا استطاع الدراويش صناعة مدفع كل يوم وجب أكبر عدد من البنادق فسوف يكسبون الجولة .

يكلف حسن بالاشراف على مؤن المدينة ، كما يكلف أيضا بمحاولة ضم « بطلينا » الى معية الدراويش ، ويفكر تراب في الدخول هو الآخر في مفاوضات مع الجيران ، ويلتقى الشخص الواحد مع ميزان السريعة وخانلر خان ، ويحذرهما ، لقد منحهما الأمان ، لكنه لا يستطيع الوقوف أمام الناس ان أرادوا شيئا ، لكن ميزان السريعة جاء يسلم مفتاح القصر الذى يحتوى على حريم الملك وهو لا يريد أن يتحمل مسؤوليتهن « فى هذه الأيام التى يبحث كل واحد فيها عن مصلحته » ، ومع ذلك يقبل خانلر خان الاشراف على جناح الحريم ، وانتقل الدراويش الى القصر ، أما التكايا فقد خصصت لمباشرة حقوق الناس .

فى اليوم التالى ألغيت بعض الضرائب التى كانت تثقل كواهل الناس . وخفضت أسعار بعض السلع الضرورية ، وبدأت المدافع تعرض فى الطرق وعليها مناد يعلن الناس مزايا العوض الذى يتلقونه فى مقابل هاوناتهم النحاسية ، أما الناس الذين لم يروا من الدراويش ما كانوا يخشونه من قتل أو ضرب أو سجن فقد انصرفوا الى أعمالهم وأصبحوا أقل قلقا وأكثر بشرا ... هكذا استطاع المؤلف خلال بضع صفحات أن يتحدث عن قيام ثورة بكافة مستوياتها ، وتركيز معجز صور انتقال السلطة ومواقف الناس ، بل والتغير الذى حدث فى شوارع المدينة ، وذلك دون أن ينفرط منه الخيط ولا غرو فوراءه ماض فى الثورات يمكنه من أن يقوم بكل ذلك بهذه الأساذية .

لكن الشئ الذى بدأ يؤرق الناس هو حمل هاوناتهم النحاسية من بيوتهم « فالهون كان يأخذ معه البركة من البيت » ، وبالرغم من

الأوامر المشددة بعدم استخدام القوة مع الناس ، اضطرت الدراويش الى كسر الأبواب ودخول البيوت وحمل الأهوان قسرا ، ومن ثم فان كاتبنا ميرزا أسد الله أخذ يستقبل زبائن من نوع جديد ، كلها تشكو من الاستيلاء على الأهوان ، وها هي امرأة تسخر أمامه من اسم الشخص الواحد ، ورجل آخر يبدى عدم اقتناعه بأن الأمر تافه ، فالأمر قد يبدو تافها ، لكن الظلم يبدأ دائما من الأمور التافهة ، انه لا يقبل أبدا أن يوضع البارود في الهاون الذي كانت امرأته تدق فيه اللحم ، كما أنه لا يقبل أن يتسبب هونه في سفك دم أحد وهو لا يقبل الايذاء ، وثالث يحتج بأن هونه وقف وأثرى فهو غير قابل للمصادرة ... أرايت كيف أنه من الصعب على أى نظام جديد أن يرضى الناس ؟ لقد عصمت الحكومة الجديدة دماءهم وأموالهم ، ولم تتعرض لهم بأذى ما قل أو كثر اللهم الا فيما يختص بهذا الموضوع التافه ، لكن أسد الله يكتب العرائض ، ثم يأتى اليه « حسن » طالبا بأن يخلو اليه والى رفيقه معا .



نحن الآن فى موقف من أهم مواقف الرواية ، حيث يعرض حسن على الكاتبين التعاون مع الحكومة الجديدة ، ونواجه موقفا قد يبدو من النظرة السطحية غريبا لكنه واقعى كأشد ما تكون الواقعية ، ان الناظر نظرة سطحية الى أخلاق ميرزا أسد الله والى وضع ميرزا عبد الزكى لابد وأن يتوقع أن ميرزا أسد الله سوف يقبل وأن ميرزا عبد الزكى سوف يعتذر وذلك على الأقل لصلته بالنظام القديم ، لكن العكس هو الذى يحدث ، فان من تقوم شخصيته على أخلاقيات ومبادئ يكون من الصعب عليه أن يتغير ، أما الذى ينظر الى « الوضع » فسرعان ما يستبدل ولاء بولاء ووضع بوضع ، ان ديوان القضاء معروض على ميرزا أسد الله ، بينما ديوان المؤن والسلاح معروض على ميرزا عبد الزكى ، وميرزا عبد الزكى قد قبل

لكنه ينتظر جواب ميرزا أسد الله ، ويعتذر ميرزا أسد الله : ان هذا الوضع فوق طاقته ، نقد خلق لكتابة العرائض فحسب ، لكن ميرزا عبد الزكى يحاول اقناعه : ان هذا العمل مناسب له تماما فلم اذا يحط من قدر نفسه ؟ فيرد ميرزا أسد الله : ان أساس كل عمل هو الايمان فلا بد أن يؤمن أولا بما يؤمن به الدراويش لكى يستطيع أن يعمل معهم ، ويحرك ميرزا عبد الزكى « وهو أكثر حماسا من حسن أحد مؤسسى حركة الدراويش » وترا آخر فى نفس ميرزا أسد الله فيقول له لامزا : لعلك خائف ويحييه أسد الله : اننى فى مكاني ولست فى حاجة الى أن أدق رأسى كل يوم فى باب أو فى جدار وأقوم بحيلة ما ، ويرد ميرزا عبد الزكى : اننى رجل مغامرة .. لكن ما حدث فى القرية يؤلم رأسك أكثر ، ويتدخل حسن فى الحديث ، فيدافع عن ثورته دفاع المستميت ، انها ثورة للدفاع عن الناس ، أما الأهوان فانه حتى مصير عالم القدس معلق بأصوات المدافع ، ويرد ميرزا أسد الله : ان الحكومة كانت هى الأخرى تملأ أفواهها بمثل هذه الكلمات ثم ان الأمر لم يستقر بعد ، فمن الذى يدرى ماذا سيحدث غدا ؟ لنفرض أن الدراويش سيطروا على مدينة أو مدينتين فماذا سيحدث بعدها ؟ ثم انهم يدعونه الى أمر لا وضوح فيه بالنسبة له « ان الانسان المؤمن فقط هو الذى يمشى بعين مغمضة » ، أما ميرزا عبد الزكى فيحاول الاقناع بطريقة أخرى ... ان الأمر بالنسبة له « حركة ، تغيير ، تنوع » ويحاول حسن أن يدق على نقطة أخرى : ان المبادئ وضعت أصلا من أجل الانسان ... ومبدؤهم يهتم بالانسان ولو على حساب المبادئ والأصول وعندما يستقر الانسان سوف تعود المبادئ والأصول ، لكن ميرزا أسد الله يرد : ان المبادئ الحقيقية لا تغيب ثم تعود ، انه يعرف معتقداته القديمة تماما ، أما هذا المعتقد الجديد فسوف يكون تكتة جديدة للتكفير وسفك الدماء وتصفية الحسابات ، وهذا يناقض المبادئ

التي يؤمن بها ، لقد انقضى الزمان الذي كانت فيه المذاهب والأديان عاملا أساسيا في التطور انه لا يدرى أى عمل يسكن أن يقوم به في هذا المجال ، فلا هو زعيم ولا هو امام ولا هو قد أنى بسذهب جديد .. أما هم فهم لا يفعلون شيئا الا أنهم يجهزون لمذبحة جديدة ، ويذكره عبد الزكي بما حدث في القرية على أيدي شخصين فقط ، لكن المدينة غير القرية والوطن كله غيرهما ، ويحاول حسن أن يقنعه بأن الحق لا محالة منتصر ، وأنه لا بد من الدفاع عن شرف الانسان ، ويضيف ميرزا عبد الزكي : من الذي يمكن أن يعيش ليرى بلاطا يخلو من كل هيلمانه ، فيطلب منه أسد الله ألا يكون عاطفيا ، فالأمر في نظره لا يختلف كثيرا ، حكومة ذهبت وحكومة جاءت مع كل ما يلزم للحكومة من جلد وسجن ومصادرة ونفى ، منذ آلاف السنين والناس ينتظرون حكومة عادلة وعاقلة ، لكن العادل والعاقل لا يحكمان ، الحكم صنعة من لا رؤوس لهم ، صنعة الأراذل ، في حين أن الدنيا يمكن أن تسير بدون حكومة ، جرب في المجتمع ، المشكلة التي تحل وديا تحل وان وصلت الى الحكومة فقل على الدنيا العفاء ، ويقول عبد الزكي : ان هذا هو منطق الذين لم يصلوا قط الى الحكم ، فيقول ميرزا أسد الله : وما هو منطق الحكم الا القتل ثم القتل ثم القتل ، ان الحكم لا يحتاج من الانسان الا القدرة على الطفو وعلى معرفة اتجاه التيار ثم يتعلم أن يغض عينيه من البداية وبعدها تصير عادة وحتى عين الضمير بعدها لا تريد أن ترى شيئا ، ويضرب حسن الأمثلة من التاريخ عن العقلاء والمفكرين الذين شاركوا الطغاة الحكم من أمثال أرسطو ونظام الملك ونصير الدين الطوسي ، ويوجب ميرزا أسد الله : انهم كفروا بمؤلفاتهم عن هذا الخطأ ، ثم : من قال ان الحق كان معهم « ان الحق في كلام الشهداء ومن هنا فأنا أنظر الى التاريخ من خلال الشهداء من خلال المسيح وعلى والحلاج والسهروردي » ، اذن فهو ينتظر

المعصوم « الامام الغائب » ، ويجب : ان كل انسان يبحث عن شيء ما ، ثم ان الذى ينتظر امام الزمان لا يعترف بالحكومات الدنيوية ، وكيف يكون الأمر كذلك وهو يقول ان الأديان لم تعد تستطيع أن تغير شيئا في حين تفقد الشهادة كل مفهومها خارج نطاق الأديان فينكر ميرزا أسد الله أن الشهادة لا توجد خارج نطاق الأديان ، ويتدخل ميرزا عبد الزكى : انه لا يؤمن أيضا بذهب الدراويش ، لكن اذا كانت الأمور قد ساءت ولم يعد هناك أمل في الإصلاح فمن حق أى انسان أن يأمل في أى طريق جديد ، بينما يستمر ميرزا أسد الله في جدله : ان أكثر ما يؤرقه هو الفكر ، الفكر الذى أخرج آدم من الجنة ، وهو الأمانة التى عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها ، ويتدخل حسن « المؤمن المتحمس في مقابل أسد الله المثالى العالم وعبد الزكى الاتهامى » قائلا : الى متى يغرق الانسان في التفكير في ما حل بآدم وسواه بينما لا يفكر في الانسان الذى يعيش على الأرض ، ان المفكر الحقيقى هو الذى يعيش عصره يقاوم الظلم ولا يستسلم له ، ثم من أين يدري أن تراب محلة الحق ليس هو أمام الزمان ؟ ويجب ميرزا أسد الله : لست ممن ينتظرون امام الزمان ، ان كل انسان هو امام زمانه ، عليه أن يقوم في عصره بما يقوم به امام الزمان ، ويجب حسن : لا ، انك تنتظر امام الزمان ، وفي نفس الوقت فأنت تكره الوضع الموجود فما الذى يعطلك ثم يتدخل ميرزا عبد الزكى : على الأقل لكى تحافظ على شرفك ... ويتغير موقف أسد الله بعد هذا النقاش الطويل الذى اختصرته بقدر الامكان .. على الأقل ليخرج عن هذه السلبية التى لا يمكن أن تكون المقابل للنعم التى أنعم الله بها عليه .. لكنه مع ذلك لن يستطيع أن يعالج أبدا داء من أدواء الأيام .

في الفصل السابع اذن تكتمل عناصر الصراع : الثورة بكل

ما فيها من اندفاع وقوة وفي نفس الوقت لا تعتمد على قاعدة شعبية ،
 وجانب السلطة الغائب عن مسرح الصراع ماديا لكنه أكثر نشاطا
 وأكثر حضورا وفعالية ، وها هما بطلانا ، كل منهما منهك في عمله
 الجديد بمساعدة عدد من الدراويش بعد تدريبهم على العمل ، ولكن
 ميرزا أسد الله بولايته القضاء أكثر اتصالا بالجماهير التي تظهر
 كالكورس اليوناني بين الآن والآخر معلقة على حدث من الأحداث ،
 وماذا عن الجماهير ؟ كان سخطها على الحكومة الجديدة يتطور
 تطورا سريعا ، في البداية كانت النساء تشكو من انضمام أزواجهن
 الى الدراويش تهربا من النفقة ، ثم الشكوى من قذارة المدينة ،
 لكن هذه المشاكل حلت ، وبينما الناس آمنون الى حكومة الثورة ،
 اذا بالحكومة تقدم الدليل الأول على فشلها ، فبينما هم يعرضون
 عددا من المدافع الجديدة ، اذا بخمسة مدافع تنفجر فتطيح بمن
 يجربونها أشلاء ، وحين ينتشر الخبر في المدينة وينتقل من فم الى فم
 يكون عدد المدافع التي انفجرت قد وصل الى الخمسين ، ليس
 هذا هو المهم ، المهم أن ثقة الناس في الدراويش قد اهتزت ، وتشهد
 دكاكين الخبازين وباعة الغذاء ازدحاما لا يحدث الا في أوقات
 القحط ، ثم شغب من نسوة الرجال الذين رحلوا مع الملك يريدون
 تعهدا بعدم ايداء نساء الحريم السلطاني ، ثم حدث ما هو أخطر
 فثار طلاب المدارس الدينية بعد أن قطعت جراياتهم بفعل جواسيس
 الحكومة المندسين ، وهكذا بدأت المدينة تتحرك ، وسرعان ما تحالفت
 الطبيعة مع الحكومة فاذا بالنلج يسد الطرق ، والقرى تنكص عن
 مد المدينة بالغذاء الا اذا دفعت نقدا ، وعندما يقل الغذاء بزداد حرص
 الناس ويزداد شرهم ، كل هذا و « الشخص الواحد » معتكف
 في عزلة « أربعينية » ولا يجرؤ أحد على ابلاغه بالأمور التي تسوء
 يوما بعد يوم ، ثم يقوم المحتكرون باخفاء المؤن في مخازنهم ،
 لا فائدة الا أن تتحرك الجماهير بنفسها لنهب المخازن ، وهذا أمر

يعرف الدراويش جيدا كيفية تنفيذه ، ولكي تتم عملية ضبط المؤن ، على الدراويش أن يقوموا بعمل احصاء عام ، والناس خائفون يعطون معلومات مضللة ، فالاحصاء لا يعقبه الا التجنيد الاجباري، وهكذا كانت الفجوة تزداد يوما بعد يوم •

وفي نهاية الشهر الخامس من استيلاء الدراويش على السلطة ، اندفع الناس الى الشوارع ، وحدث ما كان يحدث في عهد الملك الهارب ، الناس في جانب ، والدراويش المسلحون في جانب آخر ، وبالرغم من أن المشكلة قد انتهت دون عدد يذكر من الضحايا الا أن الثقة كانت قد انعدمت تماما ، بدأ الدراويش يفرقون المتجمهرين أمام مجال الأغذية بالقوة ، ثم ودون أن ينتظروا فتوى من ميرزا أسد الله قبض الدراويش ذات صباح على ثلاثة من المحتكرين وشنقوهم أمام محالهم السرية ، وبالهول ما حدث بعدها ، شيعت جنازتهم كأبطال وشهداء •• وسرت النار في الهشيم ، نار ساعد جواسيس الحكومة على اشعالها •

كان هذا يحدث بينما كان سفراء أهل السنة يدخلون المدينة للتفاوض مع الحكومة الجديدة ، لكن الملك الهارب كان أكثر كرما ، فبينما لم يتعهد تراب الا بعدم التعرض لأهل السنة ، كان الملك قد تنازل عن سبع مدن على الحدود في مقابل تأجير أربعمئة مدفع لمدة شهرين ، وها هو يستعد للزحف على المدينة عندما تنكسر حدة البرودة ، اذن هذا هو الموقف : المؤن تقل ، ومدافع الدراويش غير مأمونة العواقب ، والصرافون أغلقوا محلاتهم وتبخروا ، وعندما تكسر محلاتهم وتوجد خاوية يقبض عليهم ويسجنون ، اذن أصبح للدراويش هم الآخرين قتلى وسجناء ، ولضغط المصروفات حتى ينتهى الشتاء فرضوا عددا من الضرائب وخفضوا جرايات طلاب العلم ومرضى الجذام الى النصف ، وأطلق جواسيس الحكومة اشاعة بأن الدراويش

سوف يغلقون معسكر المجذومين ويطلقونهم الى الشوارع ، وهاج
الناس وانطلقوا بمشاعلهم لاحتراق دار المجذومين عليهم ، ويسرع
ميرزا أسد الله مع عدد من الدراويش عن طريق آخر ، وينم انقاذ
المجذومين ، لكن بعد سقوط عدد من القتلى •



تنكسر حدة الثلج ، وينصرف الناس الى أمورهم هادئين ، لكنه
الهدوء الذى يسبق العاصفة ، فما ان تسرى نسائم الربيع فى المدينة
حتى تسرى معها شائعة بأن جيش الملك على الأبواب وأن الدراويش
أنفسهم قد أرسلوا عريضة التسليم الى الملك ، وتقوم المدينة قومة
واحد ، كل من كان قد وشم على جسده شعار الدراويش أخذ يحجوه ،
حتى نسوة العجر أخذن يحجن من على أجسادهن وشم العقارب
والحيات المرسومة عليها ، وعندما وصل الخبر الى الدراويش أسرعوا
الى أسوار المدينة لترميمها ، وها هو خاثر خان يرسل الى عبد الزكى
يفاوضه ، فيم ؟ فى أن الملك جمع لنفسه حريما جديدا ، واذا أراد
عدد من أهل الحق أن ينقذوا أنفسهم فعليهم اصطحاب الحريم القديم
معه والهروب الى الهند ، وسوف ييسر لهم ذلك فى سبيل انقاذ الملك
من هذا الحريم « غير المرغوب فيه » ، ثم على ميرزا عبد الزكى أن يطلق
زوجته ويمضى الى حال سبيله ، ويذهب ميرزا عبد الزكى الى رفيقه
ثم يمضيان الى حسن ويمضون جميعا الى تراب ، لكنه لا يتقبل العرض
بالانفعال المطلوب ، ويتحسس أحد المدافع قائلا : لو أننا أهل صفقات
لما صنعنا هذه المدافع ، مصائرنا معلقة بفواهاتها •

وتتصاعد حدة الأحداث بشكل لا يتوقعه أحد ، فالناس يهاجرون
من المدينة ، وتراب تركش دوز يتركهم ، من الأفضل أن تكون المدينة
خالية عند الدفاع عنها « أو الهروب منها بمعنى أصح » ، وبدأ الناس
يتجهون الى المساجد « التى لم يمروا بها منذ ستة أشهر » ، وعلى

البعد بدأت نيران معسكر الحكومة تبدو ، وبالرغم من أن الدراويش هاجموا بليل وغنموا بعض الغنائم ، الا أن عمال الحكومة السريين يضربون ضربتهم ويغرقون مخزن البارود الموجود في القصر ، اذن لم تعد هناك أهمية للمدافع فلم يعد أمام تراب الا الاجتماع بخانلر خان .

بعد ساعة من المشاورة ، جمع رؤساء الدراويش : ليس أمامهم الا قبول عرض خانلر خان ، ليس أمامهم الا الحفاظ على المذهب بالحفاظ على رؤوسه ، هكذا كان يرى الأمر ، بينما كان أحد كبار قواده يرى أن الثورة قد انتهت الى القوادة ، فالحريم المرافق سوف يقدم هدية الى ملك الهند ، ويبلغ ميرزا عبد الزكي بالأمر فيقبل أن يكون مع الفارين ، فماذا عن ميرزا أسد الله ؟ انه لا يقبل الفرار ، انه لم يرتكب جرما ، انه يفضل الاستشهاد ، ما دام لا يستطيع المقاومة ولا يمكنه الفرار فليستشهد ، ويرد ميرزا عبد الزكي بعد نقاش طويل: اذن قررت أن تضحي بنفسك في سبيل لا شيء ؟ لا ... ليس في سبيل لا شيء بل في سبيل أن يعيش أولاده مرفوعى الرؤوس ، ويوصى ميرزا عبد الزكي بأن يطلب من زوجته ألا تترك نسج السجاد حتى تستطيع زوجته هو أن تربي أولادها .

في الليل فر « أهل الحق » من البوابة الشرقية مع مائة وعشرين امرأة من حرم السلطان وخانلر خان الذى قبل أن يكون رهينة حتى يغادروا الحدود ... ودخل السلطان المدينة حيث استقبله الناس والمصاحف فوق رؤوسهم والخبز والملح فى الصوانى ، وبالرغم من أن الدراويش كانوا قد فروا الا أن السلطان لم يرحم أهل المدينة ، عثروا على سبعة من الدراويش قتلوا أمام موكب ، وأغار جنده على مائة منزل ، وقبضوا على ألف أودعوا السجون ، وتم شق سبعة أشخاص فى اليوم التالى على باب القصر ، وفعل ميرزا خان داي

« خال أسد الله » كل ما في وسعه وخرج عن معظم ما له حتى استطاع أن يضع اسم ميرزا أسد الله في قائمة المنفيين ، أما زوج ميرزا عبد الزكي فلم تذهب الى حريم خانلر خان ، بل واستطاعت أن تنجى منزل حاجي ممرضا على أساس أنه مصنع للسجاد ، وظلت تصنع السجاد مع زوجة أسد الله ... وذات صباح ذهب خان داوي الى باب السجن بملابس ميرزا أسد الله وانتظره حتى خرج ولبس ملابسه ، وانصرف الى الصحراء •



هل تنتهي الرواية عند هذا الحد ؟ لا ... لابد أن نخبرنا الكاتب كيف وصلت القصة اليه ، وهل يهمننا الأمر ، سواء قصتها أحد أبناء الراعي الذي صار وزيرا ، أو ابن ميرزا أسد الله الذي وصل الى منصب ملك الشعراء ، أو ابنه الآخر الذي صار صاحب أكبر كتاب في المدينة ، سواء قصتها ميرزا عبد الزكي أو ميرزا أسد الله الذي عاد بعد عشرين سنة من السياحة والسفر ، لا يهم ، ما يهمننا أنها وصلت ، فهل تراها « وصلت » بالفعل ؟

تم الكتاب

المصادر

النصوص :

- ١ - افغانه، « علی محمد » : سوهر آهو خام . الطبعة الأولى تهران ١٣٤٠ ش .
- ٢ - جمالزاده « محمد علی » : دار المجانین . تهران ١٩٤٢ م .
- ٣ - جوبك « صادق » : تنكسر . تهران ١٣٤٢ ش .
- ٤ - حجازی « محمد » : زیبا . تهران ١٩٣١ .
- ٥ - مسعود « محمد » : کلیائی که در جهنم می رود . تهران ١٩٤٢ .
- ٦ - میر صادقی « جمال » : درازنای شب . تهران ١٣٤٩ ش .
- ٧ - جلال آل احمد : « نون والقلم » : الطبعة الثالثة . تهران ١٣٥٦ هـ . ش .

المصادر الفارسية :

- ١ - امیر خبزی (اسماعیل) : قیام آذربایجان وستارخان . تبریز ١٩٦٠
- ٢ - امیر قلی امینی : فرهنگ عوام اصفهان ١٣٥٣ ش .
- ٣ - امیر قلی امینی داستانهای امثال اصفهان ١٣٥١ ش .
- ٤ - انجوی شیرازی (سید ابو القاسم) : تمثیل ومثل . تهران ١٣٥٢ .
- ٥ - براهنی (رضا) : قصة نویسی . تهران ١٣٤٨ ش .
- ٦ - برهام (سیروس) : سوهر آهو خاتم در راهنمای کتاب شماره ١٠ دوره چهارم ١٣٤٠ ش .

- ۷ - پرویزی (رسول) : شلوارها و صله دار الطبعة السادسة .
تهران ۱۳۵۳ ش .
- ۸ - دریابندی (نجف) : شوهر آهو خانم در سخن
دوره ۱۲۱ .
- ۹ - سخائی (محمود) : مصدة در رستاخیزملت .
تهران ۱۹۵۲ .
- ۱۰ - کیمسارف : جنبه های نوین رمان فارسی معاصر .
در سخن دوره ۲۳ .
- ۱۱ - کیانوش (محمود) : بر رسی شعر و نثر فارسی معاصر .
تهران ۱۳۵۱ ش .
- ۱۲ - مستوفی (عبد الله) : شرح زندگانی من یا تاریخ دوره
قاجاریه . تهران ۱۹۴۵ .
- ۱۳ - ندوشن (محمد علی اسلامی) : شوهر آهو خانم در یغما
شماره ۱۱ سال ۱۳۴۰ ش .
- ۱۴ - نکو روح (حسن) : داستانهای صادق جوبک در « نکین »
شماره ۲۶ ، ۱۱۵۴ ش .
- ۱۵ - هدایت (صادق) : بوف کور . تهران ۱۳۴۲ ش .
- ۱۶ - هدایت (صادق) : سایه روشن . تهران ۱۳۴۲ ش .
- ۱۷ - هدایت (صادق) : سه قطره خون . تهران ۱۳۴۲ ش .
- ۱۸ - هدایت (صادق) : سک و لکرد . تهران ۱۳۴۲ ش .

المصادر الأوربية :

1. Avery (P.), Development in modern Persian Prose.
M.W. 1955.
2. Binder (L.), Iran, Polotical Development in a changing
Society Berk. 1962.
3. Kamshad (H.), Modern Persian Prose literature. comb.
1966.
4. Rypka (Y), History of Iranian literature. Ubsala 1959.

الفهرس

صفحة

٧	تصدير
٩	١ - الورود التي تنبت في جهنم محمد مسعود . . .
٢١	٢ - زيبا محمد حجازى
٤٠	٣ - دار المجانين سيد محمد على جمالزاده
٦٢	٤ - التنجستاني صادق جوبك
٨١	٥ - زوج السيدة آهو على محمد افغانى
١٣٧	٦ - طول الليل جمال مير صادقى
١٦٨	٧ - نون والقلم جلال آل أحمد

رقم الايداع ٨٦/٣٣٠٥
الترقيم الدولي ٦ - ٠٩٨٨ - ٠١ - ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الرواية ديوان الشعوب . . وفي هذا العرض التقدي
لروايات سبعة من أمهات الروايات الفارسية يقدم المؤلف
سباحة زمانية ومكانية في إيران تتسع زماناً لتشمل الثمانين
السنة الأخيرة ، ومكاناً لتقدم بيئات متعددة : طهران
وكرمانشاه وبوشهر وتنجستان . . عن طريق هذه الروايات
سيفهم القارئ كثيراً مما لا يعرفه عن إيران . . بنياها الدينية
والاجتماعية والسياسية ، والصراع الطبقي فيها ، ومشكلات
مجتمع يحتوى على الصراع بين القديم والجديد ، وبين من
يمثلون القديم ويمثلون الجديد ، كما يقدم الكتاب صورة من فن
جديد في أدب كلاسي مما يتشابه مع أدبنا العربي من مناح
عديدة .